

الجزء الأول

الفاصلة إلى البقرة آية ١٤١

عدد الفوائد: ٢٦٢

قال بشر بن السري:

«إنما الآية مثل التمرة،

كلما مضغتها استخرجت حلاوتها».

فحدث به أبو سليمان، فقال: «صدق؛ إنما يؤتى

أحدكم من أنه إذا ابتداء السورة أراد آخرها».

البرهان في علوم القرآن للزركشي ١-٤٧١

الجزء الأول الفاتحة إلى البقرة آية ١٤١

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]:

قال الإمام البغوي: «الشكر لا يكون إلا على النعمة، والحمد أعم من الشكر، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامداً».

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]:

ولأنه كذلك، فقد أراد لنا الخير أكثر مما نريده لأنفسنا؛ فجعل مفتاح الخير طلب الهداية في كل ركعة من كل صلاة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

[الفاتحة: ٢-٤]:

في هذه الآيات الثلاث الأولى من سورة الفاتحة يعلمنا الله ثلاث عبادات: كيف نحمده؟ وكيف نشني عليه؟ وكيف نمجّده؟!

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]:

قال رشيد رضا: «إنما قال ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾، ولم يقل مالك الدين؛ لتعريفنا بأن للدين يوماً يمتاز عن سائر الأيام، وهو اليوم الذي يلقي فيه كل عامل عمله ويؤفّق جزاءه».

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]:

قال ابن القيم: «فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله، وتيسير أسبابه».

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]:

تبرؤ من الشرك وتدفع الرياء، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: تبرؤ من الحول والقوة وتدفع الكبرياء.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]:

لولا الاستعانة بك ما عرفنا كيف نعبدك، ولا قدرنا على عبادتك.

جاءت بصيغة المخاطب بعد أن كان أول السورة بصيغة الغائب، كأن العبد لما حمد ربه وأثنى عليه ومجده قرب الله منه وأدناه، فكان في غيبة في أول الأمر، ثم صار حاضرًا بين يديه.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]:

قال ابن القيم: «أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه: الهداية إلى صراطه المستقيم المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، مع هذا تضمنها: تزكية النفوس، وإصلاح القلوب».

لاحظ أنك تدعو بالهداية في لحظة من أجل لحظات الهداية - وهي الصلاة - فكيف بالغافل العاصي؟! ومع هذا ينسى أن يسأل ربه الهداية!

(تكرار طلب الهداية) في قلب أعظم سورة في القرآن، وفي كل ركعة دليل على أن الضلال أقرب إلى العبد من شرك نعله، وأن فرص انحرافنا - مهما استقمنا - كثيرة، واحتمالات ذلك كبيرة.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]:

في الحديث: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال» صحيح الجامع رقم: ٨٢٠٢.

كل من عرف الحق فلم يتبعه شابه اليهود والتحق بالمغضوب عليهم، وكل من ضل طريقه في معرفة الحق شابه النصارى والتحق بالضالين.

جاء في صحيح البخاري: «إذا قال أحدكم آمين، وقالت الملائكة في السماء آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غُفر له ما تقدم من ذنبه». قال ابن المنير: «وأي فضل أعظم من كونه قولاً يسيراً لا كلفة فيه، ثم قد رتبت عليه المغفرة».

سورة البقرة

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]:

١٥

فلا يهتدي بأنوار القرآن غير المتقين؛ لأنهم أطفأوا نور الطاعة في قلوبهم، وآثروا ظلمة الذنب، فكانوا كالعميان!

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ كشف الله سرَّ عدم انتفاع أكثر الناس بالقرآن، فقال: [البقرة: ٢]، وما أقل من اتقى؛ ولذا.. ما أقل المهتدين!

١٦

هذه أول صفة مدح الله بها عباده في كتابه، وبها يتميز الخلق، فأشدهم إيماناً أعظمهم تصديقاً بالغيب؛ ولهذا سبقنا أبو بكر رضي الله عنه.

١٧

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]:

١٨

لا تحسر هذه الصفة بكثرة تتبعك لأخبار الإعجاز العلمي التي تؤيد ما جاء في القرآن، بل اجعل شعارك: إن كان قال فقد صدق!

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]:

١٩

قال أبو العالية: «أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقد من أمره صلاته، فإن وجدته يقيمها ويتمها أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه وقلت: هو لغير الصلاة أضيع».

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة: ٥]:

٢٠

جاء بلفظ (على) أي مستعينين بهدايتهم، وذكر الله أهل الضلالة فقال: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي منغمسين به.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]:

٢١

المال مال الله، ثم يمدحنا على إنفاقه!

٢٢

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٥]:

من كتب الله عليه الشقاوة في أم الكتاب، لن تجدي معه بشارة ولا نذارة ولا عتاب.

٢٣

لم ذكر النذارة ولم يذكر البشارة؟! قال الإمام الرازي: «وإنما ذكر الإنذار دون البشارة؛ لأن تأثير الإنذار في الفعل والترك أقوى من تأثير البشارة؛ لأن اشتغال الإنسان بدفع الضرر أشد من اشتغاله بجلب المنفعة».

٢٤

﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة: ٧]:

جمع القلوب والأبصار، ووحد السمع لسبيين:
الأول: أن السمع لا يمكن أن يدرك عددًا من المسموعات فهمًا وضبطًا في وقت واحد، بعكس البصر الذي يرى أكثر من شيء في الوقت نفسه.
الثاني: من جهة اللغة، وهو أن السمع مصدر، والمصدر لا يُجمع؛ لكونه يدل على الحدث المطلق، وأما الأبصار والقلوب فأسماء تُجمع.

٢٥

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]:

تقسيم كل إنسان بأفعاله لا بأقواله.

٢٦

﴿وَمَا تَخْذَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]:

قال ابن عرفة: «نفى عنهم الشعور، وهو مبادئ الإدراك، فبنفي مبادئ الإدراك ينتفي كل الإدراك من باب أخرى».

٢٧

﴿وَمَا تَخْذَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ [البقرة: ٩]:

أسلوب الحصر يدل على أن خداعهم مرتدٌ عليهم، فلن يضرُوا الله شيئًا، ولا رسوله، ولا المؤمنين.

٢٨

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]:

شدة الغفلة وتتابع الذنوب تجعل من صاحبها بلا شعور ولا إحساس.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]:

المريض يجد طعم الطعام على خلاف ما هو عليه، فيرى الحلو مرًا، وكذلك المنافقون يرون الحق باطلاً والباطل حقًا!

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]:

البعض يستعجل نزول عقوبة الله بالمنافقين، وما درى أن أعظم عقوباتهم هي مرض قلوبهم، فكيف بزيادة المرض واشتداده؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١]:

القائل هنا مبهم ليفيد العموم، فيشمل أيَّ قائل في أي زمان ومكان، فلن ينقطع يوماً نسل المنافقين ولا سلالة المجرمين.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾

[البقرة: ١٢]:

نادرًا ما يشعر المفسد أنه مُفسد! ولو شعر بذلك لانحلت المشكلة!

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]:

أخطر آثار الذنوب هو نزع إحساس القلب بوقعها عليه، أي موته!

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]:

لا عداً أشد من عداة المنافقين للمؤمنين؛ ولا إفساد أعظم من إفساد المنافقين في ديار المسلمين، ولذا جاءت الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكّدات: ﴿أَلَا﴾، و﴿إِنَّهُمْ﴾، و﴿هُمْ﴾، وهو من أبلغ صيغ التوكيد.

مرض القلب هو السبب الذي رأوا به الصور مقلوبة، وظنوا إفسادهم إصلاحًا.. ألم أقل لكم: أمراض القلوب مهلكة؟!

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]:

من ادّعى منزلة ونسبها لنفسه عوقب بالحرمان منها.

٣٧

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]:

هذا من الجهل المركَّب: أن تجمع بين الوقوع في الذنب مع اعتقاده حقاً، وصاحبه أعظم جناية وأصعب شفاء ممن يعمل الذنب مع اعتقاد أنه ذنب، فمثل هذا أقرب للشفاء.

٣٨

﴿أَنْتُمْ مِنْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]:

من صفات المنافقين احتقار الصالحين فضلاً عن المصلحين، والتقليل دوماً من شأنهم.

٣٩

الكبر من أهم أسباب عدم اتباع الحق، هل فهمت الآن لم لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر؟

٤٠

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]:

تحذير مهم! بعض الأصحاب شيطان في هيئة إنسان، لكن لا يراه على حقيقته إلا أهل الإيمان.

٤١

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُحُهمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]:

لا تتعجب من إملاء الله للمستهزئ بالحق، فإن الله ييغضه؛ لذا يملئ له ليزداد إثماً، فيتضاعف عذابه.

٤٢

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]:

اشترى الضلالة، مع أنها شرُّ سلعة، ودفعوا ثمن الشراء وضحوا في سبيله بالهدى، وهو غاية ما يتمناه عاقل، فبئست الصفقة، وما أعظم الخسارة.

٤٣

شغل المنافقين بالنار عجيب! كأنهم يشترونها.

٤٤

﴿فَمَا رَیَحَتْ تُحْرُتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]:

خسروا كل شيء: الربح ورأس المال، فما ربحوا دنيا ولا آخرة، ولا نالوا العاجل ولا الآجل، وهذا جزاء من قدَّم على الله سواه، وآثر شهوته وهواه.

٤٥

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]:

اختار النار لضرب المثل لأن النار لا توقد إلا بحطب، والإيمان لا تشتعل جذوته ولا يشرق نوره إلا بالعمل الصالح، والمنافق ليس له من العمل الصالح ما يحیی به إيمانه؛ لذا تنطفئ فيه جذوة الإيمان.

٤٦

النار إما أن تضيء وإما أن تُحرق، فمن أراد الله به الخير منحه النور من النار، ومن أعرض عن الله أحرقه الله بالنار.

٤٧

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]:

هذه عقوبة الله للمنافق الذي آثر الغواية على الهداية، وهجر نور الإيمان بعد أن استضاء به، وعرف ثم أنكر.

٤٨

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ

بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]:

الحيرة والغباء هما وجه الشبه! فحيرة المنافق تشبه حيرة من ذهب نوره في الظلام، واشتراكهما في الوقوع في الحيرة والحرمان والخبية والحسرة بعد ظهور تابشير الرجاء.

٤٩

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ﴾ [البقرة: ١٧]:

فليست ظلمة واحدة بل ظلمات متراكمة مركبة؛ ظلمة الحقد على المؤمنين والكراهية لهم، وظلمة تمنى هزيمة المؤمنين، وظلمة تمنى أن يصيبهم سوء وشر، وظلمة التمزق والألم من الجهد الذي يبذله المنافق ليتظاهر بالإيمان.

٥٠

﴿صُمُّ بِكُمْ عُمَى﴾ [البقرة: ١٨]:

وصف المنافقين بأن حواسهم معطلة؛ فالصمم: انعدام حاسة السمع عمن كان سميعاً، والبكم: انعدام النطق عمن كان ناطقاً، والعمى: انعدام البصر عن المبصر؛ لأنهم وإن كانت لهم آذان تسمع، وألسن تنطق، وأعين تبصر، إلا أنهم لا يسمعون خيراً، ولا يتكلمون بالخير، ولا يبصرون طرق الخير، ومن كان كذلك كان هو ومن فقد حواسه سواء.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]:

٥١

لا يرجعون عن التمسك بنفاقهم، فهم أصحاب مبدأ، لكنه مبدأ باطل! كيف لا يتمسك أهل الحق بالمبدأ الذي يؤمنون به؟!

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩]:

٥٢

القرآن هو الصيب الذي ينزل من السماء، والقرآن يحيي الله به القلوب فهو مثل المطر، ينتفع به المؤمنون، وأما المنافقون فينتفعون ببعضه ولا ينتفعون ببعضه، فانتفعوا بما أظهروا من إيمان، فجرت عليهم أحكام أهل الإسلام، فهذا النور هو الذي انتفعوا به.

﴿فِيهِ ظُلُمَتٌ وَّرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]:

٥٣

قل إن رعد القرآن: زواجره التي تخيف، وبرق القرآن: أنواره ومنافعه التي نالت المنافقين بعصمة دمائهم وأموالهم، وأما الظلمات فهي الشكوك التي تتاب المنافقين من قراءة القرآن؛ وجعل أصابعهم في آذانهم هو تخوفهم وحذرهم من فضح نفاقهم، وكراهيتهم لتكاليف الشرع من الجهاد والزكاة.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠]:

٥٤

على المؤمن أن يسأل ربه دائماً أن يُمتعه بسمعه وبصره؛ وألا يسلبه هذه الحواس حقيقة، أو مجازاً بعدم انتفاعه بها.

﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]:

٥٥

عجيب أن يعبد بعض الناس غير الذي خلقهم، أين العقول يا أصحاب العقول؟! من الناس في هذه الآية؟!

٥٦

قال القرطبي: «واختلَف من المراد بالناس هنا على قولين:

أحدهما: الكفار الذين لم يعبدوه، يدل عليه قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ [البقرة: ٢٣].

الثاني: أنه عام في جميع الناس، فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها، وهذا حسن».

٥٧

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]:

ما هدف العبادة؟!

هدفها: بلوغ شاطئ التقوى، كأنه قال: اعبدوا ربكم رجاء اللحاق بقوافل المتقين، وفيه إشارة إلى أن التقوى منتهى أمل وغاية طموح العابدين.

٥٨

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]:

أمر الله تعالى بالانتباه إلى ست دلائل على ألوهيته: اثنتان من الأنفس، وأربع من الآفاق:

أولاً: نفس العبد: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ لأن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه.

ثانياً: الآباء والأمهات، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

ثالثاً: الأرض لأنها أقرب شيء للإنسان.

رابعاً: السماء لأنها تُظِلُّ العبد في كل مكان.

خامساً: والماء الذي ينزل من السماء.

سادساً: الثمرات التي تخرج من الأرض.

٥٩

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]:

لا تعلقوا قلوبكم بغير الله، فإنه سبحانه المتفرد بالخلق والأمر، فإذا توهمتم أن شيئاً من نفع أو ضرر، أو خير أو شر يجري بتدبير مخلوق مثلكم، فاعلموا أنه لون من الشُّرك الخفي.

٦٠

من كان محتاجاً، هل يصلح أن ترفع إليه حاجتك؟! اعلّموا أن تعلق الفقير بالفقير، واعتماد المحتاج على المحتاج يزيد الفقر، ولا يزيل أثر الضر.

٦١

فيه إشارة إلى أن ارتكاب الباطل من الجاهل قبيح، لكنه من العالم أشد قبحاً.

١٢

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]:

أتى خبر من الأحبار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، نَعَمَ القوم أنتم، لولا أنكم تجعلون لله ندًا، قال: «سبحان الله، وما ذاك؟» فقال: تقولون: ما شاء الله وشئت، قال: فأَمَهَل رسول الله ﷺ شيئًا ثم قال: «إنه قد قال، فمن قال: ما شاء الله، فليفصل بينهما، ثم شئت». رواه أحمد بإسناد صحيح.

١٣

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]:

أول آية من آيات التحدي في القرآن، وهي واحدة من خمس آيات تحدى الله بها المشركين أن يأتوا -وهم أهل البلاغة والفصاحة- بشيء من القرآن، فعجزوا.

١٤

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]:

شهداءكم: أي أهلكم، وأمرهم بدعوة الأصنام وهي جماد، مع تسميتها شهداء رغم أنها لا تعقل، كلون من ألوان التهمك، لتنبههم إلى جهلهم وسفاهة عقولهم.

١٥

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]:

إذا كانت هذه النار لا تثبت لها الحجارة مع صلابتها، فكيف يطبقها الناس مع ضعفهم ولين أبدانهم؟!

١٦

فيه دليل على أن النار موجودة الآن ومخلوقة، خلافًا لمن قال: إنها لم تخلق حتى الآن. روى مسلم عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها». صحيح مسلم رقم: ٢٨٤٤.

١٧

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]:

السيئات نار موقدة، لكنها نار مؤجلة، لا تشتعل على صاحبها إلا بعد الموت، والعاقل من يتقيها لا من يوقدها ويذكيها.

١٨

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]:

ديدن الكافرين الاعتراض على حُكم الله، والتساؤل باستمرار حول حكمة الله في الأحداث بغرض بثّ الشبهات.

٦٩

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا

بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]:

ثمار الجنة رائعة ومتجددة، الشكل هو الشكل، لكن الطعم مختلف، واللذة متزايدة، يوماً بعد يوم إلى ما لا نهاية. قال ابن عباس: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي».

٧٠

﴿أَنَّ هُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا

قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ

مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]:

مجامع اللذات في ثلاثة:

المسكن والمطعم والمنكح، فجمعها الله في هذه الآية، لكن هذه النعم إذا اقترن بها خوف الزوال كان التنعم بها منغصاً، فبشّرهم الله بالخلود ليزيل عنهم هذا الخوف، فصارت الآية دالة على كمال التنعم والسرور.

٧١

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]:

تحداهم بأحق ما رآته أعينهم، أن يخلقوا مثله، وقيل: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي في الحقارة، فيكون المعنى أحقر من البعوضة، فإن عجزتم عن الحقير، فماذا عن العظيم؟!

٧٢

﴿وَيَقْطَعُونَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]:

يدخل في الآية كل قطعة لا ترضي الله كقطع الرحم، وهجر المؤمنين، وعدم موالاته الصالحين، وترك حضور الجماعات المفروضة، والمعاملة بالمثُل! ففي الحديث الصحيح: «من وصل صفاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعه الله». صحيح الجامع رقم: ٦٥٩٠.

٧٣

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]:

من رحمة الله بنا أن قرَّب لنا مشاهد الغيب بأمر حسي مشاهد، فمن استبعد البعث بعد الموت، فليذكر بدء خلقه من نقطة مهينة محتقرة هي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.

٧٤

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]:

كل ما هذا الكون مسخر لخدمتك، فيا لسمو مكانتك وعظيم رتبتك! وفي الآية إشارة خفية إلى شناعة كفر الكافرين رغم إحسان رب العالمين. إشارة إلى أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل أو نص على التحريم.

٧٥

٧٦

﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]:

حتى الملائكة -وهم أطهر الخلق- تحرسك وترعاك: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]

٧٧

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]:

أعطاك عطاء لا ينقطع، دون سعي منك أو سؤال، فهل شكرت ذلك أم تأخذ كل شيء دون أن تعطي كالمحتال؟!

٧٨

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]:

أصل النعم: الحياة، وأول ما أنعم الله به على عباده أن خلقهم أحياء، من النعم المنسية أنك حي الآن وغيرك مات.

٧٩

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]:

مهما علت رتبتك ستظل بعض حكمة الله غائبة عنك، وهل هناك أعبد وأطهر من الملائكة؟! ومع ذلك غاب عنهم حكمة خلق آدم.

٨٠

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]:

كلما طهر القلب زادت حساسية صاحبه تجاه المعصية! قالت الملائكة هذه المقالة، إما على طريق التعجب من استخلاف الله لمن يعصيه، أو التعجب من عصيان من يستخلفه الله في أرضه.

٨١

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]:

هذه واحدة من أربع خصال شَرَّفَ الله بها آدم عليه السلام، فقد عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كل شيء، وخلق بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وهذه لم تجتمع لأحد غيره.

٨٢

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]:

كل علم لدينا إنما هو مما أذن الله لنا أن نعلمه، ثم يأتي بعد هذا (مُلْحِد) يجادل في وجود الله بسبب ما وصل إليه من علم!

٨٣

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]:

معاتبه للملائكة على تركهم الأولى، حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة، وكان الأولى أن يأخذوا بالأدب اللائق بمقام الألوهية، فتركوا السؤال عنها حتى يُظهرها الله أو لا يُظهرها.

٨٤

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]:

الكبر يقود إلى الكفر.

٨٥

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]:

الظلم: وضع الشيء في غير موضعه؛ لذا كانت المعصية ظلمًا؛ لأن العبد يضع نعمة الله في غير مكانها، وأول ظلم وقع كان من آدم وحواء.

٨٦

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]:

وقال بعدها: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، وكلتا الآيتين في البقرة، فقدَّم الرغد في الأولى لأنها في قصة آدم وهذا في الجنة، وأخرها في الثانية لأنها في بني إسرائيل وهذا في الدنيا، ورغد الجنة مقدَّم على رغد الدنيا.

٨٧

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]:

إلى حين، فلستم بخالدين! لذا ينبغي الزُّهد في الدنيا، وعدمُ الاعتِرار بنعيمها.

٨٨

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]:

كل معصية زلل، والزلل: الانزلاق على الأرض دون اختيار أو إرادة، وهو مجاز مشهور في وقوع الخطيئة، فهي سبب إخراج آدم وحواء من الجنة، وسبب تنحيتها عن المرتبة التي شَرَّفهما الله بها.

٨٩

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]:

احذر عدوك أن يغرَّك كما غرَّ الأبوين.

٩٠

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]:

آدم عليه السلام أبو الأنبياء، ومن خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ومع هذا لم يستغنِ عن التوبة، فكيف يستغني عنها مثلي ومثلك؟!

٩١

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]:

ذكر ابن القيم أن ترك المأمور أشدُّ من فعل المحذور؛ فذنبُ آدم عليه السلام كان بفعل المحذور، فكان عاقبته أن اجتباه ربُّه، فتَابَ عليه وهَدَى، وذنبُ إبليس كان بترك المأمور، فكان عاقبته ما ذكر الله تعالى.

٩٢

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]:

قال سعيد بن جبير والحسن ومجاهد: تلقى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فلولا إلهامه له بالتوبة ما تاب.

٩٣

﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

﴿مَحْزُونُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]:

نفى الله عمَّن اتبع هداه الخوف والحزن، والفارق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا في المستقبل، أحدث الخوف، فنفاهما الله عن كل مهتدٍ، وإذا انتفيا حصل ضدُّهما، وهو الأمان التام.

٩٤

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]:

قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذي هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأمااتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة».

والمراد بأهل النار: الكفار، فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الأقوام الذين أصابتهم النار بذنوبهم، فهم عصاة الموحدين.

٩٥

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]:

إن لم تطيعوه لأنه المستحق للطاعة، فاستحيوا أن تعصوه باستعمال نعمة التي أنعم بها عليكم.

٩٦

الذكر هو الحفظ من النسيان، والله تعالى غيب، لن نراه إلا في الجنة، لكننا نرى نعم الله فنذكره، وبذكره يكون حاضرًا في ضميرنا كأننا نراه.

٩٧

إعادة تعريف النعمة! قال القشيري: «النعمة ما أشهدك المنعم، أو ما ذكرك بالمنعم، أو ما أوصلك إلى المنعم، أو ما لم يحجبك عن المنعم».

٩٨

﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠]:

طلب منكم تذكر نعمة واحدة للإشارة إلى أن استحضار النعم كلها محال، فلا تطيقون إلا شكر نعمة واحدة.

٩٩

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠]:

إسرائيل هو يعقوب عليه السلام، وفي نسبتهم إلى أبيهم إسرائيل حث لهم على الاقتداء به، وامثال أوامر الله ونواهيها، كأنه قيل: يا بني النبي الكريم.. كونوا مثل أبيكم في الطاعة والعبادة.

١٠٠

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]:

قال الإمام الرازي:

«وهذه الجملة الكريمة تدل على صدق النبي ﷺ من وجهين:

أولهما: أن الكتب السابقة قد بشرت به، وشهادتها لا تكون إلا حقاً.
وثانيهما: أنه - عليه الصلاة والسلام - قد أخبرهم عما في كتبهم بدون معرفة سابقة لها، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الوحي».

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١]:

احذروا أن تكونوا أول فريق يكفر بالقرآن، فيقتدي بكم آخرون، فتكونوا أئمة في الكفر، وأعظم الخلق في الوزر: «من سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها...».

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]:

قال الإمام الرازي:

«واعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقتين، إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله بتشويش تلك الدلائل عليه، وإن كان ما سمعها فإضلاله بإخفاء تلك الدلائل عنه.

فقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ إشارة إلى القسم الأول، وهو تشويش الدلائل عليه.

وقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ إشارة إلى القسم الثاني، وهو منعه من الوصول إلى الدلائل».

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]:

الخطاب لليهود، مما يدل على أن الكفار مخاطبون - كما المسلمون - بفروع الشريعة.

ليس هنا تكرار، فالأمر الأول هو أمر بإقامتها، والأمر الثاني بالركوع هو بأدائها في الجماعة.

﴿وَنَسُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤]:

بعض من (يتلو الآيات) يخاطب بها الناس، وينسى نفسه!

١٦

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]:

قد ينفد زاد الصبر؛ لذا أمرنا الله أن نستعين بالصلاة الخاشعة لتعين الصبر وتقويه.

١٧

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]:

كثيراً ما نوصي من أصيب بمصيبة أن يصبر، لكن ننسى أن نوصيه بقرينة الصبر وهي الصلاة، وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع للصلاة.

١٨

﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]:

خَفَّتْ عليهم عظام الأمور بخشوعهم في الصلاة، فالخشوع قوة!

١٩

﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٥،

٤٦]:

الصلاة ثقيلة على كل من لم يخشع فيها، وأكثر ما يجلب الخشوع فيها اليقين باليوم الآخر.

٢٠

﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ

إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]:

أكثر ما يعين على الخشوع استحضر القلوب للموت؛ ولذا كانت وصية النبي ﷺ: «اذكر الموت في صلاتك، فإنَّ الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صلاته، وَصَلَّ صلاة رجل لا يظن أنه يصلي صلاة غيرها». صحيح الجامع رقم: ٨٤٩.

٢١

﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]:

ليكن لسانك رطباً بذكر ما تتابع من نعم الله عليك.

٢٢

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]:

فَضَّلَ الله بني إسرائيل على العالمين لما آمنوا واتقوا، فلما أعرضوا وعصوا سلبهم الله هذا الشرف والتفضيل، وأحلَّ مكانه اللعنة والعذاب الويل، ليس بنو إسرائيل وحدهم في هذا المضمار!

١١٣

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]:

يومٌ حذرك الله منه، كم مرة يخطر ببالك؟! وما استعدادك له؟!!

١١٤

في الحديث: «يا معشر قريش! اشترُوا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً».

يا بني عبد مناف! اشترُوا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً.

يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً.

يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً.

يا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً».

صحيح الجامع رقم: ٧٩٨٢.

١١٥

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا

يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]:

العَدْل هو الفدية، والذي يخفف العذاب واحد من ثلاثة: شفاعة؛ أو فدية؛ أو نصر، وثلاثتها مستحيلة في الآخرة.

١١٦

قال الرازي: «في الآية أعظم تحذير عن المعاصي، وأقوى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة؛ لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصر ولا فدية، علم أنه لا خلاص له إلا بالطاعة، والآية وإن كانت في بني إسرائيل، فهي مخاطبة للكل؛ لأن الوصف الذي ذُكر فيها وصف لليوم، وذلك يَعْم كل من يحضر في ذلك اليوم».

١١٧

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]:

قدّم الله هنا الشفاعة على أخذ الفدية، لكنه في الآية المائة والثالثة والعشرين من نفس السورة قدّم الفدية على الشفاعة: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا

شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]: فما السبب؟!!

قيل: من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس، فإنه يقدم

التمسك بالشفعاء على دفع الفدية، ومن كان بالعكس قَدَّم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب، الإشارة إلى كلا الصنفين.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]:

امتن الله على اليهود بأن أنجاهم من فرعون الذي كان قد أمر بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، مع ترك كل جارية لاستعمالها في الخدمة، فهل شكر اليهود النعمة؟!

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٠]:

أحرق جميع خرائطك، ما دامت بوصلة قلبك متجهة نحو ربك.

﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]:

تأمل: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. عند اشتداد الظلم لا يشفي غيظ المظلوم إلا رؤية مصرع من ظلمه.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]:

فصل من فصول عجائب بني إسرائيل! بعد أن نجَّاهم الله، وأغرق فرعون وجنوده أمامهم، طلبوا من موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فوعده الله أن يعطيه التوراة بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته، فذهب موسى ورجع ليجد قومه قد اتخذوا العجل إلهًا من دون الله!

تذكير يحمل في طياته التعجب من حالهم، فقد قابلوا أعظم نعم الله ومعجزاته بأقبح أنواع الكفر والجهالة، حيث عبدوا في غيبة نبيهم ما يعتبره الناس مثلاً في الغباوة والبلادة وهو العجل.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢]:

يا لرحمة الله الواسعة! لم يعاجل من كفر به باتخاذ عجلًا إلهًا بالعقوبة، بل قبل توبتهم، وعفا عنهم، أفلا يعفو عمن وقع في ما هو أهون من ذلك بكثير؟!

١٢٤

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]:

من هجر الوحي والكتاب سار في طريق الغي والضلال.

١٢٥

﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]:

كانت توبة بني إسرائيل أن يقتل بعضهم بعضًا، وقد نفذوا هذا الأمر على مشقته، فما أقل مشقتنا إلى مشقتهم، وأيسر توبتنا إلى توبتهم!

١٢٦

قال الإمام الزُّهري: «لما أمر بنو إسرائيل بقتل أنفسهم برزوا ومعهم موسى، فتضاربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافعٌ يديه، حتى إذا فتروا أتاه بعضهم، فقال له: يا نبي الله.. ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يشدون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم، قبض أيدي بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله إلى موسى: لا تحزن، أما من قُتل فحيٌّ عندي يُرزق، وأما من بقي، فقد قبلت توبته، فسرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل».

١٢٧

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]:

طلبوا رؤية الله جهرة في الدنيا، وعلّقوا إيمانهم على ذلك، ولم تكفهم المعجزات التي رأوها، ولا أنهم أجمروا في حق الله بكفرهم وعبادة العجل، فكان فجورا وعنادا، جازاهم الله عليه بالصاعقة.

١٢٨

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]:

من طلب الرؤية هم خيار بني إسرائيل، والصفوة التي اختارها موسى بنفسه، هذا حال الصفوة، فكيف بالعوام؟!!

١٢٩

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى﴾ [البقرة: ٥٥]:

ويحكم.. وهل الإيذان إلا بالغيب؟

ولو شاهدتم هذا الغيب عيانًا -وأنتم لا زلتم في الدنيا- لما كان لامتحانها معنى، ولأمن كل الكفار ولحقوا بركب الأبرار.

١٣٠

﴿لَنْ نُّؤْمِنَ﴾ = ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْعَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]:

بعض الحروف تجرّ الحتوف، ومن حصائد الألسنة ما يستنزل العذاب.

١٣١

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]:

أحييناكم بعد الموت في سابقة لا تحدث إلا يوم القيامة، لتزدادوا إيماناً وشكراً فازددتم طغياناً وكفراً! ألا ما أكرم الرب وأكفر العبد!

١٣٢

﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]:

ما طلبوا شيئاً إلا أُجيبوا إليه ومع هذا كفروا! قال السُّدِّي: «لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ها هنا؟

- أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان ينزل على شجرة الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السُّماني أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام.

- فأين الشراب؟ فأمر الله تعالى موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب.

- فأين الظل؟ فظل الله عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل.

- فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتمزق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى:

﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ...﴾.

١٣٣

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: ٥٧]:

وهل يقدر أحد على ظلم الله؟! المعنى: ما نقصونا شيئاً بمعصيتهم؛ فالله لا تضره معصية العصاة، ولا تنفعه طاعة التُّقاة.

١٣٤

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]:

التذكير بالنعم منهج قرآني. قال ابن عطاء الله: «من لم يشكر النعم فقد تعرّض
لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقلها».

١٣٥

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]:

عقوبة من بدّل من الوحي حرفاً! قالوا حنطة بدلاً من حِطَّة، والحنطة هي حط
الخطايا، والحنطة نوع من الحبوب، وقالوها استهانة بأمر الله واستهزاء، فأنزل
الله عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم وبغيهم.

١٣٦

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]:

قال ابن كثير: «لا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلّبوها».

١٣٧

﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ﴾ ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]:

ذل الأمة عقوبة لها على ابتعادها عن دينها، فالله يُعزُّ الطائع ولو كان ضعيفاً،
ويذل العاصي ولو كان قوياً.

١٣٨

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]:

تعنت وقلة طواعية لأمر الله؛ ولذا عوقبوا بالتشديد. قال ابن عباس: «لو
ذبحوا أي بقرة أجزأتهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم».

١٣٩

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا
هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧]:

يا لدناءة اليهود؟! شقّ الله لهم البحر، وأنجاهم من فرعون، وأحياهم بعد
الموت، ثم تردّدوا في تنفيذ أمره بذبح بقرة!

١٤٠

﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ﴾ [البقرة: ٦٨]:

الفارض: المسنة التي لا تلد، والبكر: الفتية الصغيرة التي لم تلد قط.

﴿صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]:

للألوان المبهجة أثر على النفوس، فلون حياتك بألوان الفرح.

﴿فَذَحِّخُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]:

طلبوا الحيلة ما أمكنهم للتهرب من التكليف الإلهي، فلما ضاق عليهم الخناق استسلموا للحكم، ليتخلصوا من المطالبات والملاحقات، وكم يعيش بيننا أمثال هؤلاء!

﴿وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]:

ما تكتمه في صدرك سيخرجه الله لا محالة، فزِنِ باطنك كما زينت ظاهرك.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]:

قست قلوبهم بعد أن رأوا معجزة إحياء الله لقتيل بني إسرائيل، والدرس: لا تأمن قسوة قلبك بعد اليقظة.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَلْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]:

حجر سقط من رأس جبل من خشية الله، فكان ألين من كثير من القلوب القاسية!

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ

تُخْرِفُونَهُ، مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]:

النهي عن الطمع في إيمانهم لا يعني أبداً ترك دعوتهم، فالمؤمنون مأمورون بدعوتهم لإقامة الحجة عليهم، وتفنيد قائمة أعدائهم في الآخرة، والمؤمن ينال الأجر بفعل الأمر دون النظر إلى الإجابة من عدمها.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ

بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦]:

ما كان اليهود يوماً على قلب رجل واحد! كان بعض منافقي اليهود إذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا، وإذا رجع بعضهم إلى بعض، تلاوموا وقال بعضهم: أتحدثونهم بما جاء في كتابكم أن محمداً حق وقوله صدق؟

١٤٨

﴿أُولَٰا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]:
اليهود أغبياء في زي أذكفاء، وأجسام بلا أفهام.

١٤٩

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ﴾ [البقرة: ٧٨]:
قال ابن تيمية: «ذلك متناول لمن ترك تدبر القرآن، ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه!». »

١٥٠

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]:

قال الراغب: «فإن قيل: لم ذكر ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بلفظ المستقبل، و﴿كَتَبَتْ﴾ بلفظ الماضي؟ قيل: تنبيها على ما قال النبي ﷺ: «من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»، فنبه بالآية إلى أن ما أثبتوه من التأويلات الفاسدة التي يعتمدها الجهلة هو اكتساب وزر يكتسبونه حالا فحالا، وعبر بالكتابة دون القول لأنها متضمنة له وزيادة، فهي كذب باللسان واليد، وكلام اليد يبقى رسمه، أما القول فقد يضمحل أثره».

١٥١

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]:
هذا أدب النبوة العالي والخلق السامي، بدلا من أن يقول لهم: أتفترون على الله الكذب، مع أن الذي يخلق الكلام يعلم في قرارة نفسه أنه كذاب.

١٥٢

﴿وَقَالُوا لَن نَّمْسَنَ النَّارَ إِلَّا آيَاتًا مَّعْذُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]:
ليتهم اكتفوا بالإساءة، لكنهم جمعوا معها أمن العقوبة، فكل من أمن عقوبة الذنب، فقد شابه اليهود.

١٥٣

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]:

سأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحان الله.. ألا أراك ذا حية وما تدري

ما الخطيئة؟! انظر في المصحف، فكل آية نهى فيها الله عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار، فهي الخطيئة المحيطة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢]

قال ﷺ: «يؤتى بالموت كأنه كبش أملح حتى يوقف على السور بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة! فيشرَّبون، ويقال: يا أهل النار! فيشرَّبون، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم!! هذا الموت فيضجع ويذبح، فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحًا، ولولا أن الله قضى لأهل النار الحياة فيها لماتوا ترحًا». صحيح الجامع رقم: ٧٩٩٨.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]

للناس كل الناس، ولو كان غير مسلم! قال ابن عباس: «لو قال لي فرعون خيرًا، لرددت عليه مثله».

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣]

قدّم الله القول الحسن على الأمر بإقامة الصلاة!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤]

قال ابن عاشور: «وأشارت هذه الآية إلى وصيتين من الوصايا الإلهية الواقعة في العهد المعروف بالكلمات العشر المنزلة على موسى عليه السلام من قوله: «لا تقتل، لا تشته بيت قريبك»، فإن النهي عن شهوة بيت القريب لقصد سد ذريعة السعي في اغتصابه منه».

فرض الله عليهم ثلاثة أمور: ألا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يُخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، وإذا وجدوا أسيرًا منهم، وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأمر الأخير فقط، وتركوا الأول والثاني، فأنكر الله عليهم ذلك فقال: ﴿أَفْتَوْمُنُونِ بَعْضُ الْكِتَابِ﴾، وهو فداء الأسير، ﴿وَتَكْفُرُونَ بَعْضُ﴾ وهو القتل والإخراج.

١٥٩

تبعيض الدين وتجزئة الشريعة!

كان بنو قريظة حلفاء الأوس، وبنو النضير خلفاء الخزرج، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه، وإذا غلبوا خربوا ديار بعضهم وأخرجوهم، وإذا أُسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفتدوه، فغيرتهم العرب وقالت: كيف تقتلونهم ثم تفتدونهم؟! فيقولون: أمرنا الله أن نفديهم، وحرّم علينا قتالهم، ولكننا نستحي أن نُذلّ حلفاءنا.

١٦٠

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥]:

جعل الله الخزي مصير من آمن ببعض الكتاب وترك بعضه، ونفس العذاب كان من نصيب فرعون: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

١٦١

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا تُخَفِّفْ عَنْهُمْ أَلْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]:

اخترأوا النار على العار! قالت اليهود: إنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم من وراء ذلك العار، فاختاروا النار على العار!

١٦٢

﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]:

روح القدس هو جبريل عليه السلام، فالملك الذي نزل على عيسى عليه السلام هو الذي نزل على محمد ﷺ، رسالة واحدة ودين واحد من رب واحد عن طريق ملك واحد.

١٦٣

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]:

وسُمّي جبريل بروح القدس لأنه بمنزلة الأرواح للأبدان، فيحيي الله بالوحي الذي ينزل به جبريل من مات قلبه.

١٦٤

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]:

من كذب من الأنبياء: عيسى ومحمد عليهما السلام، ومن قُتل: يحيى وزكريا

عليهما السلام، فإذا كان هذا ما قوبل به الأنبياء والرسل، فماذا يتوقع ورثتهم من الدعاة؟!

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]:

يشبه سلوك هؤلاء اليهود سلوك الذي إذا نُصح ودُعي إلى الحق، قال: ما هداني الله، أو لم يكتب الله لي الهداية بعد.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]:

عدم الهداية نتيجة، فبسبب كفرهم حرّمهم الله من الهداية والإيمان، والبادئ أظلم. العقوبة على الذنب قد تكون بذنب أعظم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]:

ما سبب كفر اليهود؟! أولاً: كان اليهود قبل بعثة النبي ﷺ يسألون الفتح والنصرة قائلين: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي الأُمي، وكانوا يظنون أنه سيكون من بني إسرائيل، فلما بعث الله محمداً من نسل إسماعيل، أظهروا التكذيب. وثانياً: اعترفهم بنبوته كان يوجب عليهم زوال رئاساتهم وأموالهم، فأبوا إلا الإنكار.

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]:

اليهود قتلة الأنبياء! ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل قتلتم كما قال ﴿كَذَّبْتُمْ﴾، وكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام كل سامع، وجعله ينظر إليها بعينه، ليكون إنكاره لذلك أبلغ، واستفظاعه أعظم.

﴿بِمَسَمَاسٍ اشْتَرَوْا بِهِم أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]:

تحليل نفسي لسبب الكفر! البغي هو الظلم، والظلم هنا هو الحسد، والحسد

هو ما قاد اليهود إلى الكفر، فبسبب حب الرئاسة والتعصب لقومهم اختاروا الكفر بمحمد ﷺ على الإيمان به.

﴿يَسْمَا أَشْتَرُوا بِمَةِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا﴾ [البقرة: ٩٠]:

عبر عن كفرهم بصيغة المضارع: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ إشارة إلى أن الكفر طبيعة مستقرة في نفوس اليهود، وأنهم متمسكون بهذه الطبيعة المنحرفة على مر العصور.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُونِ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]:

أسند الله إليهم القتل مع أنه فعل آبائهم؛ لأنهم راضون به، فولاية القاتل تصنع منك قاتلاً!

﴿فَلَمْ تَقْتُلُونِ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١]:

قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ طمأنة للنبي ﷺ إلى أن قتل الأنبياء قد انتهى، وقضاء على آمال اليهود في قتل رسول الله ﷺ.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونِ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]:

أفجم خصمك بالدليل القاطع! إن قال اليهود: نؤمن بما أنزل علينا، فقل لهم يا محمد: فلم قتلتم أنبياء الله الذين جاؤوا بما أنزل عليكم!! والدرس: لا يرد الكذب الصراح إلا المواجهة الصريحة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ

ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢]:

﴿ثُمَّ﴾ أبلغ من الواو في تقرير بني إسرائيل، أي بعد النظر في كل هذه الآيات البينات اتخذتم العجل إلهاً! وهذا دليل على أنهم فعلوا هذا بعد مهلة كافية للنظر في الآيات للاعتبار، فقرار الكفر اتخذوه بعناد وإصرار.

﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]:

عالج هواك في أوائله قبل أن يتغلغل، فإذا تغلغل تشرب به القلب، وعميت البصيرة.

﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ﴾ [البقرة: ٩٣]:

تذكّر أن من الفتن والمعاصي ما تمر عليه مرور الغافلين، فيتشربها قلبك دون أن يشعر، فيغذّي بها جوارحك.

﴿يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٩٣]:

الإيمان سلطة نافذة تأمر وتنهى، وليس مجرد مشاعر باردة لا تغير سلوكا، ولا تشفي قلبا.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥]:

قال ابن رجب: «فدّلّ على أنه يكره الموت من له ذنوب يخاف القدوم عليها، كما قال بعض السلف: ما يكره الموت إلا مُريب».

المسيء لا يتمنى الموت خوفا من عقوبته، والمحسن يتمناه -إن تمناه- ليلقى عاقبة إحسانه وحلاوة مثوبته.

هذه معجزة للنبي ﷺ أعجز بها اليهود، فقد دعاهم إلى تمني الموت، وأخبر أنهم لا يتمنوه أبداً، إذ لم ينطق أحد منهم أبداً بتمني الموت، ولو كذباً، وهذا من أعلام نبوته.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]:

حياة.. أي حياة، فاليهود يحرصون على أي حياة، ذليلة كانت أو كريمة، أهم شيء ألا يموتوا.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ مِنْ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٩٦]:

ليس طول العمر محموداً دوماً، بل هو مذموم إن كان سبيلاً للاستزادة من المعاصي.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ

يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]:

كره الإمام أحمد أن يقول الرجل للرجل: «أطال الله بقاءك»؛ لأن طول البقاء قد ينفع العبد وقد يضره؛ والأولى أن تدعو له بطول البقاء مع صلاح العمل.

﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]:

١٨٥

نزل على القلب ليتدبره القلب، فهل استقبلنا آيات القرآن (بقلوبنا)؟!

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوُّ

١٨٦

لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]:

قال الإمام ابن جرير: «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل؛ إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وميكائيل ولي لهم».

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]:

١٨٧

في صحيح البخاري: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبي ﷺ وهو في أرض يخترف - أي يجني ثمارها - فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفاً. قال: جبريل؟ قال: نعم. قال: ذلك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ النبي ﷺ هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ

كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩]:

١٨٨

قال ابن عباس: هذا جواب لابن صوريا (أحد أحرار اليهود) حيث قال لرسول الله ﷺ: يا محمد.. ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بينة فتنبعك بها؟ فأنزل الله هذه الآية، ذكره الإمام الطبري.

﴿أَوْكُلَمَا عَهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]:

١٨٩

هي عادة اليهود، كانت، وظلّت، وستستمر.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا

١٩٠

الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]:

عرفوا الحق وحادوا عنه؛ لذا غضب الله عليهم، فالعصيان مع العرفان قمة الخذلان.

١٩١

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]:

تركوا شريعة الله التي نزلت على محمد ﷺ، واتبعوا ما اختلقته الشياطين من السحر والأوهام في عهد سليمان عليه السلام، ومن هذه المفتريات زعمهم أن سليمان كان ساحراً، وأن ما تم له من الملك العريض والمعجزات الباهرة هو بأثر هذا السحر.

١٩٢

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢]:

دليل على أن تعلّم السحر واعتقاده حقاً كفر، وأما تعلمه من غير اعتقاده حقيقة، فعلى خلاف بين العلماء، لكن ظاهر المتكلمين قالوا إن تكفير الساحر يقع بأحد أمور ثلاثة: قول كلمة الكفر، أو السجود لصنم، أو فعل كلبس الزنار ونحوه من ملابس الرهبان.

١٩٣

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]:

لو سكت الله لفهم أن في السحر بعض منفعة؛ لذا قال الله بعدها: ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فدلّ هذا على أن السحر شر كله وضرر خالص.

١٩٤

اتبع شياطين الإنس (اليهود) ما افترته شياطين الجن كذباً على عهد سليمان، لينالوا من مكانته، وهي وظيفة شياطين الإنس والجن في كل زمان ومكان؛ تشويه الصالحين والنيل منهم.

١٩٥

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]:

قال ابن الجوزي: «الدنيا أسحر من هاروت وماروت، فإن هاروت وماروت يُفَرِّقان بين المرء وزوجه، وأما الدنيا فإنها تفرق بين العبد وربّه».

١٩٦

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]:

كثير من الناس لا يعلم أن ثواب الإيمان والتقوى عند الله خير من كل نعيم الدنيا، فالثواب نوعان: معجل في الدنيا، والأعظم منه المؤجل إلى الآخرة.

١٩٧

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]:

العلم الحقيقي أن يرزقك الله العمل بما علمت، كما أن الرزق الحقيقي أن يرزقك الله فعل الخير، والخلق الحقيقي أن يخلق الله فيك المكارم.
قال الشاعر:

رُزِقُوا وما رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وما رُزِقُوا
خُلِقُوا وما خُلِقُوا لِمَكْرَمَةٍ فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وما خُلِقُوا

١٩٨

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنْظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]:

سبب نزولها: كان المسلمون يقولون راعنا يا رسول الله، يعنون المراقبة، وكانت هذه اللفظة سبباً قبيحاً بلغة اليهود، من الرعونة التي هي الحمق، أو يقصدون بها جعله راعياً من رعاة الغنم، فلما سمعتها اليهود اغتمموها وقالوا فيما بينهم: كنا نسبُّ محمداً سرّاً فأعلنوا له الآن بالشتم، فكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ - وكان يعرف لغتهم - فقال لليهود: عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنْظُرْنَا﴾.

١٩٩

﴿وَقُولُوا آنْظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]:

أي انتظرنا وتأن حتى نفهم عنك، فهذه كلمة أفضل من الكلمة التي اتخذها اليهود ذريعة لسب نبيكم ﷺ.

٢٠٠

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنْظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]:

هذا أول نداء في القرآن لأهل الإيمان بترتيب المصحف، وفيه أربع فوائد: نهي عن التشبه بالكفار وخاصة اليهود، وإرساء لقاعدة سدِّ الذرائع، وتوجيه لأدب جميل باستعمال أحسن الألفاظ، وتوفير البدائل لما نهى الله عنه.

﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنْظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]:

راقب ألفاظك! في الآية الكريمة إرشاد لطيف إلى أن يتجنب الإنسان في مخاطباته الألفاظ التي توهم المستمع بالجفاء أو الانتقاص من قدره.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]:

إن الحسد والحقد، يجعل أهل الكتاب لا يريدون أن يصيبكم أي خير من الله، والخير هو الوحي الوحي... الحسد

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]:

لن تتوقف شبهات اليهود عن استهداف إيمان المسلمين! نزلت هذه الآية لما قال اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، وفي «تفسير القرطبي» أن اليهود طعنوا في تغيير القبلة، وقالوا: إن محمدًا يأمر أصحابه بشيء ثم ينهاهم عنه.

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]:

أين الخير في النسخ؟! قال ابن عاشور: «الخيرية تكون من حيث الاشتغال على ما يناسب مصلحة الناس، أو ما يدفع عنهم مضرة، أو ما فيه جلب عواقب حميدة، أو ما فيه ثواب جزيل، أو ما فيه رفق بالمكلفين ورحمة بهم في مواضع الشدة».

ما أنواع النسخ؟!

- نسخ حكم بحكم خير منه: مثل نسخ كراهة الخمر الثابت بتحريمها بتاتًا، فهذا النسخ خير من جهة المصلحة لا من جهة الرفق.

- وهناك نسخ خير من جهة الرفق؛ كنسخ تحريم الأكل والشرب وإتيان النساء في ليل رمضان بقوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ

إِلَى نِسَائِكُمْ﴾؛ لذا فرح المسلمون بنزولها.

- نسخ حكم بحكم مثله: مثل نسخ فرض خمسين صلاة بخمس صلوات، مع جعل ثواب الخمسين للخمس، فقد تماثلتا في الثواب.

٢٠٦

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]:

هنا ردُّ على شبهة!

قال الراغب: «أي لا تحسبن أن تغيير لحكم، وأنا لم آت بالحكم الثاني في الابتداء - هو العجز، فإن من علم قدرته على كل شيء لا يظن ذلك». وإنما تغيير الحكم لمصلحة العباد، وأن الأليق بهم في الوقت المتقدم الحكم المتقدم، وفي الوقت المتأخر الحكم المتأخر، فكلاهما خيرٌ في زمانه.

٢٠٧

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]:

ومن ملك كل شيء، فمن يعترض عليه في التصرف في أي شيء؟! وهل يملك أن يعترض عبداً على ما شرع خالقه ومالكة من أحكام!

٢٠٨

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨]:
آية تحدثنا عن قانون التماثل، ونصّه: (المقدمات المتشابهة تقود إلى نتائج متشابهة)، فإن سألتهم أيها المؤمنون أسئلة مثل أسئلة بني إسرائيل: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أو ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، لضللتهم مثل ما ضلوا، وهلكتم كما هلكوا.

٢٠٩

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩]:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كل الناس مني في حلّ». أراد ألا يُعذَّب أحدٌ بسببه.

٢١٠

﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]:

تجد بعد مشاق الحياة وآلام الموت وأهوال القبر وأحداث البعث وفزع القيامة عملك الصالح، حفظه الله لك حتى يأخذ بيدك، فيوصلك إلى مقعدك في الجنة.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]:

كل صاحب دعوى مطالب بالدليل والبرهان، وإلا فلا عبرة لدعواه.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]:
يؤخذ من الآية بطلان التقليد في أصول الدين، وعدم قبول قول الغير من غير دليل، فلا ينبغي للإنسان أن يتبنى رأياً إلا بدليل.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]:
أسلم مأخوذ من شدة الامثال؛ لأن أسلم معناها: ألقى السلاح وترك المقاومة، فهل هذا حالنا اليوم مع أوامر الله؟!

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]:
لم خصَّ الوجه بالذكر؟! لأنه أكرم الأجزاء وأعظمها حرمة، فإذا خضع أكرم الأعضاء لله، فغيره من الأعضاء أكثر خضوعاً، فالمراد الخضوع الشامل.
﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]:

لابد مع إعلان الاستسلام من الإحسان، ولا بد للقول من برهان، والإحسان هو عمل بإتقان، وعندها يستحق العبد مكافأة الرب: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣]:

تلاوة أهل الكتاب لكتبهم لا ينبغي سبباً لرد الإسلام، فإن كل فريق منها يهاجم الآخر، وسبيلهم في رد الإسلام مثل سبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة، وهذا توبيخ شديد لأهل الكتاب، حيث نظموا أنفسهم - مع علمهم - في سلك المشركين الذين لا يعلمون.

٢١٧

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾

[البقرة: ١١٤]:

اختلفوا في هؤلاء الظَّلمة: هل هم الرومان مع بيت المقدس أم الكفار مع المسجد الحرام؟

قال الإمام القرطبي:

«وقيل: المراد من منع من كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف، والله تعالى أعلم».

٢١٨

قال ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بصيغة الجمع، رغم أن المنع والتخريب وقع على مسجد واحد، وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام، إشارة إلى أن الحُكْم عام، رغم أن السبب خاص.

٢١٩

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

[البقرة: ١١٥]:

تسليّة للمؤمنين بعد خروجهم من مكة، وإغاظة للمشركين الذين ابتهجوا بخروج المؤمنين منها، وانفرادهم بمزية جوار الكعبة.

٢٢٠

ظالم فاجر مجاور للبقاع المقدسة هو عبدٌ مطرود، وطائع بعيد عن هذه البقاع هو عبد مقرب رغم السدود والحدود.

٢٢١

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]:

ما أحلم الله! في الحديث: «ليس أحدٌ أصبر على أذى سمعه من الله تعالى، إنهم ليدعون له ولدًا، ويجعلون له أندادًا، وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقهم». صحيح الجامع رقم: ٥٣٧٠.

٢٢٢

تعددت صنوف الكفار وتشابهت الأفكار! قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله.

٢٢٣

﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَنِينُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]:

حاجة الإنسان للولد لأحد سببين:

- أن يبقى به نوعه، لافتقاره إلى نسل يخلفه، ولما كان الله هو الباقي الدائم، لم يكن هناك سبب لاتخاذ الولد؛ ولذا قال: ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

- أن يقوم الولد على خدمته ونصرته، فبين الله أن كل الخلق له قانتون، أي خاضعون، فما حاجته لمساندة الولد؟! ولذا قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَنِينُونَ﴾.

٢٢٤

﴿كُلٌّ لَهُ قَنِينُونَ﴾:

كيف ﴿كُلٌّ﴾، مع أنه لم يخضع له الكافرون؟! قال مجاهد: «طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره».

٢٢٥

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]:

المراد من كلمة ﴿كُنْ﴾ سرعة نفاذ قدرة الله في إمضاء الأشياء، وتمثيل حدوث ما أراد الله بلا مهلة، فلا يستعصي عليه شيء، ولا يمتنع عن قدرته شيء.

٢٢٦

﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]:

كم من مختلفين في (الشكل) متشابهين في (القلب)؟!

٢٢٧

تشابه الظاهر من تشابه الباطن ووحدۃ المشاعر.

٢٢٨

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]:

لاحظ تكرار النفي، وذلك لأن رضا اليهود غير رضا النصارى، فلو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى، ولو صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك يهود.

٢٢٩

﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]:

قال مجاهد: «يعملون به حق عمله».

٢٣٠

وذلك باشتراك اللسان والعقل والقلب، فاللسان يرتل، والعقل يتدبر، والقلب يلين ويخشع.

٢٣١

﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢]:

التكرار يعلم الأبرار لا الفجار؛ لذا تكررت هذه الآية في نفس السورة لتذكر بني إسرائيل بنعم الله عليهم، لكنهم صَمُوا آذانهم وعاندوا ربهم، ورأى الإمام الألوسي أن هذه الآية هي فذلكة القصة والمقصود منها.

٢٣٢

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]:

ما سر التقديم العدل على الشفاعة في هذه الآية، بينما تقدمت الشفاعة على العدل في الآية السابقة رقم ٤٨؟ وما سبب استعمال لفظ عدم قبول الشفاعة هناك واستعمال عدم نفع الشفاعة هنا؟! والجواب:

الحديث في الآية الأولى رقم ٤٨ عن النفس الأولى (الشفاعة): فالضمير في ﴿مِنْهَا﴾ راجع إلى النفس الأولى، فبيّن في الآية الأولى أن النفس الشفاعة الجازية عن غيرها لا تُقْبَلُ منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، وَقُدِّمَتِ الشفاعة لأن الشافع يُقَدِّمُ الشفاعة على بذل العدل (الفدية) عمن يشفع له؛ ولذلك قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ ولم يقل ولا تنفعها، لأن الكلام عن الشافع.

الحديث في الآية الثانية رقم ١٢٣ عن النفس الثانية (المشفوع له): فالضمير في ﴿مِنْهَا﴾ راجع إلى النفس الثانية، فبيّن في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجُرمها لا يُقْبَلُ منها عدل (فدية) عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع، وَقُدِّمَ العدل لأن أول ما يلجأ إليه المجرم هو افتداء نفسه بفدية

(عَدْل)، ثم تكون الشفاعة حلاً أخيراً عند عدم قبول الفدية، وقال: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا﴾ ولم يقل ولا يُقْبَل، لأن الشفاعة تنفع المشفوع له، والحديث هنا عن المشفوع له لا عن الشافع.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]:

قال الحسن: «ابتلاه الله بذبح ولده فصبر على ذلك، وابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن في ذلك، وعرف أن ربه دائم لا يزول، ثم ابتلاه بالهجرة من وطنه فخرج مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالإلقاء في النار فصبر».

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]:

قال السيوطي: «جَمَعَت الخَيْر والطلب والاثبات والنفي والتأكيد والحذف والبشارة والنذارة والوعد والوعيد».

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿[البقرة: ١٢٤]:

سين: متى يجعلك الله للناس إماماً؟ جيم: حين تُبْتَلَى فتصبر.

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]:

قال ابن عاشور: «وإنما قال إبراهيم: ومن ذريتي، ولم يقل وذريتي؛ لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد من يصلحون لأن يُقْتَدَى بهم، فلم يسأل ما هو مستحيل عادة؛ لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء».

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]:

قال شيخ المفسرين الإمام الطبري: «هذا خبرٌ من الله جل ثناؤه عن أن الظالم لا يكون إماماً يقتدي به أهل الخير».

قال ابن خويز منداد: «الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً».

﴿٢٣٩﴾

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]:

الكعبة مثابة للناس إليها يثوبون، تجذب القلوب كالمغناطيس الذي يجذب الحديد، فمن قعد عن زيارة البيت فلقسوة قلبه وضعف محبته، وليس العجب ممن بعد عن البيت كيف يصبر، إنما العجب ممن حضره كيف يرجع عنه!

﴿٢٤٠﴾

يثوبون كل عام من كل الأقطار، ومع هذا لا يقضون منه الأوطار، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقا.

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

﴿٢٤١﴾

﴿وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]:

لم يُعطِ لنا هذا كخبر ولكن كتشريع، فلا يخبرنا هنا أن البيت آمن، لكن يطلب منا أن نؤمنه، فالمؤمن سيطيع ربه فيؤمن من في البيت، والذي لا يطيعه لا يؤمنه.

﴿٢٤٢﴾

﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]:

قال السعدي: «وأضاف الباري البيت إليه لفوائد:

منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك.

ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه».

﴿٢٤٣﴾

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]:

لكنه قال في إبراهيم: ﴿هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾: قال الإمام السيوطي: «لأن الأول دعا به قبل مصيره بلداً عند ترك هاجر وإسماعيل به وهو وادٍ، فدعا بأن يصير بلداً، والثاني دعا به بعد عودته وسكنى جرهم به ومصيره بلداً، فدعا بأمنه».

﴿٢٤٤﴾

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]:

قاما بأعظم عمل وهو بناء الكعبة، ثم دعوا الله أن يتقبل منهما! فلا يغرنك عملك مهما عظم، وسل الله القبول.

﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]:

يفرغان من أعظم طاعة ثم يسألان الله التوبة، فكيف بالمذنبين؟!

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]:

ومن العجيب أن بين دعوة إبراهيم: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبين إجابتها ببعثة النبي محمد ﷺ ما يزيد على ألفي عام! فلماذا يتعجل المتعجلون؟ ولم يقنط الداعون؟ لماذا يتذمرون ويقولون: دَعَوْنَا دَعَوْنَا فلم يُسْتَجِبْ لنا؟

﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٢٨]:

اصطفى الله إبراهيم عليه السلام بالرسالة، والخلة، وبناء البيت، والإمامة، واتخاذ مقامه مُصلي، والنجاة من النار، وأذانه بالحج، ولم تُنقص هذه العطايا العظام من أجر آخرته شيئاً، فهو في الآخرة من الصالحين، وقد ثبت أن أول من يُكسى من الخلق يوم القيامة هو إبراهيم عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]:

قالها على الفور، دون تريث أو تفكير، فما أحلى أن نتعلم منه المسارعة في الخيرات، وعدم التردد لحظة في تنفيذ أمر الله.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]:

الحياة على الإسلام نعمة، والموت على الإسلام توفيق.

﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ (الْمَوْتُ) إِذْ قَالَ (لَبَّيْهِ) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة: ١٣٣]:

لم يشغل الموت الوالد عن هموم الترية!

﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]

ما ينفع صلاح الآباء إن فسد الأبناء؟! وهل أغنى نبي الله نوح عن ابنه شيئاً؟!

الافتخار بالآباء طريقة الجهلاء، إن لم يتبع هذا الفخر عمل واقتداء.

٢٥٣

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]:

همة أهل الباطل في الدعوة إلى باطلهم تستنفر أهل الحق للقيام بواجبهم!

٢٥٤

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]:

لأهل اللغة في ﴿حَنِيفًا﴾ قولان:

الأول: الحنيف هو المستقيم، ومنه قيل للأعرج: أحنف، تفاؤلاً بالسلامة، كما قالوا للديغ: سليم، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف.

الثاني: أن الحنيف: المائل؛ لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها، وتحنف إذا مال، فالمعنى أن إبراهيم عليه السلام حنف إلى دين الله، أي مال إليه مخالفاً لليهود والنصارى منحرفاً عنهما.

٢٥٥

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]:

هذا خطاب للمؤمنين، لكن يثير تساؤلاً!

قال الإمام الرازي:

«فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟

قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه، فلا يلزم المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة، فظهر الفرق».

٢٥٦

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]:

كفاية الله لنبيه من كيد أعدائه بنفسه هو اعتناء منه بالنبي ﷺ، ويتضمن كفاية شرهم وكل ما يصدر عنهم من مضار.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]:

٢٥٧

السين هنا كما قيل: للتنفيس، وتفيد أمرين: تحقق الكفاية، وقرب وقوعها؛ بخلاف «سوف»، فإنها تفيد تحقق الكفاية مع الإمهال.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]:

٢٥٨

تأمل كلمة الصبغة، وكأن المطلوب أن يتغلغل الإيمان في كل ذرات حياتك ويصبغ كل تفاصيلها.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]:

٢٥٩

أي دين الله، سماه صبغة؛ لأن أثر الدين يتغلغل في خلايا المؤمن كلها كما يتخلل الصبغ في خيوط الثوب.

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ

٢٦٠

أَعْمَلُكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٩]:

نداء لليهود والنصارى! قال القرطبي: «قيل: كانت الحاجة أن قالوا: نحن أولى بالله منكم، لتقدم آبائنا وكثبتنا، ولأننا لم نعبد الأوثان». ما علموا أن الفضل لمن صدق لا لمن سبق!

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩]:

٢٦١

قال رويم: «الإخلاص من العمل هو ألا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين، ولا حظاً من الملكين».

﴿كُتِبَ شَهَادَةٌ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠]:

٢٦٢

بعض الناس يظن أن كتمان الحق ليس عملاً، فلا يؤاخذ الله به، وهذه الآية تبذّر هذا الوهم.



الجزء الثاني

سورة البقرة آية ١٤٢

إلى البقرة آية ٢٥٢

عدد الفوائد: ٢٢٧

مِنْ هَجَرَ الْقُرْآنَ: هَجَرَ تَعْظِيمَهُ!

هَبْ أَنْ الْقُرْآنَ رِسَالَةً مِنْ أَمِيرٍ، أَوْ خَطَابٍ مِنْ
رَئِيسٍ أَوْ حَتَّى وَزِيرٍ، فَكَيْفَ وَهُوَ خَطَابُ مَلِكٍ
الْمُلُوكِ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ؟!

كَيْفَ وَهُوَ الْخَطَابُ الَّذِي يَحْوِي سِرَّ نَجَاتِكَ فِي
الْعَالَمِ الْأَبَدِيِّ.

وَمِفْتَاحُ فَوْزِكَ بِالنَّعِيمِ السَّرْمَدِيِّ.

الجزء الثاني:
سورة البقرة آية ١٤٢
إلى البقرة آية ٢٥٢

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

قال الحسن البصري: «ضاع هذا الدين بين الغالي فيه والجافي عنه». الغالي صاحب إفراط، والجافي صاحب تفريط.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣]:

حياتك مليئة بالاختبارات الإلهية، ونجاحك فيها مرهون باتباع تعليمات الرسول ﷺ.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]:

رحيمٌ بالناس جميعاً: بالمؤمن والكافر، والبر والفاجر، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالرحمة لا تكون إلا للمؤمن ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا، تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]:

ما ضاع عند الناس لا يضيع عند الله.

أي صلاتكم، وعبر عن الصلاة بالإيمان، فمن ترك الصلاة فماذا تبقى لديه من إيمان؟! من إيمان؟!!

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]:

قد يحقق الله بعض أمانيك حتى قبل أن تدعو بها، وهذا من كمال لطفه وعظيم رحمته.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]:

إذا ضاقت بك الأرض فأطلق بصرك نحو السماء، وعلّق قلبك بمن لا يُقلِّقه النداء، ولا تنفذ خزائنه من العطاء.

﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٥]:

الثبات هو عنوان الصراع بين الحق والباطل، فالكل على مبدئه ثابت؛ صاحب الحق لن يتنازل عنه لقوة الإيمان ووضوح البرهان، وأهل الباطل لن يتخلوا عن باطلهم لشدة العناد واستحواذ الشيطان.

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٥]:

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: كيف قال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ ولهم قبلتان؛ لليهود قبله وللنصارى قبله؟ قلت: كلتا القبليتين باطلة، مخالفة لقبله الحق، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبله واحدة».

قال الراغب: إشارة إلى أن من عرف الله حق معرفته، فمن المحال أن يرتد؛ ولذا قيل: ما رجع من رجع إلا من الطريق: أي ما أخلّ بالإيمان إلا من لم يصل إليه حق الوصول.

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]:

الآية وعيد للأمة إن اتبعت أهواء أهل الكتاب، وسيق هذا التحذير في صورة خطاب للنبي ﷺ.

ضريبة العلم! دلّت الآية على أن توجه الوعيد إلى العلماء أشد من توجهه لغيرهم.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]:

رُوي أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته، وإنّي لا أدري ما كان من أم ولدي، فقبّل عمر رضي الله عنه رأسه.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]:

الخطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة؛ لأن الشك مستحيل في حقه، وذلك مثل قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والشرك مستحيل في حقه ﷺ.

قيل: هو حثُّ للأمة على اكتساب المعارف المزيلة للشك.

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]:

لا بد للإنسان في الحياة من وجهة، يسير نحوها، ويبدل وسعه وطاقته لتحقيقها، فحدّد وجهة توصلك إلى الجنة، وحذارٍ مما يسوق إلى النار.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]:

الدنيا مضمار سباق، فبادر بالتكبير الأولى والصف المقدم في كل عمل صالح، فالسابق اليوم إلى الخيرات هو السابق غداً على أبواب الجنات.

﴿أَيَنْ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]:

استدعاءً للمساءلة، كفيلاً بأن يجعل كل واحد منا يراجع نفسه مع كل عمل، استعدوا جميعاً لذلك اليوم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩]، ثم

كررها: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ

مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠]:

أراد بالأمر الأول: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ...﴾: أي وَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الكعبة،

أي عاينها إذا صليت تلقاءها، ثم قال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

شَطْرَهُ﴾ أي معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها.

وأراد بالأمر الثاني: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ...﴾ يعني وجوب استقبال الكعبة

في الأسفار، فكان هذا أمراً بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواضع من نواحي

الأرض.

ما سر تكرار الأمر؟! ﴿٢٨٢﴾

أحدث تحويل القبلة إلى الكعبة فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون، وأكثروا فيها الكلام والشبهات؛ فلذا بسطها الله وأكدها في كتابه بأنواع التأكيدات.

قال ابن عاشور: ﴿٢٨٣﴾

«تكرر الأمر باستقبال النبي ﷺ الكعبة ثلاث مرات، وتكرر الأمر باستقبال المسلمين الكعبة مرتين، وتكرر إنه الحق ثلاث مرات، وتكرر تعميم الجهات ثلاث مرات، والقصد من ذلك كله التنويه بشأن استقبال الكعبة، والتحذير من تطرق التساهل في ذلك تقريراً للحق في نفوس المسلمين، وزيادة في الرد على المنكرين».

كان صدور الأمر كافياً للرسول ﷺ؛ لتدخل الأمة فيه تبعاً، لكن الأمر جاء للأمة تأكيداً: ﴿قُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]: ﴿٢٨٤﴾

علاج الخوف من الناس في إحياء الخوف من الله، ومن خاف الله حقاً لم يخف من الخلق.

﴿وَلَا تَمْنَعِي عَلَىكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]: ﴿٢٨٥﴾

أعظم النعم وأتمها هي نعمة الهداية.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١]: ﴿٢٨٦﴾

إرسال الرسول ﷺ من أعظم النعم التي تستوجب الشكر!

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]: ﴿٢٨٧﴾

قال الألوسي: «إشارة إلى طريق إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام؛ لأن تلاوة الأُمِّي للآيات الخارجة عن قدرة البشر باعتبار بلاغتها، واشتمالها على الإخبار

بالغيثات، والمصالح التي يتنظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]:

هل تشعر بالإهمال، وأنه لا يوجد من يهتم بك؟! ما رأيك لو اهتم بك رب العالمين؟ وذكرك في الملاء الأعلى في أعلى عليين.

أبشر.. اسمك الآن يتردد في الملاء الأعلى!

في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: عبدي.. إذا ذكرتني خالياً ذكرتني خالياً، وإن ذكرتني في ملاء ذكرتني في ملاء خير منهم وأكبر».

قال ثابت البناني: إني أعلم متى يذكرني ربي عز وجل، ففزعوا من ذلك، وقالوا: كيف تعلم ذلك؟! فقال: إذا ذكرته ذكرني: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

اذكره على وجه الأرض.. ليذكرك فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض.. ذكرك له محدود، وذكر الله لك غير محدود!

ما الهُم الذي سيصيبك، وهو يذكرك؟!!

ما المكروه الذي سيلحق بك، وهو يذكرك؟!!

ما الخوف الذي يقلقك، وهو يذكرك؟!!

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]:

كثرة ذكر الله علامة من أهم علامات الشكر.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]:

لكل من أثقلتة الهموم وأحاطت به الغموم، كيف تستوحش والله تعالى معك إن صبرت؟!!

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا

تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]:

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

«نزلت هذه الآية في قتلى غزوة بدر، قُتل من المسلمين فيها أربعة عشر رجلاً: ست من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، وكان الناس يقولون: مات فلان ومات فلان، فنهى الله تعالى أن يُقال فيهم: إنهم ماتوا».

﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ [البقرة: ١٥٤]:

إثبات الحياة البرزخية؛ وعجيب أن نتجهز في الدنيا للانتقال من دار إلى دار أوسع أو أفخم لنقضي فيها أياماً أو عدة أعوام، بينما نغفل عن التجهز لدار تستمر إقامتنا فيها أبد الآباد.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]:

هنا مصائب خمس مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، والنون؛ والتقدير: والله لنبلونكم؛ وقد أعذر من أنذر!

﴿وَنَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]:

إنما الصبر عند الهزيمة الأولى! وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكلُّ أحد يصبر عند ذاك، ولذلك قيل: يجب على كل عاقل أن يلتزم عند المصيبة ما لا بد للأحقق منه بعد ثلاث.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦]:

هم لله يفعل بهم ما شاء، فهم ملوكٌ لربهم، والمالك لا يضيع ما ملك.

أكثر الناس يقولون عند المصيبة: لا حول ولا قوة إلا بالله، والأولى أن يسترجع العبد عندها كما أمره ربه: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ

وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]:

لا يطفئ نار الأحزان في قلبك مثل اليقين بثواب الله عند الرجوع إليه، فهو الذي يجازي عباده بمثاقيل الذر، وإن تك حسنة يضاعفها.

٣٠٤

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]:

قال الراغب الأصفهاني: «الصلاة وإن كانت في الأصل الدعاء، فهي من الله البركة على وجهه، والمغفرة على وجهه، وإنما قال: ﴿صَلَوَاتٌ﴾ على الجمع تنبيهاً على كثرتها منه، وأنها حاصلة في الدنيا توفيقاً وإرشاداً، وفي الآخرة ثواباً ومغفرة».

٣٠٥

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]:

من أسباب تنزل اللعنات كتمان الحق خاصة من العلماء!

٣٠٦

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٠]:

تأمل ﴿وَبَيَّنُّوا﴾؛ لأن بعض من يتوب يتهيب أو يخجل من إعلان توبته.

٣٠٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]:

كانوا لا يرون لعن الكافر المعين، لعله يسلم قبل موته؛ ولذا جاء عن ابن كثير في كتابه البداية والنهاية عن رجل نصراني أنه أنشأ قصيدة يذم فيها الإسلام وأهله، ثم ذكر أن ابن حزم أنشأ قصيدة يرد بها عليه، ولما فرغ من سرد قصيدة النصراني قال: «لعن الله ناظمها وأسكنه النار»، ثم قال: «إن كان مات كافراً».

٣٠٨

قال الإمام الرازي: «إن قيل: كيف يلعنه الناس أجمعون، وأهل دينه لا يلعنونه؟ قلنا: الجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن أهل دينه يلعنونه في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ
بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وثانيها: قال قتادة والربيع: أراد بالناس أجمعين المؤمنين، كأنه لم يعتد بغيرهم وحكم بأن المؤمنين هم الناس لا غير.

وثالثها: أن كل أحد يلعن الجاهل والظالم لأن قبح ذلك مقرر في العقول، فإذا كان هو في نفسه جاهلاً أو ظالماً وإن كان لا يعلم هو من نفسه كونه كذلك، كانت لعنته على الجاهل والظالم تتناول نفسه، عن السدي.

ورابعها: أن يحمل وقوع اللعن على استحقاق اللعن، وحينئذ يعم ذلك».

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا تُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢]:

ما أشد وقع هذه الآية على الكافر لو كان له قلب! فهي تصوّر يأْس الكافر من ثلاثة: انقطاع العذاب أو تخفيفه أو تأخير.

﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]:

قال القرطبي: «لما حذّر تعالى من كتان الحق بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتانه: أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع، ليُعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء».

انتبه لاسم الله الأعظم! في سنن الترمذي وابن ماجة: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وفاتحة آل عمران: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾».

صحيح الجامع رقم: ٩٨٠

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]:

قال الثعالبي: «أول ما ينشأ السحاب فهو النَّشْء، فإذا انسحب في الهواء فهو السحاب، فإذا تغيرت له السماء فهو الغمام، فإذا أظّل فهو العارض، فإذا ارتفع وحمل الماء وكثف وأطبق فهو العماء، فإذا عنّ فهو العنان، فإذا كان أبيض فهو المزن».

سبب تكثير الأدلة في هذه الآية أن عقول الناس متفاوتة، فكان من كمال عناية الله ورحمته بالخلق أن جعل أدلة وجوده مبثوثة في الكون حولنا، ثم ذكرنا بها في كتابه.

قال القاضي عبد الجبار: «خَصَّ هذه الثمانية بالذكر؛ لأنها جامعة بين كونها دلائل، وبين كونها نعمًا على المكلفين على أوفر حظٍّ ونصيب، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع في القلوب وأشدَّ تأثيرًا في الخواطر».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]:

هذه مسابقة الحب الحقيقي التي لا يتقدَّم لها إلا المؤمنون.

أبشروا يا أحباب، ففي الحديث أقسم النبي ﷺ -وهو الصادق المصدوق من غير قسم-: «والله.. لا يُلقي الله حبيبه في النار».

من طرق الوصول لمحبة الله أن تحافظ على هذا الدعاء: «اللهم إني أسالك حبك، وحبَّ من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك».

قال الإمام القرطبي: أحبهم الله تعالى أولاً، ثم أحبوه، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتم.

كيف وصلوا لتلك المحبة؟! أرشدك الله إلى سِكةٍ من هذه السِّككِ في قوله: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه».

﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]:

كل من تابع غيره في الباطل سيُتبرأ منه يوم القيامة.

قال ابن القيم: «فكل من تعلق بشيء غير الله انقطع به أحوج ما كان إليه»، ومن أحوج من العبد يوم القيامة؟!

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

[البقرة: ١٦٧]:

قال السُّدي: «تُرفَع لهم الجنة، فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله تعالى، ثم تُقسَم بين المؤمنين، فذلك حين يندمون».

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨]:

٣٢٤

المعصية باب مغلق، من فتحه دخله، ومن دخله وقع في الحرام، فاحرص على دحر الخطوة الأولى دائماً.

الخطوة هي أقصر مسافة، لكن فيها الهلاك، فمشوار الألف ميل بعيداً عن طريق الحق يبدأ بخطوة.

٣٢٥

لاحظ.. خطوات، فالخطوة ستتبعها الخطوة؛ لأن الشيطان لحوح ذو إصرار! فاحذر الحذر من الاستصغار الذي يقود إلى الاستمرار.

٣٢٦

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]:
لأن الشيطان افترى على الله الكذب، يدعوك لتفترى على الله.

٣٢٧

قال مقاتل: كل ما في القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنى، إلا قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾، فإنه منع الزكاة. قلت: فعلى هذا قيل: السوء ما لا حد فيه، والفحشاء ما فيه حد.

٣٢٨

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]:

٣٢٩

بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، إلا بما علم أن الله قد أحله أو حرّمه.

٣٣٠

إلام يدعو الشيطان؟!

إلى ثلاثة:

- السوء: وهي معاصي الله؛ وسمّيت سوءاً لأنها تسوء صاحبها بسوء عواقبها.

- الفحشاء: ما تنهى قبحه من المعاصي، كالزنى وشرب الخمر والقتل، وقيل: كل ما فيه الحد.

- أن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وهو من أقبح أنواع الفحشاء؛ لأنه وصف الله بما لا ينبغي له، وهو من أعظم الكبائر.

دلت الآية على أن الشيطان لا يأمر إلا بالقبائح؛ لأن الله وصف عمله بكلمة: ﴿إِنَّمَا﴾ وهي تفيد الحصر. قال بعض العارفين: إن الشيطان قد يدعو إلى الخير لكن ليجر العبد منه إلى الشر، أو يجره من العمل الأفضل إلى الأفضل، ثم يجره من العمل الفضل إلى المعصية، أو يجره من طاعة سهلة إلى طاعة أفضل منها لكنها أشق، ليكون ازدياد المشقة سبباً لنفور العبد عن الطاعة بالكلية، فيترك العمل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۖ أُولَٰئِكَ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]:
قيمة العقل!

ذمَّ الله ما أبطل الكافرون من الفكر والعقل، مما خصَّ الله به الإنسان الذي يعرف به الحق من الباطل في الاعتقاد، والصدق من الكذب في الأقوال، والجميل من القبيح في الأفعال؛ ليتحرى الحق والصدق والجميل، ويتجنب أضدادها. ذكره الإمام الراغب.

قال الآلوسي: «وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر، وأما اتباع الغير في الدين بعد العلم - بدليل ما - أنه محق فاتباع في الحقيقة لما أنزل الله تعالى، وليس من التقليد المذموم في شيء، وقد قال سبحانه: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾».

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]:

يسمعون لكن ليس سمع الفهم والقبول، فلم ينفعهم سمع الظاهر، فنزّلوا إلى منزلة البهائم في الخلوّ من التحصيل، ومن رضي أن يكون كالبهيمة لم يقع عليه كثير قيمة! ذكره القشيري.

شبه الله تعالى الكفار بالبهائم، وشبه داعيهم وهو رسول الله ﷺ بالراعي

الذي ينطق بالغنم والإبل، فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تفهم شيئاً مما يقول، هكذا فسّره ابن عباس، والأصوات هنا نوعان: الدعاء: وهو الصياح بالبهاائم لتأتي. النداء: وهو الصياح بها لتذهب.

﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]:

قال ابن القيم: «الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبّه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره».

﴿غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]:

قيل: سبب تقديم المغفرة على الرحمة أن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٧٤]:

وفي الحديث: «من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجأماً من نار». صحيح الجامع رقم: ٦٥١٧.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٧٤]:

هذا الإظهار فرض كفاية لا فرض عين، فإذا قام به البعض سقط عن البقية. قال ابن عباس:

«نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود وأحبارهم، كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث الله نبيه محمداً ﷺ خافوا انقطاع تلك المنافع، فكتموا أمره عليه السلام، وأمر شرائعه، فنزلت هذه الآية».

قال الإمام الرازي: «والآية وإن نزلت في أهل الكتاب، لكنها عامة في حق كل من كتم شيئاً من باب الدين يجب إظهاره، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

ألا تنافي آية: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْفَعْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٣]؟!

والجواب: المراد بالآية لازم معناها، وهي الكناية عن الغضب، فالمراد نفي كلام التكريم لا نفي الكلام مطلقاً.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]:

قال قتادة: «والله ما لهم عليها من صبر، ولكن: ما أجرأهم على العمل الذي يقرّبهم إلى النار!».

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]:

استحقوا النار لأنهم ردوا الكتاب، والكتاب جاء بالحق، والحق لا يُغالب، فمن غلبه غلب، ومن خذله خذل.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]:

بسبب مرض قلوبهم صار الكتاب -الذي نزلّه الله لجمع الكلمة والفصل في الخلاف- أكبر أسباب الشقاق والعداء.

﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: ١٧٧]:

كثير من الناس يغفل عن الصدقة على الأقارب، مع أن ثوابها مضاعف، ففي الحديث: «صدقة ذي الرحم على ذي الرحم صدقة وصلة». صحيح الجامع رقم: ٣٧٦٣.

﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]:

حثّ الله ولي المقتول على العفو، ثم طلب منه أن يطلب الدية بالمعروف، وطلب من القاتل أن يؤديها بإحسان، مع التذكير بالأخوة الإيمانية بين ولي المقتول والقاتل! وكأن الله جعل أخوة الإيمان فوق أخوة الدم.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]:

٣٤٨

قال السيوطي: «معناه كثير ولفظه قليل؛ لأن معناه أن الإنسان إذا علم أنه متى قُتل قُتل كان ذلك داعياً إلى ألا يُقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع القتل حياة لهم، وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) بعشرين وجهًا أو أكثر».

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]:

٣٤٩

المراد بالمعروف أن يوصي للأقارب وصية لا تجحف بورثته، كما ثبت أن سعدًا رضي الله عنه قال: إن لي مالا، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلاثي مالي؟! قال: «لا». قال: فبشطر. قال: «لا». قال: فالثلث، قال: «الثلث والثلث كثير».

فهم كثير من السلف أن الثلث ليس بمستحب في الوصية؛ لقوله ﷺ: «والثلث كثير»، وإنما يوصي بأقل من الثلث كالربع مثلاً، قال ابن عباس: «لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: الثلث والثلث كثير».

٣٥٠

﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١]:

٣٥١

التبديل نوعان: النوع الأول، مذموم وهو المذكور هنا، وذلك بتغيير وصية الميت وتحريفها بغير حق، أو كتمان الوصية بالكلية. النوع الثاني: وهو التبديل المحمود، إن كان في الوصية إجحاف أو ظلم أو منكر، بأن أوصى مثلاً بأكثر من الثلث، فيبدلها إلى الثلث.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢]:

٣٥٢

والجنف: الجور من غير تعمد، والإثم هو الجور المتعمد، وذلك بتفضيل من لا يستحق التفضيل في الميراث على غيره المساوي له أو الأحق منه، فينبغي لمن

حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصح الموصي بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهائهم عن الجور والجحف.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]:

إن لم يزد صيامك في تقواك، فما هو غير إنهاك لقواك.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]:

هذه الأمة امتداد للمؤمنين من الأمم السابقة، وأخوتنا لهم ثابتة بموجب هذه الآية.

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]:

قالها الله سبحانه في سياق تسليية المؤمنين وتخفيف معاناة الصوم عليهم، هوئها تهن!

الشهر قصير لا يحتمل التقصير، وقدومه عبور لا يقبل الفتور، فالسباق السباق قولاً وفعلاً.. حذروا النفس حسرة المسبوق!

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٨٥]:

الله أكبر.. من كل آلامنا وأوجاعنا ومخاوفنا وجراحنا؛ ولذا نكررها كل يوم عشرات المرات في صلواتنا.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْنَكُم﴾ [البقرة: ١٨٥]:

قال ابن عباس: «حق على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم».

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]:

الله قريب، فالبعد منك إذن أيها العبد البعيد!

﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]:

كلمتان تشكّلان أعظم صمام أمان من كل المخاوف والأحزان.

لك الحمد على قربك، ومنى الخجل على ابتعادي.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]

والسؤال: هل أنت من عباده حقاً؟!

ما أقرب الرب وأبعد العبد (إذا غفل عن الدعاء)!

﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

لم يستثن دعوة واحدة من الإجابة، فمهما كبرت آلامك وآمالك وعظمت طموحاتك، فالله هو المجيب!

قال الرازي: «الداعي لا بد وأن يجد من دعائه عوضاً، إما إسعافاً بطلبته التي لأجلها دعا، وذلك إذا وافق القضاء، فإذا لم يساعده القضاء فإنه يُعطى سكينه في نفسه، وانشراحاً في صدره، وصبراً يسهل معه احتمال البلاء الحاضر، وعلى كل حال فلا يُعَدَم فائدة، وهو نوع من الاستجابة».

السكة المختصرة! ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]

ضع جبينك على الأرض، وستكون أقرب ما تكون إلى السماء!

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ﴾ [البقرة: ١٨٦]

جاءت بين آيات الصيام، إشارة إلى أن للدعاء مزية خاصة في شهر رمضان.

﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦]

استجابة الرب بحسب استجابة العبد.. أي شرف هذا؟ وأي فضل؟!

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]

أنتم لباس لبعضكم، فحين تطعن في زوجتك، فإنها تكشف سترك وتفضح نفسك.

﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]

لما نزلت الآية، قال له عدي: يا رسول الله، إني أجعل تحت وسادتي عقلاً أبيض وعقلاً أسود، فقال ﷺ: «إن وسادك إذن لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل».

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]:

الهروب من مقدمات الذنب من أهم أسباب النجاة.

قال ابن عمر: «إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرجها».

وقال ميمون بن مهران: «لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال».

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]:

كلمة (تدلو) تبين أن اليد التي تأخذ الرشوة هي اليد السفلى، مع كون الحكام الذين تُلقى إليهم الأموال في المكانة العليا لا السفلى، فجاءت لتعبر عن دناءة المرتشي ولو كان في الذروة من حيث المنصب وموقع المسؤولية.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]:

قال البراء رضي الله عنه: «نزلت هذه الآية فينا. كانت الأنصار إذا حجّوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابها، فكأنه غير بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ...﴾ [البقرة: ١٨٩].»

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]:

في الأمر بإتيان البيوت من أبوابها إشعار بأن كل ما يُفعل باسم الدين وليس عليه دليل أو شاهد فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]:

عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ﴾ قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة.

روى الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي موسى رضي الله عنه أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه - أي: ليتحدث الناس بشجاعته وليظهر بينهم - أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]:

ليس المقصود بالفتنة هنا النيمة وإثارة النزاعات، بل المقصود بها هنا الكفر.

﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢]:

الله يقبل توبة الكافر، أفلا يقبل توبتك؟!

﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]:

الفتنة هي الشرك والصد عن دين الله، ودرء الفتنة من أهداف القتال في الإسلام، فالكافر الظالم إذا اعتدى على مسلم فلم يردّه أحد، تهادى في العدوان، فوجب كسر شوكته بالقتال.

﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤]:

عند استيفاء الحقوق، تكون النفوس مشحونة؛ لذا أمر الله بالتقوى ليحميها من الظلم، ويعصمها من الزلل.

﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]:

الآية تبيح لمن اعتدى عليه أن يرد العدوان مع ثلاثة ضمانات: أن يكون الاعتداء (مثل) ما وقع عليه لا أزيد منه، وأن يتقي الله فلا يتجاوز الحد في انتصاره لنفسه، وأن يتذكر أن الله مع المتقين ترغيباً له في العدل وعدم التجاوز.

﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]:

سمّاه اعتداءً، وكان حقه أن يُسمّى: جزاءً، لأن لفظ الجزاء يغري المظلوم بالتمادي، وأما لفظ الاعتداء فيُشعر من يباشر حقه في الرد على مَنْ ظلمه، أنه يباشر اعتداءً، فيكف ولا يتجاوز حدّه.

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]:

المقصود بالتهلكة في هذه الآية -عكس ما يتبادر لأذهان الكثير- هو ترك الجهاد في سبيل الله، وعدم الإنفاق.

﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]:

لله وحده! فلا حاجة للناس بمعرفة تفاصيل حجّتك وألوان طاعتك!

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]:

علّم الله بطاعتك من أعظم ما يهونها عليك، ويجعلها أخف على البدن، وألذ للقلب.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ [البقرة: ١٩٧]:

كلما تزودت لسفر دنيوي تذكر أنك في انتظار سفر أهم، بل وعليه مدار نجاتك من العذاب الأخروي وفوزك الأبدي.

المقصود في الآية تزود الحجيج بالماء، لكن الله ذكر معه الزاد الأهم: ﴿فَارِبٌ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، لأنّ دنيا المؤمن لا تلهيه، وإنما تذكره بالآخرة وتزكّيه.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَارِبٌ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]:

تتزود لسفر الدنيا، وتأخذ فيه معك ما يكفيك ويفيض، ثم تنسى التزود لآخرتك! وهي الرحلة الأهم ودار الخلود والأبد!

فإذا رأيت الناس قد افتخروا بالعقار والدولار، فافتخر بين يدي ربك بتقواك وقد اجترأ على محارمه الفجار، وأطعته حين عصوه، وحفظت ما ضيعوا.

٣٩١

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]:

تذكر الضلال الذي كنت عليه قبل هدايتك، والجهل الذي سبق علمك، كفيلاً بأن يكسر حاجز الغرور في نفسك، ويمنعها من الزيف.

٣٩٢

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]:

كل العبادات تُختم بالاستغفار، ومنها الحج؛ لأن الإنسان جُبِلَ على النقص والتقصير، فيرقع ذلك بالاستغفار.

٣٩٣

سئل الحسن البصري: ما علامة حب الله؟ قال: «أن يذنب العبد، فيلهمه الاستغفار».

٣٩٤

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠]:

تنقضي الشعائر، وترحل مواسم الخير، ويبقى ذكر الله الشعيرة الخالدة التي لا تنقطع، لشرف الذكر ومكانته.

٣٩٥

في صحيح البخاري ومسلم: «كان أكثر دعوة يدعو بها: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾» [البقرة: ٢٠١].

٣٩٦

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]:

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله لا تُطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار». قال: فدعا الله له، فشفاه.

٣٩٧

قيل لأنس بن مالك رضي الله عنه: ادعُ لنا، فقال: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». قالوا: زدنا، فأعادها. قالوا: زدنا. قال: ما تريدون؟! قد سألتُ لكم خير الدنيا والآخرة!

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٠٢]:

٣٩٨

من معاني الكسب: الطلب، فيجيب الله (بعض) ما دعوا به وطلبوه منه، بحسب ما تقتضيه مصلحتهم، وتفرضه حكمته سبحانه؛ لذا نكر كلمة ﴿نَصِيبٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]:

٣٩٩

سُئِلَ علي بن أبي طالب عليه السلام: كيف يحاسب الله الخلائق جميعاً في لحظة واحدة؟ فقال: «كما يرزقهم في ساعة واحدة».

﴿أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]:

٤٠٠

مهما شقَّت عليك الطاعة، فما تلبث مشقتها أن تنقضي، ويبقى ثوابها وأجرها إلى أن يُتَحَفَّكَ يوم الجزاء.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]:

٤٠١

ختم الله بها آيات الحج، أي حشركم في الحج باختياركم، لكنه يحشركم غداً رغماً عن أنوفكم، فحشر اليوم الاختياري، عليه أن يذكركم بيوم الحشر الأكبر الإجمالي.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤]:

٤٠٢

ليست طلاقة اللسان دائماً محمودة، فأحياناً ما تُخفي وراءها سوء السريرة وخبث الباطن.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ [البقرة: ٢٠٤]:

٤٠٣

العبرة دائماً بالأفعال لا بالأقوال!

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا

٤٠٤

مُحِبُّ الْفُسَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٥]:

كلُّ المفسدين في حضرتك يقولون لك كلاماً حسناً ويظهرون محبتك، وأما عند غيبتك فيسعون في الفتنة والفساد.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ [البقرة: ٢٠٥]:

٤٥

أو تولى من التولية، فإذا صار والياً على قوم اجتذبهم إليه بمعسول الكلام، وأيأناه الفاجرة، حتى إذا ما التف الناس حوله سعى بينهم بالظلم والعدوان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]:

٤٦

قال ابن مسعود: إن من أكبر الذنب عند الله أن يُقال للعبد: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك (خليك في حالك!).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ

٤٧

بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]:

نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه المشركون أن يهاجر بهاله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر أذنوا له، فنخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية، وروي أن الرسول ﷺ قال له عند ما رآه: «ربح البيع، ربح البيع».

﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]:

٤٨

ادخلوا في الإسلام بكل نواحيه، ولا تأخذوا من الدين ما يروق لكم، وتركوا ما سواه، فلا تتخيروا على ربكم.

والسِّلْم هو: الإسلام بجميع تكاليفه، فلا تتركوا تكليفاً واحداً يشدُّ منكم.

٤٩

خذوا الإسلام كاملاً ولا تقسّموه! ولا تتركوا حكماً من أحكام الدين دون أن تعملوا به.

٥٠

﴿فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

٥١

حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]:

الزَّلَّة الواحدة بعد وجود البرهان وقيام الحجة أقبح بكثير مما كان قبل ذلك.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]:

٤١٢

قال الفخر الرازي: «وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ نهاية في الوعيد، لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه الوعيد بذكر العقاب. وربما قال الوالد لولده: إن عصيتني فأنت عارف بي وأنت تعلم قدرتي عليك وشدة سطوتي، فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره».

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]:

٤١٣

أي ما ينظرون، إذا جاءت (إلا) بعد الاستفهام؛ كان الاستفهام للنفي؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن أنت إلا أصبع دमित.. وفي سبيل الله ما لقيت»، والمعنى: ما أنت إلا إصبع دमित.

﴿فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠]:

٤١٤

أي مع ظلل، ففي هنا للمصاحبة، وليست الظرفية؛ فلو كانت الظرفية؛ لكانت الظلل محيطة بالله تعالى، والله تعالى -حاشاه- لا يحيط به شيء من خلقه.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]:

٤١٥

لم يذكر الله بم بدّلوا النعمة، ليشمل ذلك جميع أنواع التبديل من كتمان بعض النعم وعدم الاعتراف لله بها، والكفر ببعضها باستعمالها في معصية الله، أو نسبتها إلى غير الله، وكل هذا من تبديل النعمة المستحق للعقاب.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]:

٤١٦

قال الكلبي ومقاتل: كان خباب قيناً (حدّاداً)، فصاغ للعاص حلياً ثم تقاضاه أجرته، فقال العاص: ما عندي اليوم ما أقضيك، فقال خباب: لست

بمفارقك حتى تقضييني، فقال العاص: يا خباب... ما لك؟! ما كنت هكذا، وإن كنت لحسن الطلب، فقال خباب: إني كنت على دينك، فأما اليوم فأنا على دين الإسلام مفارق لدينك، قال: أو لستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا؟

قال خباب: بلى. قال: فأخبرني حتى أقضيك في الجنة - استهزاء - فو الله لئن كان ما تقول حقًا إني لأقضيك فيها، فوالله لا تكون أنت يا خباب وأصحابك أولى بها مني.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]:

الرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والمحبة والإيمان، فلا يعطيها الله إلا من يحب.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]:

سلوك المسلم عند الاختلاف؟!

قال السعدي: «فهو حق، يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يُردَّ الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع، لما أمر الله بالرد إليهما».

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا

بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]:

لا ينشأ الاختلاف - في ظل وجود الكتاب والنص الشرعي - إلا من وجود البغي! والبغي يدفع الإنسان لأخذ غير حقه، فجعل كل فريق يخطئ الآخر ظلمًا وعدوانًا.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]:

قال بعض الصالحين: ما أكثر الهدى وأقل من يرى، ألا ترى أن نجوم المساء ما أكثرها، ولا يهتدي بها إلا العالمون؟!

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَاسَاءَ﴾ [البقرة: ٢١٤].

الأوجاع طريق الجنة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَاسَاءَ وَالضَّرَاءَ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ما الفرق بين البأساء والضراء؟! قال أبو الهلال العسكري: «إن البأساء ضراء معها خوف، وأصلها البأس وهو الخوف، يُقال: لا بأس عليك، أي لا خوف عليك، وسُميت الحرب بأساً لما فيها من الخوف».

﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

حين تنور أسئلة استبطاء الفرج في داخلك، فاعلم أن الفرج قريب.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

يكفيك أن رب العالمين وملك الملوك قد علم ما فعلت، وسيجزيك عنه بما يليق بكرمه وفضله.

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن القيم: «فإن العبد إذا علم أن المَكْرُوه قد يَأْتِي بالمحسوب والمحسوب قد يَأْتِي بالمكروه لم يَأْمَنَ أن توافيه المَضَرَّة من جانب المَسْرَّة، ولم ييأس أن تأتیه المَسْرَّة من جانب المَضَرَّة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم مِنْهَا ما لا يعلمه العبد».

قد لا يرجح ميزان حسناتك، ولا يستقيم دينك إلا بعد معاناة البأساء والضراء.

ولربما ضاق الفضل

لك في عواقبه رضا

فلربما اتسع المضيق

ولرب أمر محزن

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]:

مصيبة تُقبل بها على الله خيرٌ من نعمة تلهيك عنه.

قال ابن عقيل: «تستبطئ الإجابة من الله تعالى لأدعيتك في أغراضك التي يجوز أن يكون في باطنها المفسد في دينك ودنياك، وتتسخط بإبطاء مرادك مع القطع على أنه سبحانه لا يمنعك شحًا ولا بخلاً ولا نسيانًا، لكن إنما أخر رحمة لك وحكمة ومصلحة، وقد تقدّم إليك بذلك مقدمة، فقال سبحانه: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾».

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]:

كل أقدار الله خير، سواء طابت بها رُوحك أو ضاقت.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]:

سبب نزولها: أن سرية بعثها رسول الله ﷺ، فقاتلوا المشركين، وقد أهل هلال رجب وهم لا يعلمون ذلك، فقالت قريش: قد استحل محمد عليه السلام الشهر الحرام شهرًا يأمن فيه الخائف. قال ابن عباس: كان أصحاب النبي ﷺ يظنون تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب.

﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]:

دائمًا ما يتصيد أهل الباطل لأهل التدين جزئيات من الدين فرطت منهم دون قصد، وهم واقعون في ما هو أعظم عند الله جرمًا وأشد إثمًا.

كان شهر رجب يدعى عند العرب: الشهر الأصم؛ لأنه لم يكن يسمع فيه للسلح قعقة تعظيمًا لهذا الشهر، وكانوا يعظمونه أكثر من باقي الأشهر الحرم.

٤٣٤

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]:
يمتحن الله إيمانك بأن يأمرك بهجر ما تحب، كما امتحن أحب خلقه إليه
بالحجرة من ديارهم التي يحبون.

٤٣٥

﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]:
ليس العفو هنا ضد العقوبة بل ما تيسر، والعفو في لغة العرب يطلق على ضد
الجهد، والمراد ما تيسر من فضول أموالكم، فلا تكلفوا أنفسكم إنفاق ما لا
تطبقون.

٤٣٦

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]:
مهما أخفيت من نواياك، فالله أعلم بخفاياك.

٤٣٧

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]:
مهما تعددت دواعي (الإعجاب) بين الناس، فلا شيء يعدل الإعجاب بالإيمان!

٤٣٨

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]:
وليست التوبة إلا بعد ذنب، فالذنب إذن ليس نهاية المطاف ولا خاتمة القصة!
اسطر بعملك النهاية السعيدة!

٤٣٩

ندمك على الذنب يوجع قلبك؛ لذا عوّضك الله عن الألم بهذا الحب؛ ليخفف
عنك!

٤٤٠

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]:
قال جابر: «كانت اليهود تقول: إذا جامعها من وراءها جاء الولد أحول،
فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾».

٤٤١

جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! هلكت.
قال: وما الذي أهلكك؟ قال: حوّلت رحلي الليلة، فلم يرد عليه شيئاً،
فأوحى إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى
شِئْتُمْ﴾ يقول: «أقبل وأدبر، وأتق الدبر والحیضة».

٤٤٢

﴿نَسَاؤُكُمْ حَرِّثَ لَكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَغِغْتُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]:

إشعار بأن من مقاصد الزواج حفظ النسل لا مجرد قضاء الشهوة.

٤٤٣

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْصَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ

النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤]:

تنهى الآية المؤمن عن الحفاظ على يمينه إذا كانت مانعة من فعل الخير. قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه» صحيح الجامع رقم: ٦٢٠٨.

٤٤٤

﴿لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]:

قالت عائشة رضي الله عنها: أنزلت هذه الآية في قول الرجل: لا والله، وبلى والله! وهذا دليل على اعتبار الشرع للمقاصد في الأقوال، فاليمين التي لا قصد فيها، لا إثم فيها ولا كفارة عليها.

٤٤٥

قال مالك: «لغو اليمين أن يحلف على شيء يظنه كذلك، ثم يتبين خلاف ظنه».

٤٤٦

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْذُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧]:

جاء الإسلام ثورة لتحرير المرأة، فقد كان الرجل في الجاهلية لا يريد المرأة، ولا يجب أن يطلقها، لكي لا يتزوجها غيره، فيحلف ألا يقربها للإضرار بها، ثم استمر المسلمون في فعل هذا بعد الإسلام، فأبطل الشرع ذلك، وأمهل الزوج أربعة أشهر لتأديب المرأة بالهجر، فإذا انقضت الأشهر الأربعة أمر الرجل بالرجوع إلى زوجته، فإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع أوقع القاضي الطلاق.

٤٤٧

﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦]:

الإيلاء فوق أربعة أشهر حرام؛ فإن المغفرة لا تكون إلا في مقابل ذنب.

﴿وَاللَّذِينَ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]:

قوامه الرجل قد تتحول إلى تسلط وتحكم، إلا إذا تذكر الزوج عزة الله وقدرته، وهذا سر ختم الآية بصفة العزة.

﴿أَوْ تَسْرِحْ بِإِحْسَنِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]:

سمى القرآن الطلاق تسريحاً لا ترغيباً فيه، وإنما ترغيباً في حسن المعاملة؛ لأن التسريح في الأصل: الإرسال للمرعى، ففيه حث للأزواج عند الطلاق أن يُحسنوا معاملة زوجاتهم، وأضاف لاستعمال لفظ ﴿تَسْرِحْ﴾ شرط أن يكون ﴿بِإِحْسَنِ﴾

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]:

قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ هو المُحِلُّ، فلعن الله المُحِلَّ والمُحَلَّلَ له». صحيح الجامع رقم: ٢٥٩٦

قال قبيصة بن جابر الأسدي: سمعتُ عمر بن الخطاب يخطب وهو على المنبر: «والله لا أوتى بمحلل، ولا بمحلل له إلا رجعتها».

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]:

قال صاحب الكشف: «ولم يقل: إن علما أنها يقيمان حدود الله؛ لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله، ومن فسّر الظنّ ها هنا بالعلم فقد وهم، لأن الإنسان لا يعلم ما في الغد، وإنما يظنّ ظناً».

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١]:

والآية تأكيد لأمر الله بالإمساك بمعروف، وزجر صريح عما كان يفعله البعض من مراجعته لامرأته قبل انتهاء عدتها لا لقصد الحفاظ على الزوجية، وإنما بقصد إطالة عدة الزوجة، أو لقصد أن تفتدي نفسها منه بهال.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١]:

٤٥٤

ومن مظاهر اتخاذ آيات الله هزوا الإكثار من التلفظ بالطلاق، وفي موطأ مالك أن رجلاً قال لابن عباس: إني طلقت امرأتي مائة مرة فماذا ترى علي؟ فقال ابن عباس: «طلقت منك بثلاث، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزوا».

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْعُرْفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]:

٤٥٥

الخطاب هنا لأولياء المطلقة دون طلاقات ثلاث إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها، ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها، من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من التزوج به حنقاً عليه وغضباً لما فعل من الطلاق الأول.

رُوي أن معقل بن يسار كانت أخته تحت أبي البداح، فطلقها وتركها حتى انقضت عدتها، ثم ندم فخطبها، فرضيت وأبى أخوها أن يزوجه وقال: وجهي من وجهك حرام إن تزوجته، فنزلت الآية. قال مقاتل: فدعا رسول الله ﷺ معقلاً فقال: «إن كنت مؤمناً، فلا تمنع أختك عن أبي البداح»، فقال: آمنت بالله، وزوجه منها.

٤٥٦

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ [البقرة: ٢٣٣]:

٤٥٧

ليس الفصال هنا الطلاق؛ بل الفصال هو فطام الصبي عن الرضاعة.

فطام الطفل يرجع فيه القرار للمشورة بين الزوجين، فكيف بغيرها من القضايا؟!

٤٥٨

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَضَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾

٤٥٩

[البقرة: ٢٣٤]:

وجبت العدة عليها وإن لم يدخل بها زوجها، وفاء للزوج المتوفى ومراعاة لحقه.

٤١٠

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]:

إشارة إلى حرمة عقد النكاح على المعتدة في حالة العدة، وفساد هذا العقد إذا تم ووجوب فسخه، وإذا عقد عليها وبنى بها فُسخ النكاح.

٤١١

﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [البقرة: ٢٣٥]:

قال ابن عباس: السر: الجماع، وهذا يُسمونه مجاز المجاز، فإن السر مجاز عن الوطء، والوطء مجاز عن العقد، والآية تنهى الرجال عن مواعدة النساء في فترة العدة، وأن يقولوا لهم في السر ما يُستحي من قوله في العلن لمنافاته للشرع، ولا يقول رجلٌ لهذه المعتدة: تزوجيني، بل يعرض بالخطبة إن أراد، ولا يأخذ منها الميثاق والعهد ألا تنكح غيره.

٤١٢

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦]:

تعلموا أدب القرآن! كناية من ألطف الكنايات التي تربي الإنسان على حسن الأدب وعفة التعبير، وتجنب الألفاظ الفاحشة في ما يتعلق بالعلاقة الزوجية.

٤١٣

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٦]:

هذه الآية تُسمى آية المتعة كما جاء على لسان بعض الفقهاء، وهي تشريع حكيم لأن فراق المرأة قبل الدخول بها ينشئ جفوة بينها وبين مطلقها، فجاءت المتعة تسرية لنفسها، وتعويضاً لها عما أصابها، وتلطيفاً لجو الطلاق وما يصاحبه من جفاء وشحناء، واستبقاءً للمودة بين الطرفين.

٤١٤

﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]:

لا تجعل لحظة غضبٍ واحدة تهدم آلاف الساعات الجميلة.

٤١٥

قال الإمام الشوكاني: «وهو إرشاد للأزواج إلى ترك تقصي الحقوق على بعضهم، والمسامحة فيما بينهم».

٤١٦

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]:

لعل من أسباب تخصيص الوصية بالصلاة الوسطى —وهي صلاة العصر— أن ليس لها نافلة تجبر نقصها.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]:

٤١٧

لم نزلت هذه الآية؟ في صحيح البخاري عن زيد بن أرقم:
 إن كنا لتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ يُكَلِّمُ أحداً صاحبه بحاجته؛
 حتى نزلت: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، فَأَمَرْنَا بالسكوت.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]:

٤١٨

صلوا ماشين على الأقدام أو راكبين، فليس الخوف عذراً مقبولاً لترك الصلاة.
 إقامة الصلاة على وقتها! فقد أمر الله بإقامتها ولو مع الإخلال بكثير من الأركان
 والشروط، فلا يجوز تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها ولو في حالة الخوف الشديد،
 فصلاتها بتلك الصورة أفضل وأوجب من صلاتها تامة بعد خروج وقتها.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى
 الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي
 أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]:

٤١٩

هنا روعة تدرج التشريع الرباني!

قال الطاهر بن عاشور:

«واعلموا أن العرب في الجاهلية كان من عاداتهم المتبعة أن المرأة إذا تُوفِّيَ عنها
 زوجها تمكث في شَرِّ بَيْتٍ لها حولاً، مُحَدَّةً لابسة شر ثيابها، متجنبة الزينة
 والطيب، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك الغلو في سوء الحالة، وشرع عدة الوفاة
 والإحداد، فلما ثقل ذلك على الناس، في مبدأ أمر تغيير العادة، أمر الأزواج
 بالوصية لأزواجهم بسكنى الحول بمنزل الزوج والإنفاق عليها من ماله، إن
 شئت السكنى بمنزل الزوج، فإن خرجت وأبت السكنى هنالك لم ينفق
 عليها، فصار الخيار للمرأة في ذلك بعد أن كان حقاً عليها لا تستطيع تركه،
 ثم نسخ الإنفاق والوصية بالميراث، فالله لما أراد نسخ عدة الجاهلية، وراعى
 لطفه بالناس في قطعهم عن معتادهم، أقرَّ الاعتداد بالحول، وأقرَّ ما معه من

المكث في البيت مدة العدة، لكنه أوقفه على وصية الزوج عند وفاته لزوجته بالسكنى، وعلى قبول الزوجة ذلك، فإن لم يوص لها أو لم تقبل، فليس عليها السكنى، ولها الخروج، وتعتد حيث شاءت، ونسخ وصية السكنى حولا بالمواريث، وبقي لها السكنى في محل زوجها مدة العدة مشروعا.

﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١]:

متعة المطلقة ثقيلة على النفس؛ لذا قيدها الله بقيدتين: التقوى في هذه الآية، والإحسان في الآية السابقة.

طَلَّقَ رجل امرأته عند شريح القاضي، فقال له شريح: مَتَّعْها! فقالت المرأة: إنه ليس لي عليه متعة، إنما قال الله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، وليس من أولئك!!

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]:

ما معنى العقل هنا؟! قال الأستاذ الإمام محمد رشيد رضا: «معناه أن يتدبر الشيء ويتأمله حتى تُدْعِن نفسه لما أودعت فيه إذعانا يكون له أثر في العمل، فمن لم يعقل الكلام بهذا المعنى فهو ميت، وإن كان يزعم أنه حي، ميت من عالم العقلاء، حي بالحياة الحيوانية، وقد فهمنا هذه الأحكام ولكن ما عقلناها، ولو عقلناها لما أهملناها».

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣]:

الهروب من القدر حماقة، لسان حال أحدهم: فرَّ من الموت، وفي الموت وقع!

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]:

إذا مَسَّكم ألم في القتال، فتصاعد منكم أنين، فاعلموا أن الله سميع لمعاناتكم، عليم بأحوالكم، مجازيكم عما تلاقون أعظم الجزاء، فهذه الآية فيها تهوين ما تقاسون من آلام.

٤٧٦

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]:

أكمل الصدقات! قال الألوسي: «وذكر بعضهم أن القرض الحسن ما يجمع عشر صفات:

- أن يكون من الحلال، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.
- وأن يكون من أكرم ما يملكه المرء.
- وأن يكون والمرء صحيح صحيح يأمل العيش ويخشى الفقر.
- وأن يضعه في الأحوج الأولى.
- وأن يكتم ذلك.
- وأن لا يتبعه بالمن والأذى.
- وأن يقصد به وجه الله تعالى.
- وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر.
- وأن يكون من أحب أمواله إليه.
- وأن يتوخى في إيصاله للفقير ما هو أسرُّ لديه من الوجوه كحمله إلى بيته».

٤٧٧

﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ [البقرة: ٢٤٦]:

ميدان القول غير ميدان العمل!

٤٧٨

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]:

جعل الله التهجير من الوطن والأهل سبباً لوجوب الجهاد في سبيل الله.

٤٧٩

﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]:

التقييم الجاهلي تقييماً سطحي، يقيس الشخص بما نال من أموال لا بما حاز من كريم خصال.

٤٨٠

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]:

اليهود قوم ماديون؛ لذا ساق الله لهم آية حسية يشاهدونها وهي الإتيان بالتابوت الذي فقدوه زمناً طويلاً، ولأن التابوت حمله الملائكة، فلم يرههم القوم لأنهم مخلوقات غير مرئية، فرأوا التابوت آتياً دون أن يروا من يحمله؛ ولذلك أسند الله أمر الإتيان إلى التابوت: ﴿يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾.

٤٨١

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩]:

كانوا أصحاب طالوت ثمانين ألفاً فصاروا ثلاثمائة! قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «كنا نتحدث: أن أصحاب بدر ثلاث مائة وبضعة عشر، بعدة أصحاب طالوت، الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن».

٤٨٢

لا بد قبل اللقاءات الفاصلة من التمايز والتصفية!

٤٨٣

﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]:

قالها قوم طالوت حين احتاج إليهم، فبعض كلمات (الأصدقاء) أشد فتكاً من أسلحة (الأعداء).

٤٨٤

﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]:

جميل أن تحسن الظن بالله، لكن الأجل أن تفعل ذلك حين يفقد الجميع الأمل.

٤٨٥

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠]:

أول أعمال المجاهدين: الدعاء، فشاركهم من مكانك في هذا العمل إن لم تنل شرف الجهاد.

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠]:

٤٨٦

تخيّل شللاً من الصبر ينهمر عليك، ليُطفئ لهيب آلامك، ويتسلل لتجاويف أوجاعك.

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

٤٨٧

الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]:

وانظر ماذا صنع الدعاء: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]:

٤٨٨

قال ابن عباس: «يدفع الله بمن يُصليّ عمّن لا يُصليّ، وبمن يحجّ عمّن لا يحجّ، وبمن يُزكيّ عمّن لا يُزكيّ»

﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]:

٤٨٩

وفسادها بأن يغمرها الكفر، لكنه سبحانه لا يُخلّي زمناً من الأزمنة من قائم بحق وداع إلى الله.

من روائع المتدبرين

قال محمد إقبال:

«قد كنت تعمدت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم، وكان أبي يراني، فيسألني: ماذا أصنع؟ فأجيبه بأني أقرأ القرآن، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله، فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي! تسألني نفس السؤال وأجيبك جوابًا واحدًا، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غدٍ؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك: يا ولدي؛ اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك. ومنذ ذلك اليوم بدأت أفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست، ومن درره ما نظمت».

روائع إقبال لأبي الحسن الندوي ص ٣١ - دار القلم - دمشق

الجزء الثالث

سورة البقرة آية ٢٥٣
إلى سورة آل عمران آية ٩٢
عدد الفوائد: ٢٢٧

قال ابن هبيرة:

«من مكاييد الشيطان: تنفيرُ عباد الله من تدبر
القرآن، لعلمه أن الهدى واقعٌ عند التدبر».

ذيل طبقات الحنابلة ٢-١٥٦

الجزء الثالث:
سورة البقرة آية ٢٥٣
إلى سورة آل عمران آية ٩٢

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]:

قال عطاء بن دينار: والحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]:

قال كثير من أهل العلم: إنه اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب. في حديث أبي أمامة مرفوعاً أن اسم الله الأعظم في ثلاث سور، في سورة البقرة، وآل عمران، وطه.

قال أبو أمامة: فالتمستها فوجدت في البقرة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

وفي آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران ٢]

وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾. [طه: ١١١]

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]:

قولوا لأغني أغنياء العالم: أنت أحد ممتلكات الله.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]:

لا يصلح توكل القلب إلا على مَنْ ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

نتلوها كل ليلة قبل أن ننام ليرعانا الله بعينه التي لا تنام.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]:

٤٩٦

لم يقل بعلمه، فهم لا يحيطون بعلمه، ولا حتى بشيء من علمه، فما أقل ما علموه بجانب علم الله.

﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]:

٤٩٧

وإن الذي حفظ السماوات والأرض؛ لن يُعجزه أن يحفظك من كل سوء، فاعبده وتوكل عليه.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ [البقرة: ٢٥٥]:

٤٩٨

قال الماوردي:

«وفي الفرق بين العلي والعالِي وجهان:

أحدهما: أن العالي هو الموجود في محل العلو وإن لم يكن مستحقاً للعلو، والعلي هو المستحق للعلو.

الثاني: أن العالي هو الذي يجوز أن يُشارك، والعلي هو الذي لا يجوز أن يُشارك».

﴿الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]:

٤٩٩

قال ذوالنون: «من أراد التواضع فليؤجّه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلّها فقيرة عند هيئته».

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]:

٥٠٠

كلمة «طاغوت» مبالغة من الطغيان، وهو يتنوع، فمرة يكون الطاغوت شيطاناً، أو كاهناً، أو ساحراً أو حاكماً.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]:

٥٠١

قدّم الله الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله؛ لأن التخلية قبل التحلية، فلا بد أن يتخلّى العبد عن الطاغوت أولاً قبل إعلان إيمانه بالله، فقبل أن تكوي الثوب وتعطره لا بد لك أن تغسله وتنظّفه.

٥٠٢

﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]:

العروة الوثقى هي الإيمان أو الإسلام أو التوحيد، فلتفلت كل العرى من يديك، ولتقبض على عروة الدين؛ لتبحر آمناً في بحر الحياة الهائج نحو شيطان النجاة.

٥٠٣

﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]:

إلا إن أراد العبد انفصامها! قال سعيد بن جبير في هذه الآية: ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

٥٠٤

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]:

وحّد الله لفظ (النور) وجمع لفظ (الظلمات)؛ لأن طريق الحق واحد، وطرق الباطل متعددة.

٥٠٥

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]:

من كان الله وليه، فلن يضلّ أبداً، ولن يُقهر بإذن الله.

٥٠٦

ومتى تولاك هل يضيّعك؟!

٥٠٧

على قدر إيمانك تكون ولاية الله لك.

٥٠٨

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]:

آيات الله ساطعة بينة، لكن انطماس البصيرة بصائر البعض واعتياد رؤية المعجزات ألهى الناس عنها.

٥٠٩

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]:

في الآية إشارة أن الله بيده أن يغيّر نواميس الكون ومراكز الاستشعار عند الإنسان، ويقبّلها كيف يشاء، فجعل عشرات السنوات هنا كأنها ساعات، وبيده أن يجعل اللحظات العابرة كأنها أعوام.

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]:

النظر هنا يفيد الاعتبار، وحرف ﴿إِلَى﴾ أفاد التنبيه على إمعان، النظر ليشعر الناظر بهذه الأمور الدقيقة التي لا تظهر إلا بالتأمل وتكرار النظر.

﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]:

قال الطاهر بن عاشور: «قد جمع الله له أنواع الإحياء؛ إذ أحيا جسده بنفخ الروح عن غير إعادة، وأحيا طعامه بحفظه من التغير، وأحيا حماره بالإعادة، فكان آية عظيمة للناس الموقنين بذلك».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]:

ليس الخبر كالمُعَايَنَة!

﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]:

طمئنوا القلوب الحائرة، واسكبوا ماء اليقين على الأرواح التائهة، وتصدوا للشبهات؛ لأنها إن لم تجد عندكم جواباً، ستأخذ أصحابها بعيداً عن الله.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠]:

فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ: ليس معناها ضعهما في صُرَّة، وإنما معناها (فقطعهن).

﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]:

كُلُّ بحسب ما حوى قلبه من إخلاص و يقين وحسن ظن بالله، مضاعفات الأعمال تكون بحسب محتوى القلوب وتباين الأحوال.

﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ.. وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]:

لا خوف عليهم مما يستقبلهم من أهوال، ولا يحزنون على ما أصابهم من مصائب.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٣]:

أحياناً تكون الكلمة الطيبة أهم عند الفقير من المال؛ ولذا كانت الكلمة الطيبة صدقة.

٥١٨ الأخلاق قبل الأموال!.. ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

٥١٩ ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].
ولذا قيل: من أعطى فمَنَّ، كان كَمَنٍ بَخِلٍ وَضَنٍّ.

٥٢٠ في آيات الإنفاق قال الله ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥]:
منا من يُخْرِجُ الصدقة بعد تردد، ومنا من يبذلها ثابت القلب غير متردد، لا يستوون عند الله!

٥٢١ ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]:

مثل لسوء الخاتمة أو المرائي!
تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية، وقال: «هذا مثل ضرب للإنسان يعمل عملاً صالحاً، حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء»، وقال السُّدِّي: «هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه».

٥٢٢ أو مثل لشدة الحاجة للحسنات بعد الموت!
قال الحسن:
«هذا مثل، قلَّ والله من يعقله من الناس: شيخٌ كبيرٌ ضعف جسمه، وكثر صبيانه، فقد جنته أحوج ما كان إليها، وإن أحدكم والله لأفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا».

٥٢٣ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧]:
لا تسرق وتصدق، أو تأكل الرشوة وتحج، فليتها ما زنت ولا تصدقت!

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]:

٥٢٤

هذا وعد الشيطان في الإنفاق، وأما وعد الله في الإنفاق: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً

مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فليُنظر صاحب المال بأي الوعد ينشئ!!

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ

٥٢٥

وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]:

وما يضرّك وعد الشيطان مع ضمان الرحمن؟!

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]:

٥٢٦

الخوف من الفقر من أهم أسلحة الشيطان، ومنه استدرج الناس إلى أكل

الحرام، ومنعهم من الإنفاق الواجب.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ

٥٢٧

وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]:

قال الحسن البصري: «قرأت في تسعين موضعًا من القرآن أن الله قدر

الأرزاق وضمنها لخلقها، وقرأت في موضع واحد: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ

الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].»

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]:

٥٢٨

حينما تهّم الصدقة ثم تراجع؛ فاعلم أن شيطانك نجح في مهمته.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]:

٥٢٩

قدّم المغفرة لأنها أعلى جائزة، وهي مفتاح باب العطايا التي تحول دونها الذنوب.

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]:

٥٣٠

قال ابن عباس وأبو الدرداء وغيرهما: الحكمة: الفقه في القرآن.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]:

٥٣١

حتى وإن امتلأت الأجواء من حولك بأنفاس الظالمين، فلا أحد يستطيع أن

يمنع عنهم عذاب الله في الدنيا والآخرة.

قال القاضي شَرِيح: «الظَّالَمُ يَنْتَظِرُ الْعُقُوبَةَ، وَالْمَظْلُومُ يَنْتَظِرُ النَّصْرَ».

﴿إِنْ تَبَدُّوا لَاصِدَقْتُمْ فَبِعَمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١]:

الله يمدحهم على أفعالهم ونحن نتهمهم في نياتهم! ما رأيك أن تتفرَّغَ لنيِّتك؟!

﴿إِنْ تَبَدُّوا لَاصِدَقْتُمْ فَبِعَمَّا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]:

أيها أفضل في الصدقة: السر أم الإعلان؟

السِّرُّ أولى في حالة ضعف القلب الذي لا يأمن على نفسه الرِّياء.

والإعلان مع مجاهدة النَّفس من خطرات الرِّياء أولى للقوي الذي يأمن الرِّياء

إذا قصد أن يدعو غيره إلى الاقتداء.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]:

تسلية للدعاة إن لم يلمسوا ثمرة جهدهم ونتيجة دعوتهم.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]:

إنما تتصدق على نفسك لا على غيرك!!

﴿مَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءُ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]:

ابحث عن الفقير المتعفف، ولا تنتظر أن يبحث عنك! المتعففون كثر.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]:

من طرق إزالة الأحزان: صدقة السر.

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]:

لا تسميته بغير اسمه، ولا المقالات التي تمدحه، ولا الإعلانات التي تروِّج

له، ستجعل ما حَرَّمَ الله حلالا.

الدين يُسر؛ لذا فمنهج القرآن في التغيير؛ أن يوفر البدائل الطيبة قبل أن يحرم

شيئاً.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦]:

لا يطلب أحد شيئاً من طريق حرام إلا عاقبه الله بنقيض قصده، طلبوا الربح من الربا فعوقبوا بفقد المال.

﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا..... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]:

قبل أن تدخل أي معركة، تعرّف على خصمك فيها!!

﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]:

الربا والإيمان لا يجتمعان.

﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨]:

هناك معاصٍ تؤذي صاحبها فحسب، أما الربا فضرره على الكل، في الحديث: «ما ظهر في قوم الربا والزنى إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله». صحيح الجامع رقم: ٥٦٣٤.

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]:

تكفيك هذه البشارة النبوية: «من نفّس عن غريمه، أو محّا عنه، كان في ظلّ العرش يوم القيامة». صحيح الجامع رقم: ٦٥٧٦.

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]:

مهما أغرتك لذائذ السفر، فإياك ونسيان التجهز لرحلة الرجوع.

آخر آية في القرآن، عن آخر أيام حياتنا.

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]:

هذه آخر آية نزلت من كتاب الله، وقد توفي رسول الله ﷺ بعدها بتسع ليالٍ.

٥٤٩

﴿وَلَا تَسْمُؤُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]:

جاءت في أطول آية في القرآن، إشارة لأهمية توثيق المعاملات المالية.

٥٥٠

﴿وَلَا يَأَب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]:

من خصّه الله بنعمة، فعليه ألا يمنعها عن الناس؛ لأن من تمام شكر النعمة الإنفاق منها.

٥٥١

قال الله عن كتم الشهادة في الأموال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]:

هذا كتمان الشهادة في الأموال، فكيف بكتمانها عن نصره الحق!

٥٥٢

﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]:

قال ابن تيمية: «إنما تدل على أن الله يحاسب بما في النفوس، لا على أنه يعاقب على كل ما في النفوس».

٥٥٣

﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]:

في صحيح مسلم: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: قد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطقها، فقال ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقرأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، (فنسخها الله)، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥٥٤

اقرأها ثلاث ليالٍ، بل وواظب عليها كل ليلة! في الحديث: «إن الله تعالى كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، وهو عند العرش، وإنه أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يُقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها الشيطان». صحيح الجامع رقم: ١٧٩٩.

سَمَّاها الله سورة البقرة إشارة إلى تعنت بني إسرائيل في طاعة أمر الله في ذبح البقرة؛ ولذا ختمها بقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]: أعظم ما يعين العبد على السمع والطاعة اليقين باليوم الآخر.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]: لماذا نقصر دلالة الآية على الأخذ الرُّخص؟! بينما هي من أدلة الأخذ بالعزيمة كذلك.



سورة آل عمران

﴿الْم ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]:

قال النبي ﷺ: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة آل عمران: ﴿الْم ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» صحيح الجامع رقم: ٩٨٠.

الدعاء باسمي الحي القيوم! قال النبي ﷺ لابنته فاطمة يومًا: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم.. برحمتك أستغيث.. وأصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا». السلسلة الصحيحة رقم: ٢٢٧.

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]:

التنزيل هو النزول مرة بعد مرة، والقرآن نزل منجَّمًا: أي شيئًا بعد شيء، فلذلك قال: ﴿نَزَلَ﴾، وأما التوراة والإنجيل فنزلا دفعة واحدة؛ لذا قال: ﴿وَأَنزَلَ﴾.

﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤]:

ليس المراد بالفرقان هنا القرآن، وإلا كان ذلك تكرارًا لقوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾، بل المراد الكتب السماوية وقد أنزل الله فيها فرقانا يميِّز به بين الحق والباطل، فالفرقان متضمَّن في الكتب الثلاثة: القرآن والتوراة والإنجيل.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]:

اختباؤك بعيدًا عن نظر الله علامة قلة عقل فضلًا عن ضعف دين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]:

قال القشيري:

«لا يتنفس عبد نفساً إلا والله مُحْصِيه، ولا يحصل في السماوات والأرض أمر إلا وهو سبحانه محدثه ومبديه، هذا على العموم، فأما على الخصوص مع أوليائه: فلا رَفَعَ أحد إليه حاجة إلا وهو قاضِيها، ولا رجع أحد إليه في نازلة إلا وهو كافِيها».

لا يخفى عليه منك سرٌّ ولا علانية، فاحذر أن ينظر إليك نظرة بغض وغضب، وأنت لا تشعر بذلك فرحاً بعصيان أو قرّة عين باتباع شيطان.

قال بعض السلف لابنه: إذا دعيتك نفسك إلى كبيرة، فارم ببصرك إلى السماء، واستح ممن فيها، فإن لم تفعل فارم ببصرك إلى الأرض واستح ممن فيها، فإن كنت لا ممن في السماء تخاف، ولا ممن في الأرض تستحي، فاعدد نفسك في عداد البهائم!

قيل لبعضهم: كيف تشكو إلى من لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟ فقال:

قالوا: أتشكو إليه
فقلت: ربي يرضى
ما ليس يخفى عليه؟!
ذلُّ العبيد لديه

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦]:

نفذَ علم الله وقدرته إليك في ظلمات ثلاث؛ فهل تخفى عليه حين تدبُّ فوق الأرض وتحت السماء؟!

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]:
الذي يفرحون بالمتشابهات والشبهات، ويسعون لإثارتها في وسائل الإعلام على العوام في قلوبهم زيج.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]:

حرف الجر ﴿فِي﴾ يجعل ﴿الْعِلْمِ﴾ هو البيئة التي كلما انغمس فيها العبد آمن من الزلل.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]:

كلما زاد علم العبد زادت خشيته، وتعاضم خوفه من الزيغ بعد الهداية.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: ٧]:

التَّخْلِيَة قبل التَّحْلِيَة! قدَّم التَّخْلِيَة فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا﴾، ثمَّ التَّحْلِيَة في قوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، فقدَّم الله سؤال تطهير القلب عمَّا لا ينبغي له، على طلب تزويده بما ينبغي له؛ لأنَّ إزالة الحشائش الضارة قبل غرس البذور النافعة هو عين الحكمة.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]:

الاهتداء للحق أعظم مكافأة للقلوب الصادقة، فما نالها ابن نوح بنبوة أبيه، ولا حرّمها سلمان الفارسي بكفر ذويه.

لا يراد به الافتخار بالهداية، بل التَّوَسُّلُ بها كنعمة من النِّعَم السَّابِقَة لاستجلاب النعم اللاحقة.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]:

لم يُسَمَّ القلب قلباً إلا من تقلبه! فالتغير سنة الحياة، وأكثر ما يكون التغير في القلوب، فاللهم لا تغيِّرنا إلا إلى أفضل مما هي عليه الآن.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

أَلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]:

قال ابن عاشور: «دعاء علمه النبي ﷺ تعليمًا للأمة: لأن الموقع المحكي موقع عبرة ومثار لهواجس الخوف من سوء المصير إلى حال الذين في قلوبهم زيغ، فما هم إلا من عقلاء البشر، لا تفاوت بينهم وبين الراسخين في الإنسانية، ولا في سلامة العقول والمشاعر، فما كان ضلالهم إلا عن حرمانهم التوفيق، واللفظ، ووسائل الاهتداء».

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾

٥٧٦

[آل عمران: ٩]:

يصف الله دائماً يوم القيامة بأنه لا ريب فيه، لأن البعض يستبعدون هذا اليوم عقلاً لعدم إيمانهم، وكثيرون يستبعدونه غفلة وتكاسلاً لضعف إيمانهم وقلة يقينهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠]:

٥٧٧

لم خصّ الأموال والأولاد بالذكر؟! لأن التصديق بالأموال يطفئ غضب الرب، واستغفار الأولاد يرفع درجة الآباء، وكذلك الصبر على موت الأولاد مما يرفع درجات آبائهم.

﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١]:

٥٧٨

سُنَّة ماضية! من لم يعتبر بغيره من العصاة نزل به نفس ما نزل بهم من العذاب، ومن حُرِم البصيرة سقط في مهاوي الذنوب وحفر النار.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]:

٥٧٩

أخبرهم الله أن الجنة تفوتهم في الآجل، ولن تكون لهم لذة عيش في العاجل، وما يلقونه في الآخرة من شدة العقوبة هو أضعاف ما يصيبهم في الدنيا من حرمان المثوبة، لكن عميت البصائر فلم يحسوا بألم العقوبة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]:

٥٨٠

رسالة موجهة إلى اليهود!

ذكر ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله ﷺ لما أصاب

من قريش ما أصاب في غزوة بدر، ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بنى قينقاع وقال: «يا معشر اليهود.. احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم»، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا (جمع غُمر - بضم الغين - وهو الجاهل الذي لم يجرب الأمور) لا علم لهم بالحرب، فأصبحت فيهم فرصة، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَعِبْرَةٌ لِّأُولَى الْأَبْصَرِ﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَانِ ۖ فَعَثُوهُنَّ نَقَصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَى الْأَعْيُنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولَى الْأَبْصَرِ﴾ [آل عمران: ١٣]:

قال القشيري:

«إذا أراد الله إمضاء أمر قلل الكثير في أعين قوم، وكثر القليل في أعين قوم، وإذا لبس على بصيرة قوم لم ينفعهم نفاذ أبصارهم، وإذا فتح أسرار آخرين فلا يضرهم انسداد بصائرهم».

﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَى الْأَعْيُنِ﴾ [آل عمران: ١٣]:

قال ابن عباس: «إن الله عز وجل أرى المسلمين أن المشركين هم ستمائة وكسر». وقد أخبر الله أن المائة من المسلمين تغلب مائتين، فأراهم المشركين على قدر ما أعلمهم، ليقوي قلوبهم، وأرى المشركين أن المسلمين أقل من ذلك.

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: ١٤]:

قال الإمام الرازي: «يدل على أمور ثلاثة مُرتَّبة، أولها: أن المرء يشتهي أنواع المشتَهيات، وثانيها: أنه يُحبُّ شهوته لها، وثالثها: أنه يعتقد أن تلك المحبة حسنة وفضيلة، ولما اجتمعت الدرجات الثلاثة بلغت الغاية القصوى في الشدة والقوة، ولا يكاد ينحل ذلك إلا بتوفيق عظيم من الله تعالى».

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ... وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ [آل عمران: ١٤]:

قال القرطبي: «وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تُنال إلا بترك الشهوات، وفطام النفس عنها».

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: ١٤]:

وقدّم النساء على الكل. قال القرطبي: «لكثرة تشوّق النفوس إليهن؛ لأنهن حباثل الشيطان، وفتنة الرجال».

﴿قُلْ أُوْبِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]:

تسلية للمصابين في دنياهم، وتقوية لنفوس الزاهدين في متاعها؛ لأن نعم الآخرة خير من نعم الدنيا، فكل نعم الدنيا مشوبة بالمضرة، وأما نعم الآخرة فخالية من المضار بالكلية، ونعم الدنيا منقطعة، ونعم الآخرة باقية.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]:

هنا ذكر أربعة ألوان من النعيم، وما خفي كان أعظم: جنّات تجري من تحتها الأنهار، والخلود، والأزواج المطهّرة، والرضوان من الله.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]:

الرضوان مصدر كالرضا، لكن يزيد عليه أنه الرضا العظيم؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والتنكير قُصد به التفخيم والتعظيم.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]:

هذا من الوسائل التي يحبها الله، أن يتوسل العبد إلى ربه، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه، بحصول الثواب الكامل، واندفاع العقاب. (السعدي).

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتَّةِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ

٥٩٠

بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]:

قال الإمام البيضاوي: «حَصَرُ لمقاماتِ السَّالِكِ على أَحْسَنِ ترتيب؛ فَإِنَّ معاملته مع الله تعالى إِمَّا تَوَشَّلَ، وإِمَّا طَلَبَ، والتَّوَشَّلَ إِمَّا بِالنَّفْسِ، وهو منعها عن الرَّذَائِلِ، وحَبْسُها على الفضائل، والصَّبْرُ يشملهما.

وإِمَّا بِالْبَدَنِ، وهو إِمَّا قَوْلِي، وهو الصَّدَق، وإِمَّا فِعْلِي، وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة.

وإِمَّا بِالْمَالِ وهو الإنفاق في سُبُلِ الخير، وأَمَّا الطَّلَبُ فبالاستغفار؛ لِأَنَّ المغفرةَ أَعْظَمُ المطالبِ، بل الجامعُ لها».

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]:

٥٩١

في جوف الليل يطلب الناس راحة أبدانهم بالنوم، ويطلب المؤمنون راحة قلوبهم بالاستغفار.

صابرون وصادقون وقانتون ومنفقون.. ومع هذا يستغفرون بالأسحار، فكيف بالمذنبين؟!

٥٩٢

من عجز عن القيام في السَّحَرِ، فلا يعجز -ولو على فراشه- عن الاستغفار:

٥٩٣

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]:

٥٩٤

ما أعظم الشاهد وأجلّ المشهود به!

قيمة الشهادة متعلقة بقيمة الشاهد، فكلمة أعظم قدر الشاهد عظمت الشهادة، فلو قلتَ إن فلاناً من أعلم الناس، فلا شك أن شهادتك ستكون أعظم قدرًا وأشدّ مصداقية لو كنتَ عالمًا يشهد لك الجميع بالتميز في مجالك، فكيف لو كان الشاهد هو الله رب العالمين؟

٥٩٥

٥٩٦

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]:

قال ابن كثير: «قرن الله شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء».

٥٩٧

ذكر ابن القيم في كلام له قيّم أن شهادة الله لنفسه بالوحدانية تتضمن مراتب أربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره خلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

٥٩٨

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ١٨]:

الشاهد الثاني هم الملائكة الذين شهدوا موقف شهادة الله لنفسه، فهم أصحاب شهود ومعاينة، فعلمهم بالتوحيد ليس حاصلاً من النظر في الأدلة كسائر البشر، وإنما علمهم به حاصل من التجلي الإلهي، وهو أقوى العلوم وأصدقها؛ فلذا قدّمهم الله في الذكر على أولي العلم.

٥٩٩

﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]:

شهادة أولي العلم شهادة قائمة على الدلائل لا المشاهدة، فهي رؤية بصائر لا أبصار كما رأت الملائكة، وعلى رأس أولي العلم: الأنبياء.

٦٠٠

متى تصل إلى مرتبة أولي العلم؟! قال السعدي: «والشهادة لا تكون إلا عن علمٍ ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليلٌ على أن مَنْ لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة، فليس من أولي العلم».

٦٠١

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]:

قال النبي ﷺ: «من سمع بي من أمتي يهودياً أو نصرانياً، ثم لم يؤمن دخل النار». صحيح ابن حبان رقم: ٤٨٦٠.

٦٠٢

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]:

قال البغوي: «وإنما خصّ الوجه؛ لأنه أكرم الجوارح للإنسان، وفيه بهاؤه، فإذا خضع وجهه للشيء، فقد خضع له جميع جوارحه».

٦.٣

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]:

خطورة عمل القلب! قال ابن عاشور:

«وإنما حمل هؤلاء تبعة أسلافهم لأنهم معتقدون سداد ما فعله أسلافهم، الذين قتلوا زكريا لأنه حاول تخليص ابنه يحيى من القتل، وقتلوا يحيى لإيمانه بعيسى، وقتلوا النبي إرمياء بمصر، وقتلوا حزقيال النبي لأجل توبيخه لهم على سوء أفعالهم، وزعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، فهو معدود عليهم بإقرارهم وإن كانوا كاذبين فيه، وقتل منشا ابن حزقيال ملك إسرائيل النبي أشعيا: نشره بالمنشار لأنه نهاه عن المنكر، بمرأى ومسمع من بني إسرائيل، ولم يحموه».

٦.٤

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]:

لم يقتلوا كل النبيين، فلم ذكر النبيين جميعاً؟ والجواب: أنهم بقتلهم لبعض النبيين قد استهانوا بمقام النبوة، ومن استهان بمقام النبوة بقتله لبعض الأنبياء فكأنه قد قتل الأنبياء جميعاً، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

٦.٥

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]:

قال الحسن: «هذه الآية تدل على أن القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الخوف، تلي منزلته في العظم منزلة الأنبياء».

٦.٦

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. واجب كل العصور.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢]:

ذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِجُرَائِمٍ ثَلَاثٍ: الْكُفْرَ وَقَتْلَ الْأَنْبِيَاءِ وَقَتْلَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ، وَتَوَعَّدَهُمُ عَلَيْهَا بِعُقُوبَاتٍ ثَلَاثٍ: الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، وَحَبْوَطَ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَانْتِفَاءً مِنْ يَنْصُرُهُمْ أَوْ يَدَافِعُ عَنْهُمْ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]:

رَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَنِيَا. فَقَالَ لَهُمْ: «كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَى مِنْكُمْ؟» قَالُوا: نَفْحَمُهَا - أَيِ نَجْعَلُ عَلَى وَجُوهِهَا الْفَحْمَ تَنْكِيلًا بِهِمَا، فَقَالَ: أَلَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ الرَّجْمَ؟ فَقَالُوا: لَا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا.

فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ، فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَوَضَعَ مَدْرَاسَهَا - الَّذِي يَدْرُسُهَا مِنْهُمْ - كَفَّهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا، وَلَا يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ فَتَزِعُ يَدَهُ عَنِ الرَّجْمِ. فَقَالَ مَا هَذِهِ؟ - أَيْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ رَفَعَ يَدَ الْقَارِئِ عَنِ آيَةِ الرَّجْمِ وَقَالَ لَهُ: مَا هَذِهِ - فَلَمَّا رَأَى الْيَهُودَ ذَلِكَ قَالُوا: هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرُ بِهِمَا، فَرُجِمَا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]:

كُلٌّ مِنْ دُعَايِهِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَإِلَى شَرْعِ اللَّهِ وَجِبَ عَلَيْهِ الْإِجَابَةُ، وَإِلَّا كَانَ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْيَهُودِ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]:

الْعَذَابُ الْمُؤَقَّتُ حِجَّةٌ كَثِيرٌ مِنَ الْعَصَاةِ لِلتَّهَرُّبِ مِنْ تَكَالِيفِ الْإِسْقَامَةِ.

قال أبو عمران الجوني: وهبك تنجو.. بعد كم تنجو؟!

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]:

لأن كثيراً من الناس لا يؤمنون به قولاً أو عملاً.

﴿وَتَنَزَّعُ الْمُلُوكُ مِمَّنْ نَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]: لا يتخلى أرباب الملك عن

ملكهم طواعية!

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]:

تقديم يفيد الحصر، عنوان شكواك لا بد أن يتغير بعد هذا الإعلان.

بأجل أسباب السوء تعلقني

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني

ضدان مفترقان أي تفرق

لكن من رزق الحجا حُرِم الغنى

بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ومن الدليل على القضاء وكونه

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ

وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧]:

ذكر المفسرون فيها وجوهاً:

أحدها: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

والثاني: يخرج الحيوان - وهو حي - من النطفة - وهي ميتة -، والدجاجة -

وهي حية - من البيضة أو العكس.

والثالث: يخرج السنبلة من الحبة وبالعكس، والنخلة من النواة وبالعكس.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]:

قال الحسن البصري: «من رأفته بهم أن حذرهم نفسه!».

﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٢٩]:

لو علم أحدنا أن السلطان سلط عليه عيوناً، وبعث من يتجسس عليه، لأخذ

حذره، وراجع نفسه في كل ما يصدر عنه، فإذا كان العليم بالسر وأخفى هو

المهيمن عليك، فكيف لا يظهر هذا على قولك وعملك؟!

﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩]:

إرشاد إلى تطهير القلوب، واستحضار علم الله في كل وقت، فيستحي العبد أن يرى الله قلبه مسكنًا للأفكار الرديئة، بل يشغله بما يُقَرِّبُ إلى الله.

﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

بقدر اتباعك للنبي ﷺ تكون درجتك عند ربك. ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]:

الحب الحقيقي ليس بحلو الأقوال بل بصدق الأفعال.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]:

قال السعدي: «هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامه محبة الله اتباع محمد ﷺ».

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]:

قال القشيري: «لم يقل العاصين بل قال الكافرين، ودليل الخطاب أنه يحب المؤمنين وإن كانوا عصاة».

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]:

إياك أن تنكر حكمًا شرعيًا ثابتًا لأنك لا تقدر عليه؛ وإلا نقلت نفسك خارج دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والعياذ بالله.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل

عمران: ٣٣]:

اصطفاه الله لآدم بأن خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه أسماء كل شيء. اصطفاه الله لنوح فجعله أول رسول إلى أهل الأرض، ونجَّى من اتبعه في السفينة، وأغرق من عصاه.

واصطفاء الله لآل إبراهيم أي عشيرته وقرابته، وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبي ﷺ.

واصطفاء الله لآل عمران إذ جعل فيهم عيسى عليه السلام، والمراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى عليهما السلام.

قال الإمام السيوطي: «يُستدل بهذه الآية على تفضيل الأنبياء على الملائكة لدخولهم (أي الملائكة) في العالمين».

﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤]:

ليست المسألة وراثته اللحم والدم، بل إرث الدين والقيم، وإلا فابن نوح ليس من أهله، و«سلمان منا آل البيت».

والمعنى: إنما يصطفي الله من خلقه من علم استقامته قولاً وفعلًا، وهو مثّل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]:

كانوا يجهّزون أبناءهم لحمل همّ الدين قبل أن يولدوا، فما عذر من لم يحمل همّ دينه أو أمته من مهده إلى لحدّه!

همّ صلاح الذرية، واستعمالهم في مرضاة الله باب سبق تجاوز به الصالحون عمل اليوم إلى التخطيط للغد.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]:

تمنّت أن يكون حملها ذكرًا، ولم تعلم أن البركة في أن تحمل بطنها أنثى، وأنها ستكون أمّ نبي من أولي العزم من الرسل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ذكريا لم يسأل ربه الولد إلا حين سمع مريم تقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فبعض ما تسمع من كلمات هو رسائل من الله إليك،

لنتنبه وتعرض لفضله!

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ [آل عمران: ٣٩]:

في المحارب أرزاق تنتظر!

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]:

يا من ضاق به الرزق، ها هو المحارب بين يديك.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: ٣٨]:

القلوب السليمة تفرح عند رؤية النعم على غيرها ولا تحسد، بل يتفأل أصحابها بأن فضل الله الذي أصاب غيرهم قادرٌ أن يصيبهم.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]:

لا تنتظروا -معشر الآباء- حتى يكبر أولادكم لتدعوا لهم بالصلاح، بل ادعوا لهم قبل مولدهم وقولوا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾:

هل عرفت الآن مكان الهبات والبشريات والأعطيات.

﴿يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ [آل عمران: ٣٩]:

كلما دنوت من موضع السجود، اقتربت منك بشائر المعبود.

﴿يُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]:

قال ابن عباس: «وَحَصُورًا: الذي لا يأتي النساء».

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]:

من الممكن أن تحوز أعظم الألقاب في الدنيا: رئيس، وزير، أمير، لكن ما الفائدة إن كانت العاقبة جهنم؟! أهم شيء: وجاهتك في الآخرة.

﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦]:

الكلام في المهد معجزة، لكن ما المعجزة في أن يتكلم الكهل؟! والجواب: إشارة إلى معجزة أخرى. قال ابن عباس: ﴿وَكَهْلًا﴾ ذلك بعد نزوله من السماء عليه السلام.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]:

قال الطاهر بن عاشور: «والاستفهام في قولها: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ للإنكار والتعجب؛ ولذلك أجيب جوابين:

أحدهما: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، فهو لرفع إنكارها.

والثاني: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ لرفع تعجبها».

﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧]:

صرَّح هنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، ولم يقل: يفعل كما في قصة زكريا، لأن الخلق بلا سبب، فليس هناك أب لعيسى، بعكس يحيى الذي جاء من أب وأم.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]:

قال ابن القيم: «وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك: أنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان».

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]:

ما سر ترتيب هذه الأربعة؟!

قال الفخر الرازي:

«والأقرب عندي أن يقال: المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة.

ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق؛ لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، ومجموعهما هو المسمى بالحكمة.

وأخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة؛ لأن التوراة كتاب إلهي فيه أسرار عظيمة، والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث عن أسرار الكتب الإلهية.

وإنما آخر ذكر الإنجيل عن التوراة لأن من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي نزل على من قبله من الأنبياء، فقد عظمت درجته في العلم، فإذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتابًا آخر وأوقفه على أسرارهِ، فذلك هو الغاية القصوى والمرتبة العليا في العلم والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِقَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْخِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]:

بعث الله كل نبي بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى السحر، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحّار. وبعث عيسى في زمن الأطباء فأحيا الموتى وداوى الأكمه والأبرص بإذن الله. وبعث محمد ﷺ في أمة الفصحاء والبلغاء والشعراء، فأتاهم بالقرآن المعجز الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما استطاعوا.

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ [آل عمران: ٤٩]:

ذهب أكثر أهل اللغة إلى أن الأكمه هو من وُلِدَ أعمى، ويقال: إنه لم يكن في هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِقَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: ٥٠]:

فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وقيل: إن من الأطعمة التي أحلها عيسى لبني إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم في شريعة موسى: لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور.

﴿إِنَّ اللَّهَ نَزَّ وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]:

﴿إِنَّ اللَّهَ نَزَّ وَرَبُّكُمْ﴾:

إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق.

﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾: إشارة إلى استكمال القوة العملية، وهي ملازمة الطاعة بالإتيان

بالأوامر والانتها عن النواهي.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: والجمع بين قوة الاعتقاد وقوة العمل هو

الاستقامة، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمَّ».

﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]:

الحرمان الحقيقي أن لا تكون من أنصار الله في معركة الصراع بين الحق والباطل.

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٥٣]:

ليس الإيمان كلاماً، بل اتباعاً، وإلا كان أوهاماً.

﴿فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]:

طلب إيماني يدل على همة عالية، فسألوا الله أن يجعلهم ممن يحملون أمانة التبليغ عن الرسول، والقيام بدور الشهادة على الناس.

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]:

سنة الاستدراج!

قال ابن عباس: «كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة».

مكر الله بإلقاء شبه عيسى على غيره، ورفع عيسى إليه، وذلك أن اليهود لما

اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هارباً منهم، فرفعه الله من كوة البيت إلى

السماء، فقالوا لرجل منهم خبيث يقال له يهوذا: ادخل عليه فاقتله، فدخل

البيت، فلم يجد هناك عيسى، وألقى الله عليه شبه عيسى، فلما خرج رأوه على

شبه عيسى، فأخذوه وقتلوه وصلبوه.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]:

١٥٧

ليس من الوفاة وهي الموت، بل من التوفي وهو أخذ الشيء تاماً وافياً، فالآية بمعنى: قابضك من الأرض ورافعك إلى السماء بجسدك وروحك، وهذا قول جمهور العلماء. قال القرطبي: «قال الحسن وابن جريج: معنى متوفيك: قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، مثل توفيتُ مالي من فلان أي قبضته».

١٥٨

أحاديث عديدة بلغت في قوتها مبلغ التواتر المعنوي - كما قال ابن كثير - وردت في نزول عيسى إلى الأرض في آخر الزمان؛ ليملاها عدلاً كما ملئت جوراً، منها ما جاء في صحيح البخاري:

«والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها». صحيح البخاري رقم: ٣٤٤٨.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]:

١٥٩

من تعجب من معجزة رفع عيسى حياً إلى السماء، قلنا له: إن قبلت المعجزة الأولى بخلق عيسى من غير أب، فلتقبل المعجزة الثانية برفعه إلى السماء.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]:

١٦٠

كيف وقد ظهر بعض الأعداء على أتباع عيسى عليه السلام؟! والجواب: المراد بالفوقية الناحيتان الروحية والمادية، أي فوقهم بقوة إيمانهم، وقوة حجتهم وبرهانهم، وهم فوقهم كذلك بالقوة المادية إن أخذوا بأسباب النصر التي شرعها الله.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ

١٦١

نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦]:

فأما عذاب الدنيا فهو يجري على نظام أحوال الدنيا: من شدة وضعف وعدم استمرار، فمعنى انتفاء الناصرين لهم منه: انتفاء الناصرين في المدة التي قدرها الله لتعذيبهم في الدنيا، وهذا متفاوت، وقد وجد اليهود ناصرين في بعض الأزمان مثل قضية فلسطين في هذا العصر.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾

١٦٢

[آل عمران: ٥٧]

توفية الأجور جاءت بصيغة المضارع، وليس المستقبل (سيؤفّيهم)؛ لإفادة أنها حالية ومستقبلية، فالحالية العاجلة مثل رضا الله عنهم، وبركته معهم، والحياة الطيبة، وحسن الذكر، والقبول عند الخلق، والمستقبلية ما يكون في الآخرة.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]

١٦٣

تغيّر رئيسه نحوه فاضطرب وخشي العواقب، وأما الله فلا يخطر ببال الظالم، ولا يأبه إن كان يحبه أو لا.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

١٦٤

هذا دليل على صحة القياس، فالشبه بينهما أنها خُلِقا من غير أب.

معجزة في آدم أقوى من معجزة عيسى عليه السلام، فعيسى قد امتنع عنصر الأبوة فيه، وادم امتنع فيه عنصر الأبوة والأُمومة.

١٦٥

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]

١٦٦

أكّد الله سبحانه أن ما أوحاه إلى نبيه ﷺ هو الحق بثلاثة تأكيدات:

أولها: بالتعريف في كلمة الحق أى ما أخبرناك به هو الحق الثابت الذي لا يخالطه باطل.

ثانيها: بكونه من عنده سبحانه، وكل شيء من عنده فهو صدق لا ريب فيه.

ثالثها: بالنهي عن الشك في ذلك الحق.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ

١٦٧

عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]

روى البخاري عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحب نجران إلى

رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناهما فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فو الله لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، ثم قالا للنبي ﷺ: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين». فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «قم يا أبا عبيدة ابن الجراح». فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة».

١٦٨ في الآية دليل واضح على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا من مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

١٦٩ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]: إشارة إلى ما تقدم من نبأ عيسى، وكونه مخلوقاً من غير أب، فهذا هو الحق لا ما يدعيه النصارى من كونه إلهاً أو ابن الله، ولا ما يدعيه اليهود من كونه ابن زنى. قال البقاعي: «بدأ سبحانه القصة أول السورة بالإخبار بوحدانيته مستدلاً على ذلك بأنه الحي القيوم تصريحاً، ثم ختم ذلك إشارة وتلويحاً بأن عيسى عبد الله ورسوله».

١٧٠ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣]: لأن الله عليم بإفسادهم، فلن يتركهم بغير عقوبة.

١٧١ الداعية الحكيم هو من يؤتیه الله جوامع الكلم، فيؤلف بها قلوب الناس: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكْتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤].

١٧٢ ﴿يَتَاهَلْ أَلِكْتَبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٦٥]: إذا كان الإنسان نابغاً في شيء ما فإن الجميع ينتسبون إليه؛ ويتحول بينهم إلى مصدر عز وفخر.

١٧٣ قال ابن عباس: «اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، قالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَتَاهَلْ أَلِكْتَبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾».

﴿هَتَانُكُم هَؤُلَاءِ خَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]:

قال الحسن: «يُعَذَّر من حاجَّ بعلم، ولا يُعَذَّر من حاجَّ بالجهل».

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]:

الحنيف المستقيم من ألفاظ الأضداد، فمعناها المستقيم والمائل؛ ولذا يسمى مائل القدم بالأحنف على سبيل التفاضل.

﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]:

كان إبراهيم عليه السلام حنيفاً، لا مائلاً عن الحق، ولا زائغاً عن الشرع، ولا معرجاً على شيء من حظوظ النفس، فقد سلّم ماله ونفسه وولده إلى حكم الله.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨]:

الانتساب للمبادئ ليس شعارات وكلمات بل أعمالاً وصفات.

ما يفيدك أن يمتد نسبك إلى آل بيت النبي، وأنت أبعد ما تكون عن نهج النبوة.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩]:

من وقع في ذنب، وتلوث بمعصية، واستهوته غواية، ودَّ لو أن كل الناس حلَّ بهم ما حلَّ به.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ﴾ [آل عمران: ٦٩]:

لا ييأس أهل الباطل من محاولات الإغواء، فكيف ييأس أهل الحق من دعوة الناس للاهتداء؟!

قال القرطبي: «نزلت هذه الآية في معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن

ياسر، حين دعاهم اليهود من بني النضير وبني وقريظة وبني قينقاع إلى اليهودية».

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]:

١٨٢

كفرتكم رغم علمكم اليقيني الذي يصل لدرجة علم المشاهدة والعيان، ورغم معرفتكم أني رسول الله حقًا كما تعرفون أبناءكم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ

١٨٣

تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]:

لدعاة الضلال طريقتان لإغواء الناس:

الأولى: خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر: ﴿لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.

الثانية: إخفاء الحق حتى لا يظهر: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا

١٨٤

وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]:

قال الفخر الرازي:

«والفائدة في إخبار الله تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من وجوه:

الأول: أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم، وما أطلعوا عليها أحدًا من الأجانب، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارًا عن الغيب، فيكون معجزًا.

الثاني: أنه الله تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر في قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت هذه الحيلة في قلب بعض من كان في إيمانه ضعف.

الثالث: أن القوم لما افتضحوا في هذه الحيلة صار ذلك رادعًا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس».

حيلة شيطانية!

١٨٥

قال الشيخ محمد عبده:

«هذا النوع الذي تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام مبني على قاعدة

طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه هذا هرقل، ملك الروم، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي ﷺ أن قال له: «هل يرتد أحد من أتباع محمد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان:

لا، وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه».

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ [آل عمران: ٧٣]:

ما ضاق أمر وراءه رب واسع.

معنى اسم الله (الواسع) عدم وجود حد ولا منتهى لأي صفة من صفاته، فهو واسع العلم، وواسع الرحمة، وواسع العطاء، ووصفه في هذه الآية بأنه واسع مقصود به هنا سعة العطاء، قال ابن عاشور: «وأحسب أن وصف الله بصفة واسع في العربية من مبتكرات القرآن».

﴿تَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤]:

ردُّ على مزاعم اليهود! فضل الله الواسع ورحمته العامة يعطيها بحسب ما يشاء، لا كما يزعم اليهود أنها مقصورة عليهم؛ لأنهم الشعب المختار، فالله لا يجابي أحداً من خلقه، لا فرداً ولا شعباً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ما الفارق بين الرحمة والفضل؟

قال الإمام الرازي: «والرحمة المضافة إلى الله سبحانه أمر أعلى من ذلك الفضل، فإن هذه الرحمة ربما بلغت في الشرف وعلو الرتبة إلى أن لا تكون من جنس ما آتاهم، بل تكون أعلى وأجل من أن تُقاس إلى ما آتاهم».

الأمانة هي الأمانة ولو كانت في دينار واحد: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦٩١

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]:

كان اليهود يستحلون أموال العرب. قال الحافظ ابن كثير:

«إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأُميين، وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا، قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].»

٦٩٢

سأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة.

قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا بذلك بأس.

قال: «هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، إنهم إذا أدوا الجزية، لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.»

٦٩٣

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]:

العهد يشمل عهدين:

العهد بين العبد وربّه، وهو جميع ما أوجبه الله على عباده، والعهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى خير ما يحتاج إليه العبد ليحافظ على عهده مع الله ومع الناس.

٦٩٤

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ [آل عمران: ٧٦]:

الوفاء بالعهود واتّقاء الإخلاف والابتعاد عن المعاصي والخطايا، هو ما يُقَرَّب العبد من ربّه، ويجعله أهلاً لمحبتة وكرامته، لا كونه من شعب كذا وكذا، كما زعم اليهود أنهم شعب الله المختار!

٦٩٥

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]:

قال رسول الله ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة»، فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك». صحيح مسلم رقم: ٢١٨.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧٧]:

دليل على أن الله سيكلم كل مؤمن في الجنة، وهو من أعلى نعيم الجنة، وقد قال البخاري في صحيحه: (باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة).

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ الْأَسْتَنْتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٧]:

إنصاف من الله تعالى للفريق الذي لم يرتكب هذا الفعل الشنيع، وهو تحريف كلام الله.

﴿كُونُوا رَئِيسَيْنِ يَمَّا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]:

لم يشغلهم تعليم الناس عن تعليم أنفسهم.

قدّم تعليم القرآن على تلاوته؛ فمن بذل القرآن لغيره بُورِكَ له في تلاوته.

قال القشيري: «الرَّبَّانِي الَّذِي لَا تَوَثَّرُ فِيهِ تَصَارِيفُ الْأَقْدَارِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، وَيُقَالُ: الرَّبَّانِي الَّذِي لَا تَغْيِرُهُ مَحَنَةٌ وَلَا تَضُرُّهُ نِعْمَةٌ، فَهُوَ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ اخْتِلَافِ الطَّوَارِقِ».

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَّةَ وَالنَّبِيَّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]:

خطاب للعقول، ينهى اليهود عن عبادة عزيز، والنصارى عن عبادة المسيح: أَيْعَقَلُ أَنْ يَرْسُلَ اللَّهُ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ، فَيَأْمُرُ هَذَا النَّبِيَّ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟! وفيه رد على أهل الكتاب الذين قالوا للنبي ﷺ: أَتَتَّخِذُكَ رَبًّا؟ بعدما نهاهم النبي ﷺ عن عبادة عزيز والمسيح.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران: ٨١]:

أخذ الله الميثاق من الأنبياء كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به

ونصروه، فأخذ الله الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ، وأخبر الله أن كل الأنبياء قبلوا بذلك.

﴿قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران: ٨١]:

V.3

إذا كان هذا حكم الأنبياء، كانت أهمهم أولى بذلك وأحرى.

﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢]:

V.4

لا يجوز على الأنبياء التولي والفسق، لكن المقصود أنهم، وذلك كقوله تعالى مخاطباً نبيه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، والشرك في حقه محال.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]:

V.5

قال ابن عباس: «إذا استصعبت دابة أحدكم أو كانت شמושاً، فليقرأ في أذنها هذه الآية: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾».

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]:

V.6

المؤمنون مستسلمون له اختياراً، والكافرون مستسلمون لقضائه وقدره إجباراً. قال مجاهد: «سجود المؤمن طائعاً، وسجود ظل الكافر كرهاً».

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]:

V.7

خاصية انفرد بها المسلمون عن كل من ادعى له ديناً، وهي أننا نؤمن بجميع الرسل، أما اليهود والنصارى فيؤمنون برسولهم، ويكفرون بغيرهم، فيفرقون بين الرسل، ويفرقون كذلك بين الرسل والكتب، فيؤمنون بكتابهم ويكفرون بغيره من الكتب التي أنزلها الله، مع أن رسولهم الذي زعموا أنهم آمنوا به، قد صدق سائر الرسل، وخاصة محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا رسولهم.

V.8

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾

[آل عمران: ٨٥]:

هذا تأسيس لأهل الكتاب من النجاة في الآخرة، وردّ لقولهم: نحن على ملة إبراهيم؛ لذا فنحن ناجون على كل حال.

V.9

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ

وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ٨٦]:

من عرف الحق ثم تركه، وعرف الباطل فأثّره، عاقبه الله بالانتكاس وانقلاب القلب وحرمان الهداية، جزاء وفاقاً.

VI.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩]:

قال مجاهد: جاء الحارث بن سويد، فأسلم مع النبي ﷺ، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه، فأنزل الله عز وجل فيه القرآن: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قال: فحملها إليه رجل من قومه، فقرأها عليه، فقال الحارث: إنك والله ما علمتُ لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله عز وجل لأصدق الثلاثة. قال: فرجع الحارث، فأسلم، فحسن إسلامه.

VII

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠]:

كيف لا تُقبل توبتهم وباب التوبة مفتوح؟!

والجواب ثلاثي:

- كناية عن أنهم لا يتوبون، فيقبل الله توبتهم.
- أو الإخبار بأن الكفر قد رسخ في قلوبهم، فصار سجية لا يتحولون عنها، فإذا أظهروا التوبة كانوا كاذبين.

- أو المراد من ارتدوا عن الإسلام وماتوا على الكفر، فالمراد بالازدياد الاستمرار وعدم الإقلاع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]:

قال النبي ﷺ: «ويؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول له: كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب! شر منزل، فيقول له: أتفتدي منه بطلاع الأرض ذهباً؟ فيقول: أي رب.. نعم، فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر، فلم تفعل، فيردُّ إلى النار» صحيح الجامع رقم: ٧٩٩٦.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]:

قال ابن عباس: البر هو الجنة، أي لن تدخلوا الجنة حتى تبدلوا ما تحب النفس.

قال مجاهد: كان ابن عمر قائماً يصلي، فأتى على هذه الآية: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فأعرق جارية له وهو يصلي قد أراد أن يتزوجها.

جاء سائل إلى الربيع بن خثيم يسأله، فخرج إليه في ليلة باردة، فنزع برنساً له فكساه إياه، ثم تلا هذه الآية: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يتصدق بالسكر، ويقول: سمعت الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ والله يعلم أني أحب السكر.



الجزء الرابع

من سورة آل عمران من الآية ٩٣
إلى سورة النساء الآية ٢٣
عدد الفوائد: ٢٩٤

قال أبو البقاء العكبري:

«فأول مبدوء به من ذلك: تلقف ألفاظه عن
حُفظه، ثم تلقى معانيه مِمَّن يعانيه».

التيان في إعراب القرآن ١-١

الجزء الرابع

من سورة آل عمران من الآية ٩٣
إلى سورة النساء الآية ٢٣

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

VIV

[آل عمران: ٩٣]:

حين يكون التحريم عقوبة! قال الزمخشري: «المطاعم كلها لم تنزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة، وتحريم ما حُرِّم عليهم منها لظلمهم وبغيهم».

كان اليهود يعولون في إنكار نبوة النبي ﷺ على إنكار النسخ، فأبطل الله ذلك بأن أخبرهم أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حُرِّم إسرائيل (يعقوب) على نفسه، فذاك الذي حرَّمه على نفسه كان حلالاً، ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده من بعده، فحصل بذلك النسخ، وبطل قول اليهود: النسخ غير جائز.

VIA

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]:

VII

من أبلغ الحجج، أن تحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا يستطيع إنكاره.

أنكر اليهود أن تكون حرمة ذلك الطعام بسبب أن إسرائيل حرَّمه على نفسه، بل زعموا أنه كان حراماً من لدن آدم عليه السلام، فعندها طالبهم النبي ﷺ بأن يأتوا بالتوراة، فإن التوراة ناطقة بأن بعض أنواع الطعام حُرِّم بسبب أن إسرائيل حرَّمه على نفسه، فخافوا من الفضيحة، وامتنعوا عن إحضار التوراة،

VII

فكان هذا دليلاً على صدق نبوة محمد ﷺ، فقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فمحال أن يعرف هذه المسألة الغامضة من التوراة إلا بوحي من السماء.

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل

عمران: ٩٤]:

من اختلق على الله الكذب بنسبة حكم شرعي إليه بعد وضوح الحجة على غيره، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بالكفر، ولمن أضلّوهم بالإغواء، فتحمّلوا إثمهم وإثم من اتبعهم، وذلك منتهى الظلم، وإن كانت الآية نزلت في اليهود، إلا أنها تهديد لكل من افتري على الله الكذب بعد ما تبين له الحق.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]:

هنا تعريض بكذبهم؛ لأن صدق أحد الخبرين المتضادين يستلزم كذب الآخر.

﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]:

فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ

غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]:

من لم يحج حج الفريضة وهو قادر عليه، فقد كفر بنعمة الله عليه.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]:

في الحديث القدسي: «إن الله تعالى يقول: إن عبداً أصححت له جسمه، ووسّعت عليه في معيشته، تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إليّ لمحرّوم». صحيح الجامع رقم: ٢٢٥٦.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ

غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]:

قال عمر رضي الله عنه: «لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى الأمصار، فينظرون إلى من كان

له مال ولم يحج، فيضربون عليه الجزية، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ

غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾».

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِقَآيَتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾

٧٢٧

[آل عمران: ٩٨]

أمر الله نبيه أن يوبخهم على ما كان منهم، فيناديهم بلقب (أهل الكتاب) للمبالغة في الاستنكار؛ لأن علمهم بالكتاب كان يقتضي إيمانهم بما جاء فيه، فلا يستوي العالم والجاهل.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

٧٢٨

[آل عمران: ٩٩]

كان صدهم عن سبيل الله بإلقاء الشبهات والشكوك في قلوب الضعاف من المسلمين، أو القول بأن محمداً ﷺ ليس موصوفاً في كتابهم، أو التحريش والإيقاع بين المؤمنين كما فعل اليهودي شاس بن قيس بين الأوس والخزرج، حتى رفعوا السلاح في وجوه بعضهم.

﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ﴾ [آل عمران: ٩٩]

٧٢٩

قال الإمام الرازي:

وفيه وجوه؛ الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني أنتم شهداء أن في التوراة أن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام.

الثاني: وأنتم شهداء على ظهور المعجزات على نبوته ﷺ.

الثالث: وأنتم شهداء أنه لا يجوز الصد عن سبيل الله.

الرابع: وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم، ويعولون على شهادتكم في عظام الأمور وهم الأحبار، والمعنى: أن من كان كذلك، فكيف يليق به الإصرار على الباطل والكذب والضلال والاضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تَطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ

٧٣٠

إِيمَٰنِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]

تنبيه على أن أقصى طموحات أهل الكتاب أن يردوا المسلمين عن دينهم.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]:

في الآية دليل أن للصحابة وازعين عن الوقوع في الضلال: سماع القرآن، ووجود النبي ﷺ. قال قتادة: «أما الرسول ﷺ فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]:

قال عبد الله بن مسعود: «﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

قال أنس بن مالك: «لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه».

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ۖ﴾ [آل عمران: ١٠٣]:

كل الحبال التي تشبث بها قد تنقطع، إلا حبل الله المتين!!

﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]:

الأخوة في الله نعمة، فهل أديننا شكرها؟!

يتفاوت الإخوان في خيريتهم، فعلى أي أساس يقع هذا التفاوت؟ يجب ابن حبان قائلاً: «خير الإخوان أشدهم مبالغة في النصيحة»، فاتخذ صاحباً يحصي عليك!

﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]:

سمع أعرابي هذه الآية، فقال: والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يعيدهم فيها. فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه.

﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]:

لا فلاح لأمة ليس فيها مصلحون، ومهما كثر فيها الصالحون.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

حينما عظمنا أمر الله عظم قدرنا، وحين هان علينا أمر الله هُنا عليه.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]:
إن لم تكن معهم داعياً، فلا أقل من أن تستجيب لدعوتهم؛ حتى تُحْشَر في ركابهم.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران: ١٠٥]:
قدّم التفرق على الاختلاف؛ لأن اختلاف (الأقوال) يسبقه (تفرق) القلوب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا...﴾ [آل عمران: ١٠٥]:
جاءت بعد ذكر آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ترك شعيرة الأمر والنهي موجب للفرقة والاختلاف.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]:
كل عمل تعلمه اليوم إما أن يبيّض وجهك يوم القيامة أو يسودّه، فراجع أعمالك لأنها بها لون وجهك ومصيرك غداً.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]:
من ابْيَضَّ قلبه اليوم بسلامته من الذنوب أو بتوبة نصوح، ابْيَضَّ وجهه غداً، ومن كان بالضد فحالته بالعكس.

﴿فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ -وإن استغرق عمره كله في طاعة الله- لا يدخل الجنة إلا برحمة الله.﴾

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]:
ذكره بعد ذكر العذاب ليفيد أن الله لا يُعَذِّب أحداً بغير ذنب، ولا يزيد في عقاب مجرم بلا سبب.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩]:

هو الأول والآخر! ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول، وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ إشارة إلى أنه هو الآخر، وذلك يدل إحاطة علمه وحكمه بأولهم وآخرهم.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]:

للناس وليس للمسلمين، فالمسلم خير للبشرية جمعاء.

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]:

أمة فريدة بين الأمم! أُخْرِجَتْ خَصِيصًا لَهُمْ! كأنها من نسيج آخر غير نسيج الأمم.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]:

مجرد الانتماء لهذه الأمة لا يقدّم أو يؤخّر، ولا يرفع ولا يخفض! فخيرية الأمة معلّقة بشرط: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]:

الناس في هذا العالم في أمسّ الحاجة إليكم.. أكثر بكثير مما تتصورون.

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]:

تسلية للخائفين، فمهما تسلط عليكم الأعداء لن يضرّوكم إلا أذى يسيرًا، ولن تكون لهم العاقبة.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]:

الحبل مستعار للعهد. قال الفراء: «إلا أن يعتصموا بحبل من الله»، فاليهود لا يسلمون من الذل إلا إذا تمسكوا بعهد من الله، أي ذمة الإسلام، أو استنصروا بمن هو أقوى منهم من الناس، وأما هم في أنفسهم فلا نصر لهم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا

Vo1

بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]:

أُصِقَ باليهود ثلاثة أنواع من المكروهات:

أولها: جعل الذلة لازمة لهم.

وثانيها: جعل غضب الله لازماً لهم.

وثالثها: جعل المسكنة لازمة لهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ

Vo0

بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]:

ليس من عقوبة ربانية إلا ولها سبب!

وسبب إلصاق هذه العقوبات بهم هي أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون

الأنبياء بغير حق.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ

Vo1

بِمَا عَصَوْا﴾ [آل عمران: ١١٢]:

قال الإمام الرازي: «ذكر الله أن علة الكفر وقتل الأنبياء هي المعصية، وذلك لأنهم

لما توغلوا في المعاصي والذنوب، فكانت ظلمات المعاصي تتزايد حالا فحالا، ونور

الإيمان يضعف حالا فحالا، ولم يزل كذلك إلى أن بطل نور الإيمان وحصلت

ظلمة الكفر، فقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ إشارة إلى علة العلة.

ولهذا المعنى قال أرباب المعاملات:

من ابتلي بترك الآداب وقع في ترك السنن، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك

الفريضة، ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقر الشريعة، ومن ابتلي بذلك

وقع في الكفر».

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]:

VoV

قال ابن عطية: «قيام الليل لقراءة العلم المبغى به وجه الله داخل في هذه الآية».

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وُسِّرْ عُوتَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤]:

تعريض بمداهنة اليهود في أمر الاحتساب وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناس وصدّهم عن سبيل الله، فإنهم أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٤]:

قال الرازي: «واعلم أن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، وأفضل الأعمال: الصلاة، وأفضل الأذكار: ذكر الله، وأفضل المعارف: معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، فقوله: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة الصادرة عنهم.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم، فكان هذا إشارة إلى كمال حالهم في القوة العملية وفي القوة النظرية، وذلك أكمل أحوال الإنسان».

﴿وُسِّرْ عُوتَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٤]:

أليست العجلة مذمومة، فالعجلة من الشيطان؟

والجواب: ليس هذا في أعمال الخير، لقول النبي ﷺ: «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة». صحيح الجامع رقم: ٣٠٠٩.

قال الإمام القاري: «لأن في تأخير الخيرات آفات، ورؤي أن أكثر صياح أهل النار من تسويق العمل».

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥]:

أبشروا.. لن يخيب على بابه قاصد، ولن يخسر معه تاجر، ولن يستوحش مع القرب منه مصاحب، ولن يذل لغيره مع دعائه طالب.

٧١٢

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦]:

قال القشيري: «لا فداء ينفعهم، ولا غناء يدفعهم، ولا مال يقبل منهم، ولا حجاب يرفع عنهم، ولا مقال يُسمع فيهم، بهم يسعر الجحيم، ولهم الطرد الأليم، والبعد والحميم».

٧١٣

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٦]:
المقصود الكفار، فإنهم فاخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ
أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، أو بنو قريظة وبنو
النضير؛ حيث كان تفاخرهم بالأموال والأولاد.

٧١٤

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]:

الصّر هو البرد الشديد المميت لكل زرع، فشبه سبحانه ما ينفق الكفار
والفجار من أموالهم لكسب الثناء، وما ينفقونه ليصدوا عن سبيل الله، بالزرع
الذي يرجو صاحبه نفعه، فأصابته ريح شديدة البرد، فأهلكته.

٧١٥

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ﴾
[آل عمران: ١١٧]:

المزارع والاستثمارات تتأثر بالمظالم والسيئات.

٧١٦

سؤال: لكننا نرى رجلاً مؤمناً لم يظلم وتصيب زراعته كوارث! والجواب:
هذا يصبر على مصيبتيه؛ فيأخذ ثواب الصبر من الله، ويجعل الله المصيبة كفارة
لما سلف من ذنوبه، أو تطهيرا لماله مما قد يكون دخله من حرام.

٧١٧

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾
[آل عمران: ١١٨]:

إياك أن تطلب الاستشارة أو النصيح إلا من مؤمن.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]:

الألسنة مغارف الصدور.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]:

قال ابن حيان: «فيه ذِكرُ الأفواهِ دون الألسنة؛ إشعارًا بأنَّ ما تَلَفَّظُوا به يملأُ أفواههم، كما يُقال: كلمة تملأُ الفمَ إذا تَشَدَّقَ به، وقيل: المعنى لا يَتِمَّ الكونُ مع ضبطهم أنفسهم وتحمُّلهم عليها أنْ ينفِلَتَ من أَلْسِنَتِهِمْ ما يُعَلِّمُ به بُغْضُهُمْ للمسلمين».

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]:

أخفوا بغضهم، ففضحهم الله بفلتات ألسنتهم.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]:

لم ذِكرُ الأفواهِ دون الألسنة؟! والجواب: إشعارًا بأنَّ ما تَلَفَّظُوا به من كلمات الكراهية تملأُ أفواههم، فلا يطيقون حبسها أو إمساكها.

﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا تُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]:

كان المؤمنون يحبون المنافقين بناءً على ظاهر حالهم، فالؤمن يحكم على الظاهر ولا ينبش أو يفتش في البواطن.

﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]:

لماذا ذِكرُ المسِّ مع الحسنة، والإصابة مع السيئة؟!

والجواب: لإفادة أنَّ المنافقين يسوؤهم وقوع أدنى مراتب إصابة الحسنة للمؤمنين، وأن فرحتهم لتمام إصابة السيئة أي المصيبة؛ لأنَّ الشَّيء المصيب لشيء هو مُتَمَكِّنٌ منه، فدَلَّت الآية على شِدَّةِ العداوة للمؤمنين بأبلغ تعبير.

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]:

الوقاية من كيد عدوك سبيلها الأوحاد: التقوى والصبر.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

٧٧٥

[آل عمران: ١٢١]:

تبرئة عائشة رضي الله عنها! غدا النبي صلى الله عليه وسلم من منزل عائشة رضي الله عنها، فمشى على رجليه إلى أحد، وهذا قول مجاهد والواقدي، فدل هذا النص على أن عائشة كانت أهلاً للنبي صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ﴾ [النور: ٢٦].

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

٧٧٦

عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١]: مدح الله لنبيه!

قال السعدي: «وفيها أعظم مدح للنبي صلى الله عليه وسلم حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه».

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢١]:

٧٧٧

لم يُعيِّن الطائفتين، ولم يصِرَّح بَمَن هما من القبائل؛ سترًا عليهما، وهكذا يجب أن يكون المسلم مع أصحاب الزلات.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

٧٧٨

الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١]:

في البخاري عن جابر قال: «فيها نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾، قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل، لقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾».

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

٧٧٩

الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١]:

هذا همٌّ من الطائفتين بالرجوع كان بعد رجوع عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الجيش، فحفظ الله قلوبهم عن تحقيق هذا الهم فلم يرجعوا، وكان هذا حديث نفس منهم، فلما أطلع الله نبيه عليه السلام عليه ازدادوا إيماناً وبصيرة.

سورة آل عمران يد حانية ومفتاح سكينه غامرة لمن طال طلبه للرزق حتى
يُسَّس ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ.. أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِحَيٍّ﴾، ولطالبي النصر والفرج:
﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ
الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]:

وكأنهم كانوا يستبعدون النصر لضعفهم وقتلهم وقوة العدو وكثرتهم، فلما
استغاثوا بالله، أمدَّهم بألف، ثم أمدَّهم كرماً منه بثلاثة آلاف، فلما صبروا
واتقوا أمدَّهم بتمام الخمسة آلاف، والتدرّج في الإمداد، أحسن وقعاً على
القلوب، وأبعث على السرور لهم من لو أتى مرة واحدة.

﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ
آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]:
مدد الرب على قدر صبر العبد.

الصبر وحده لا يكفي لاستجلاب المدد الرباني، بل لا بد معه من تقوى؛ لأن
العدو قد يملك ميزة الصبر أيضاً؛ فإذا تساوى الصبران، كانت الغلبة للأتقى.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]:
اختصار الطريق إلى النصر يكون بطلبه من الله وحده، وإلا دخلنا في المتاهة.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]:
نصرهم الله يوم بدر بخمسة آلاف من الملائكة، وحتى لا تتعلق القلوب
بالأسباب وتغفل عن رب الأسباب، فقد ذكَّروهم بهذه الحقيقة: ﴿وَمَا النَّصْرُ
إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُنَّمْ فَيَنْقَلِبُوا خَاسِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]:
الكبت هو الإخزاء والإهلاك واللعن والهزيمة والغيط والإذلال، والخيبة هي
الحرمان، والفارق بين الخيبة واليأس أن الخيبة لا تكون إلا بعد الأمل، وأما
اليأس فإنه قد يكون قبل الأمل، فالخيبة أشد وقعاً على النفس.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]:

مكان النصر وزمانه ليس لك وإن كنت نبياً!

قال السعدي: «إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء».

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩]:

تأكيد لقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فالمعنى أن الأمر إنما يكون لمن له ملك السموات والأرض، وليس إلا الله تعالى له ملك السماوات والأرض؛ لذا فالأمر كله له.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي كُنتُمْ تَكْسِبُْنَ عَلَيْهَا تَحَصَّلْتُمْ بِمُسَاهَدَةٍ غَمَصْتُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ﴾ [آل عمران: ١٣٠]:

المؤمن الحق لا ينتظر شواهد من الواقع حتى يمثل لأمر الله، بل يبادر بتنفيذ الأمر مباشرة.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]:
دليل على أن المؤمن لا يعذب بالنار، وإن عذب بها فلمدة، ولا يخلد فيها، فالنار معدة لإقامة الكافرين، وللعرض بالنسبة للعاصين.

توجهه غير مباشر للمسلمين بالخطر من متابعة الكافرين وتعاطي أفعالهم والتشبه بهم.
تعريض واضح بوعيد آكلي الربا! خَوْفُ آكِلِي الرَّبَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ، ردعاً لهم عن أكل الحرام، وحثاً على التوبة، فتخويف الله لعباده بالنار من علامات رحمته.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]:

قال أبو حنيفة: «هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه».

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]:

٧٩٥

أتبع الوعيد بالوعد ترغيباً في الطاعة، ومزجاً للخوف بنسائم الرجاء، حتى لا تتقطع القلوب تحت وقع سياط الخوف.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]:

٧٩٦

أمرنا بالمسارعة إلى المغفرة؛ لأن بابها يُغلق بموت الجسد الذي يأتي فجأة، وموت القلب هو الذي يمنع من التوبة.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾

٧٩٧

[آل عمران: ١٣٣]:

هل رأيت كريماً يأمر من يغدق عليه بالإسراع لنيل ما لديه؟! ما أكرم الله رب العالمين!

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]:

٧٩٨

قال رسول الله ﷺ: «التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ» صحيح الجامع رقم: ٣٠٠٩.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]:

٧٩٩

المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة الوقوع في الحرام فسامهم الله (متقين).

دليل على أن الجنة قد فرغ الله من خلقها، وهي موجودة الآن.

٨٠٠

﴿.....لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٣٣]:

٨٠١

جعل الله أول صفات المتقين أنهم ينفقون؛ لأن الإنفاق دليل يقين بالآخرة وصدق إيمان بالجزاء.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]:

٨٠٢

ليسوا جهادات لا تشعر ولا تحس، بل لحم ودم يشعر بنار الغيظ والألم، لكنه يحبسه.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]:

قال الحسن بن علي: «لو أن رجلاً شتمني في أذني هذه واعتذر في أذني الأخرى لقبِلْتُ عُذْرَهُ».

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]:

ليست الغرابة مع الذنوب في السقوط، لكن الغرابة ألا تحاول النهوض.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]:
جاء هذا في وصف المتقين. قال ابن رجب: «فدلّ على أن المتقين قد يقع منهم أحياناً كبائر وهي الفواحش، وصغائر وهي ظلم النفس، لكنهم لا يصرون عليها».

قال ابن مسعود: «هذه الآية خيرٌ لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها».

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]:

قال الزمخشري:

«في هذه الجملة وصف لذاته تعالى بسعة الرحمة، وقرب المغفرة.

وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له.

وأنه لا مفرع للمذنبين إلا فضله وكرمه.

وأن عدله يوجب المغفرة للتائب؛ لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل

بأقصى ما يقدر عليه، وجب العفو والتجاوز.

وفيه تطيب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها.

وردع عن اليأس والقنوط.

وأن الذنوب وإن جلّت فإن عفوه أجل، وكرمه أعظم».

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]:

أخطر من الوقوع في الحرام، أن تُحرم الإحساس بمرارة الآثام!

قال ثابت البناني:

٨٠٩

بلغني أن إبليس لما نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] بكى.

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]:

٨١٠

مهما عفا عنك البشر سيظلون يحتفظون في قلوبهم نحوك بشيء، الله وحده هو من يعفو زلاتك ويمحو عثراتك.

﴿خُلَايِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: ١٣٦]:

٨١١

اعمل من الطاعات بقدر بقائك في الجنة، وما أكرم من يكافئ على العمل المحدود بثواب يتجاوز العقول وكل الحدود.

القرآن مليء بما يبعث على التفاؤل: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ ﴿وَلَا تَأْيَسُوا﴾ ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فتفاءلوا يا أهل القرآن.

٨١٢

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]:

٨١٣

هذه الآية دالة على وجوب السير في الأرض للتفكير، والسير يكون إما حسيًا بالأقدام، أو معنويًا بالنظر في كتب التاريخ إن عجز الإنسان عن السير في نواحي الأرض.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]:

٨١٤

قال الطاهر بن عاشور:

«بيان لما غفلوا عنه من عدم التلازم بين النصر وحسن العاقبة، ولا بين الهزيمة وسوء العاقبة.

وهي هدى لهم ليتزعموا المسببات من أسبابها، فإن سبب النجاح حقًا هو الصلاح والاستقامة.

وهي موعظة لهم ليحذروا الفساد ولا يغتروا كما اغترت عاد إذ قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]:

لو قالها لك أحد أحبائك لخفف أحزانك! اسمعها من الله يواسيك ويخفف مآسك.

﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]:

للعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]:

قال الآلوسي: «فلا تهنوا ولا تحزنوا، فالإيمان يوجب قوة القلب، ومزيد الثقة بالله، وعدم المبالاة بأعدائه».

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]:

لا تشمت يوماً بغيرك؛ فالأيام دوارة.

يا صاحب الكرب:

سنة الله قضت أن يومك الجميل قادم في الطريق.

الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما كتعاقب الليل والنهار والحر والبرد، سنة من سنن الله في الكون.

﴿وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]:

الشهادة ليست صدفة أو خبط عشواء، إنما هي اتخاذ من الله واصطفاء.

يمشي الشهداء اليوم بيننا ولا نشعر بهم، لكن عين الله ترعاهم وتحرسهم، فإذا اقترب موعد اللقاء، شرّفهم الله بالموت في سبيله.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤١]:

أي يختبرهم حتى يُخلصهم بالبلاء من العيوب والأمراض والعلل، كالذهب الخالص يتخلص من الشوائب بالنار، فيصير نقياً لا خبث فيه.

﴿أَمْرٌ حَسْبُكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

٨٢٤

الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]:

كلما عظم المطلوب صعبت وسيلته، وأعظم مطلوب باتنا الجنة.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ

٨٢٥

تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]:

إذا انسكبت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله

٨٢٦

العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

صحيح الجامع رقم: ٢٧٥٠.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْفَكُونَ أَنْفَكْتُمْ

٨٢٧

عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]:

تعلقوا بالمبادئ دائماً، فأرقى البشر درجة هم الذين يتعلقون بالأفكار.

﴿أَفَلَا يَنْفَكُونَ أَنْفَكْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]:

٨٢٨

لما أشيع موت النبي ﷺ قال المنافقون: لو كان نبياً ما قتل، فارجعوا إلى دينكم

القديم وإخوانكم من أهل مكة، ونكلتم عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي

سفیان، فهمموا بترك القتال والانضمام للمشركين، وثبت فريق من المسلمين،

منهم: أنس بن النضر وغيره.

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]:

٨٢٩

عبر هنا بالشاكرين ولم يعبر بالصابرين مع أن الصبر في هذا الموطن أظهر؟!

والجواب: لأن الشكر في هذا المقام هو أسمى درجات الصبر، فإن الصحابة

ساندوا النبي ﷺ في أشد الأوقات حرجاً، فلم يكتفوا فقط بالصبر على

البلاء، بل تجاوزوا حدود الصبر إلى الشكر بالتضحية والبذل دفاعاً عن

رسول الله ﷺ، فالشكر هنا صبر وزيادة.

٨٣٠

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]:
إعلامٌ بأن الموت لا بد منه، وأن كل إنسان مقتول أو ميت إذا بلغ أجله،
ومعنى: ﴿مُؤَجَّلًا﴾ أي إلى أجل.

٨٣١

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]:
لم يذكر جزاءهم ليدل على عظمتهم، وأنه يشمل الدارين. قال ابن فورك: «وفيه
إشارة إلى أن الله يُنعمهم بنعيم الدنيا، ولا يُقصرهم على نعيم الآخرة».

٨٣٢

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]:
قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، بضم القاف من (قُتِلَ)، النبي
قُتِلَ والريون قُتِلُوا فها وهنوا.

٨٣٣

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]:
افترض أنك لم تر عاقبة الصبر في الدنيا، ألا تكفيك محبة الله؟!
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

٨٣٤

الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]:
الذنوب تؤخر النصر؛ لذا شرع الاستغفار قبل الدعاء بالنصر.

٨٣٥

كان أتباع الرسل إذا لقوا عدوهم خافوا عاقبة تقصيرهم وتأثير ذنوبهم،
فقالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧].

٨٣٦

﴿فَعَاتَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]:
ثواب الدنيا تعثره الأكدار؛ لذا لم يصفه بالحسن، بعكس نعيم الجنة الذي لا
كدر معه، فهو الحُسْن كله.

٨٣٧

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]:
قال الرازي: «فيه دقيقة لطيفة، وهي أن هؤلاء لما اعترفوا بكونهم مسيئين
حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، ساءهم الله محسنين،
كأن الله تعالى يقول لهم: إذا اعترفت بإساءتك وعجزك، فأنا أصفك

بالإحسان، وأجعلك حبيباً لنفسي حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز».

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

٨٣٨

فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩]:

والتعبير بقوله: ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ يفيد أن طاعة الكافرين تؤدي إلى انقلاب حال المؤمنين وانتكاس أمرهم، وفي ذلك تنفير عن إطاعة الكافرين والاستماع إلى كلامهم.

قال الحسن: «إن تستنصحووا اليهود والنصارى وتقبلوا منهم؛ لأنهم كانوا يستغفرونهم ويوقعون لهم الشُّبُه في الدين».

٨٣٩

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٠]:

٨٤٠

الفرج عنده، والنصر عنده، والأمن عنده، والسعادة عنده، والخير كله عنده، فهنيئاً لك إن تولاك!

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١]:

٨٤١

قال ابن تيمية: «تخويف الكفار والمنافقين وإرعابهم هو سلاح رباني وفضل إلهي لا دخل للمؤمنين فيه».

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]:

٨٤٢

ليست من الإحساس كما يتبادر بل من الحس وهو القتل، أي إذ تقتلونهم بإذنه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]:

٨٤٣

الذنوب تؤخر النصر، هُزم الصحابة في أحد بسبب معصية قلة منهم (٤٠ رجلاً من أصل ٧٠٠ هم عدد جيش المسلمين).

﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢]:

٨٤٤

لو عذر الله أحداً بالغفلة عن نيته، لعذر الصحابة يوم أحد وجراحهم تنزف، فلا تغفل عن حراسة قلبك وتعاهد نيتك مهما حدث.

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢]:

نزلت في أصحاب النبي ﷺ وهم في أرض الجهاد، وتحت وقع السيوف، فما يُقال فينا اليوم ونحن ننافس على حطام الدنيا الفانية؟!

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣]:

ليس معنى ﴿تُصْعِدُونَ﴾ أي ترقون من الصعود؛ بل من الإصعاد وهو الركض على الأرض (الصعيد).

﴿فَأَنْتَبِكُمْ غَمًّا بَغْماً لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٥٣]:

تخلص من همومك الصغيرة بتبني الهموم السامية الكبيرة.

﴿فَأَنْتَبِكُمْ غَمًّا بَغْماً﴾ [آل عمران: ١٥٣]:

فأثابكم! هل تخيلت يوماً أن الهم قد يكون ثواباً؟ يوم القيامة ستكتشف أن بعض أحزانك قد حمتك من النار وأدخلتك الجنة.

﴿فَأَنْتَبِكُمْ غَمًّا بَغْماً لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٥٣]:

إذا تتابعت عليك الآلام، فاعلم أنك على موعد مع رحيل الأحزان!

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ (الْغَمِّ) أَمْنَةً﴾ [آل عمران: ١٥٤]:

الأمن والأمان منبعضهما القلب، والقلب لا سلطان لأحد عليه إلا الله؛ ولذا كان الأمن والأمان من الله وحده.

﴿وَطَافِيَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]:

إما أن نحمل هم غيرنا بالإيثار أو ستمحور حول ذواتنا بالأنانية والاثرة.

﴿إِذَا خَشِيتِ سَطْوَةَ جَبَارٍ أَوْ ظَلَمَ ظَالِمٌ أَوْ أَمْرًا تَخْشَىٰ عَاقِبَتَهُ، فَاقْرَأْ: ﴿قُلْ إِنَّ

الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ثم نم قرير العين!

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]:

سَلِ الذي بيده كل شيء أن يعطيك أي شيء!

﴿قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ لِيَلَهُ﴾ [آل عمران: ١٥٤]:

٨٥٤

تأكيد رباني جازم ينزع عنك أوهامًا ثلاثة: تعلق القلب بغيره والتوكل على عدتك وعددك، والشك في وعده، وسوء الظن بربك.

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾

٨٥٥

[آل عمران: ١٥٤]:

قال الحجاج لأم سجين: سأقتل ابنك، فقالت: لو لم تقتله مات!

﴿وَلِيَتَنَبَّأَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]:

٨٥٦

أنزل الله الابتلاء لعباده ليختبر الله ما في صدورهم من حسن الظن به أو سوء الظن.

قال الزجاج: «أي ليختبر الله تعالى ما في صدوركم بأعمالكم، فإنه قد علمه غيبًا، ويريد أن يعلمه شهادة لتقع المجازاة عليه».

٨٥٧

ختم الله بهذه الجملة الآية حتى لا يظن ظان أن الابتلاء يضيف لله سبحانه علمًا جديدًا، ويُعلمه ما لم يكن يعلم، حاشاه سبحانه!

٨٥٨

﴿إِنَّمَا أَسْتَرْلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]:

٨٥٩

بعض ذنوبك أو نياتك السيئة؛ قد تكون سببًا في تسلط الشيطان عليك وصرfk عن الحق!

﴿إِنَّمَا أَسْتَرْلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]:

٨٦٠

قيل لأبي سليمان الداراني: ما بال العقلاء أزالوا اللوم عن أساءهم؟! فقال: إنهم علموا أن الله ابتلاهم بذنوبهم ثم قرأ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا تَوَأَوْا﴾ [آل عمران: ١٥٦]:

٨٦١

(لو) حرف يفتح باب الحسرة على ما فات، والتردد في ما هو آتٍ، لا تقل أبدًا: لو!

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧]:

قال الإمام القشيري: «بذل الروح في الله خير من الحياة بغير الله».

﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]:
إذا كان إلى الله المصير، طاب والله المسير.

قدّم القتل على الموت في الآية السابقة لأنه أكثر ثواباً، فترتب المغفرة والرحمة عليه أقوى، وعكس ذلك في هذه الآية: ﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ﴾ لأن الموت أكثر من القتل، وكلاهما يقودان إلى الحشر.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]:

النفوس تنفر من الغليظ القاسي مهما بلغ من العلم والحكمة والخبرة.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]:
كل من (انفَضَّ) الناس من حوله، فعليه أن يراجع (فظاظته).

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]:

قرن بين فظاظه القول وغلظة القلب، فتعرّف على طبيعة قلبك عن طريق مراقبة لفظك.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]:

لو جمعت علوم أهل الأرض وذكاءهم، فلن تدخل القلوب إلا بطرق أبوابها بالكلمة الطيبة والمعاملة الهينة.

قلت في محمد ﷺ وهو المؤيد بالوحي وصاحب النبوة، فكيف بمن دونه؟!

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]:

تعجّب ممن استبد برأيه ولم يشاور أحداً، وقد شاور خير الخلق وصفوة رسل الله أصحابه.

الشورى توجيه رباني ومنهج محمدي.

ما أبعداها عن قول: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾، وهو أسلوب فرعوني ومنهج استبدادي! لا تتفرعن ولا تستبد!

المشورة تلقيح الرأي بآراء أخرى كما قال الشاعر:
شاوِر سواك إذا نابتك نائبة يومًا وإن كنت من أهل المشورات

سين: لم تحتاج المشورة ولو كنت من أهل الرأي والمشورة؟!
جيم:

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ولا ترى نفسها إلا بمراة

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]:

متى عزمتم وصمتم فتوكل على الله، وامض نحو هدفك بلا تردد، وثق أن الله لن يخذلك.

قال القشيري: «وحقيقة التوكل: شهود التقدير، واستراحة القلوب عن كد التدبير».

﴿وَإِنْ تَخَذَلْتُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]:

الخذلان: أن يكلك الله إلى نفسك، والتوفيق ضده: أن لا يدعه ونفسك، ولا يكلك إليها.

في الحديث: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت». صحيح الجامع رقم: ٣٣٨٨.

قال ابن القيم: «فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس، فإن تولاه الله لم يظفر به عدوه، وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان، كما يفترس الذئب الشاة».

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]:

روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كان على ثقل رسول الله ﷺ رجل يقال له (كركرة) فمات، فقال رسول الله ﷺ: هو في النار، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عبادة قد غلّها.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]:

إشارة إليه كلما كان العبد أشرف وأعظم درجة كانت الخيانة في حقه أفحش، ورسول الله ﷺ أفضل البشر، فكانت الخيانة في حقه مستبعدة؛ ولذا جاءت الآية بصيغة الجحود التي تفيد المبالغة في النفي.

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢]:

الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أى لا يستوي من اتبع رضوان الله مع من باء بسخطه، وهو أمر بدهي لا يختلف عليه اثنان ولا تتعدد فيه الآراء والأفهام، وإذا كان الأمر كذلك، فما لكم تتعرضون لسخط الله بسيئاتكم مع معرفتكم بحسن ثواب من اتبع رضوانه؟!

﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]:

كلما كسلت عن الطاعات وضعفت عن المسارعة في الخيرات، فتذكر قوله: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، فدرجتك يوم الجزاء غداً بحسب نصيبك من الاجتهاد اليوم.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]:

درس عظيم: تصبير المحزون وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النعم منهج قرآني ودواء سماوي نغفل كثيراً عنه.

﴿أَوَلَمْآ أَصْابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]:

لا تلومن إلا نفسك، وفتش عن تقصيرك قبل أن تتهم غيرك.. هذه وصية القرآن.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]:

لم يكن على وجه الأرض أحب إلى الله من الصحابة، ومع هذا خاطبهم بهذا الخطاب؛ لأن من يحبك يضعك أمام مسؤولياتك دون مواربة، ولا يحاييك على حساب الحق.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]:

لو لم يأذن الله بالمصيبة لما وقعت، ولو أراد منعها لمُنعت، فوقعها بإذنه وحكمة.

﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧]:

من حكمة الله في نزول البلاء أن يتبين بذلك المؤمن من المنافق، والله يعلم ذلك لكن الناس لا يعلمون؛ لذا تأتي المحن كاشفة.

﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]:

الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أخرى أقرب إلى الإيمان، فسلوا الله الثبات.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [قُلْ فَأَدْرَأُوا عَنْ

أَنْفُسِكُمْ أَلَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]:

إذا حان الأجل كان الموت بأهون سبب، بل وبلا أي سبب.

﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]:

قدّم (الرب) على (الرزق) لأن جوار الرب أعظم رزق.

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ تكفيهم والله هذه العندية! وأن ينظروا إلى الله سبحانه وهم في

جواره!

﴿فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَتَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ

خَلْفِهِمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠]:

من علم أن أحبابه ينتظرونه في جنات النعيم، لا يهناً له عيش حتى اللحاق بهم والنزول عليهم غداً.

٨٩٤

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠]:

المعنى لم يلحقوا بالشهداء في الفضل، وإن كان لهم فضل. قال السُّدِّي: «يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر من يقدم عليه من إخوانه؛ فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدومه في الدنيا».

٨٩٥

قال الطاهر بن عاشور: «والاستبشار: حصول البشارة، وقد جمع الله لهم (لشهداء) بين المسرة بأنفسهم والمسرة بمن بقي من إخوانهم، لأن في بقائهم نكاية لأعدائهم؛ وهم مع حصول فضل الشهادة لهم على أيدي الأعداء يتمنون هلاك أعدائهم، لأن في هلاكهم تحقيق أمنية أخرى لهم وهي أمنية نصر الدين».

٨٩٦

قال بعض العارفين: الموت سهم أُرسل إليك، وعمرك بقدر مدة سفره إليك.

٨٩٧

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٧١]:

الاستبشار هنا ليس تكراراً، بل إشارة إلى سبب آخر للاستبشار، وهو رؤية ثواب أعمالهم وروعة جزائهم، وهو النصر من جراء جهادهم في الدنيا، والجنة في الآخرة.

٨٩٨

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرُّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]:

أصدق الحب في استمرار البذل رغم ألم الجراح.

٨٩٩

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ

إِيمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]:

المؤمن شديد التفاؤل، وعلامة ذلك أن نفس أدلة المتشائمين هي أقوى باعث على تفاؤله!

٩٠٠

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]:

كان معاوية رضي الله عنه يقول: «إني لأستحي أن أظلم من لا يجد علي ناصرًا إلا الله».

٩٠١

قد تنزل البلاءات بالمؤمن حتى لا يبقى في قلبه ما يتعلق به إلا (الله).

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]:

٩.٢

لم يحصل لهم الخوف الشديد من اجتماع عدوهم، بل على العكس: ﴿فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]:

٩.٣

تتعلق القلوب عند الشدة بالخلق؛ لذا شرع الله لنا أن نقول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ عند كل شدة؛ حتى يصرف العبد همّه عمن لا ينفعه ولا يضره إلى من بيده النفع والضرر.

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]:

٩.٤

دعاء قاله المسلمون يوم الجراح والآلام في أحد: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، فالأحرى بكل من عانى نفس المعاناة أن يقلدّهم ويقتفي الأثر.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]:

٩.٥

أصوات الخوف شيطانية كاذبة، فكيف تصغي إليها، وربك يطمئنك: لَا تَخَفْ.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]:

٩.٦

في الحديث النبوي: «لا يمتنع أحد مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه أو عرفه». صحيح ابن حبان رقم: ٢٧٨.

﴿وَلَا تَحْزَنْكَ﴾ وَلَا تَحْزَنُ﴾ وَلَا تَحْزَنُوا﴾:

٩.٧

الحزن يوهن القوى ويضعف الهمم؛ ولذا تكرر النهي عنه في القرآن، فنغذ الأمر، وقاوم الحزن، وتفاءل!

﴿وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]:

٩.٨

قال الرازي:

«ووجه الحاجة إلى هذا النهي: هو أن نفس الرسول، وإن بلغت مرتقى

الكمال، لا تعدو أن تعترها في بعض أوقات الشدة أحوال النفوس البشرية: من تأثير مظاهر الأسباب، وتوقع حصول المسببات العادية عندها، كما وقع للرسول ﷺ يوم بدر وهو في العريش، وإذا انتفى إضرارهم الله انتفى إضرارهم المؤمنين في ما وعدهم الله».

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٧]:

تصوير أن البعض يدفع ثمنًا يشتري به عذابه غدًا، والشراء هو بذل المال والجهد مع فرحة الشاري بما اشترى.. سفاهة عقول البعض عجيبة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرًا لَّأَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨]: قال القشيري:

«من تمام المكر بهم والمبالغة في عقوبتهم أنا نعدّهم وهم لا يشعرون! ونستدرجهم من حيث لا يعلمون، نُملي لهم فيظنون ذلك إنعامًا، ولا يحسبونه انتقامًا! وقد اتضح لكل ذي بصيرة أن ما يكون سبب العصيان وموجب النسيان غير معدود من جملة الإنعام».

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]:

قال ابن كثير: «لا بد أن يعقد سببًا من المحنة يُظهر فيه وليّه، ويفتضح فيه عدوّه، يُعرّف به المؤمن الصّابر، والمنافق الفاجر».

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]:

قال القشيري: «من أثر شيئًا على الله لم يبارك له فيه، فلا يدوم له -في الدنيا- بذلك استمتاع، ولا للعقوبة عليه -في الآخرة- عنه دفاع».

قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالا، فلم يؤدّ زكاته مثّل له ماله شجاعا أقرع له زبيتان، يُطوّفه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - يقول: أنا مالك أنا كنزك»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. صحيح البخاري رقم: ١٤٠٣.

﴿يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]: إشعار بسوء صنيعهم، وخبث نفوسهم، حيث بخلوا بشيء ليس وليد علمهم واجتهادهم، وإنما منحه الله لهم تفضلا، فبدلاً من أن يشكروه على العطاء بالبذل والإنفاق، بخلوا بما أعطاهم.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]: قال الحسن ومجاهد في سبب نزولها: «لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قالت اليهود: إن الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء»، وذكر الحسن أن القائل هو حيي بن أخطب.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]: قال ابن عباس:

لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَعْفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قالت اليهود: يا محمد!! افتقر ربك فسأل عباده القرض، فأنزل الله هذه الآية.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١]:

ذنوب القلوب مهلكة! أضاف الله القتل إلى اليهود الذين عاصروا العهد النبوي، مع أن القتل حدث من أسلافهم؛ لأنهم كانوا راضين بفعلهم ولم ينكروه، ومن رضي بجريمة غيره فكأنها فعلها.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]:

ظلام صيغة مبالغة تفيد الكثير من الظلم، لكنها لا تنفي الظلم القليل، فلو قيل: ظالم، ألم يكن أدل على نفي أي ظلم؟! والجواب:

الأول: عبّر بالمبالغة عن الكثرة، باعتبار تعلق الظلم المنفي بعبيد كثيرين، كما يقال: فلان ظالم لعبده، وظلام لعبيده.
الثاني: إذا نفى الظلم الكثير انتفى الظلم القليل بالضرورة؛ لأن الذي يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه، كان للظلم قليل المنفعة أترك.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا لَنُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣]:

طلب أسلافهم هذه المعجزة من أنبيائهم المتقدمين مثل زكريا ويحيى وعيسى، فلما أظهروا لهم ما طلبوه سعوا في قتلهم، ومتأخرو اليهود راضون بما فعل أسلافهم، وهذا يقتضي كونهم متعتين في مطالبهم؛ ولذا لم يجبههم الله إليها.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]:

تسليّة للرسول ﷺ وتخفيف عنه، فكل من سبقك من الرسل حدث معه مثل ما حدث معك، فلست بدعا من الرسل، وأتباعك ليسوا بدعا من ورثة الأنبياء.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَٰئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]:

الموت ليس نهاية الرحلة بل بدايتها، إما نعيم وإما جحيم، فحدّد وجهتك من الآن!

﴿وَإِنَّمَا تُوفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]: أجر المؤمن: الثواب، وأجر الكافر: العقاب، ولفظ التوفية ﴿تُوفَّوْنَ﴾ يشعر أن قبلها في

الدنيا أو البرزخ بعض الأجور، لكن توفية الأجور وتكملها لا يكون إلا يوم القيامة.

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]:

الزحزحة تكون بعمل يسير، فُرِّبَ عمل صغير زحزحك عن النار، فإياك واستصغار أي عمل صالح!

قال صاحب الظلال: «كأنَّما للنَّارِ جاذبيَّةٌ تشدُّ إليها من يَقتَرِبُ منها، ويدخلُ في مجالها! فهو في حاجة إلى مَنْ يُزَحِّزُه قليلاً قليلاً؛ لِيُخَلِّصَه مِنْ جاذبيَّتها المنهومة! فمن أمكن أن يُزَحِّزَ عن مجالها، ويُستَنقَذَ منها، ويدخلَ الجنَّةَ - فقد فاز».

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]:

بين الجنة والنار مقدار (زحزحة)، فما أفقرك غداً إلى حسنة واحدة تزعزحك عن النار هذه الزحزحة!

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ تعريف جديد ووحيد للفوز.

والله لو لم يكن إلا النجاة من أهوال النار لكان فوزاً عظيماً، فكيف لو أضيف إليه دخول الجنة، فوز من وراء فوز.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ [آل عمران: ١٨٦]:

من البلاء: سماع هجاء الأعداء.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]:

تنبيه على أن من توهن عزمه الهزيمة، فليس جديراً بنصرة الحق، فلاختبار محتوم، والهدف منه معلوم، وهو أن يظهر الثابت بحق على الحق، فإن الابتلاء محك صلاحية الرجال.

٩٣٠

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]:

قال الإمام الرازي: «المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة بالإساءة تفضي إلى ازدياد الإساءة، فأمر بالصبر قليلاً لمضار الدنيا، وأمر بالتقوى قليلاً لمضار الآخرة، فكانت الآية على هذا التأويل جامعة لآداب الدنيا والآخرة».

٩٣١

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٦]:

اسم الإشارة: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر والتقوى، وما فيه من معنى البعد؛ للإشارة إلى علو درجتها وارتفاع منزلتها، وأنه لا ينالها أي أحد.

٩٣٢

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]:

قال محمد بن كعب: «لا يحل لعالم أن يسكت على علمه، ولا للجاهل أن يسكت على جهله».

٩٣٣

قال العلامة الزمخشري: «كفى بهذه الآية دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبَيِّنُوا الحق للناس وما علموه، وأن لا يكتُموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطبيب لنفوسهم، واستجلاب لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام الدنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمانة، أو لبخل بالعلم».

٩٣٤

قال أبو هريرة: «لولا ما أخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ما حدثكم بشيء، ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾».

٩٣٥

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ تُمِدُّوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]:

سبب نزولها: روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ

اعْتَدَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

قال السعدي: «بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله، والفرح بذلك».

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]:

عن ثابت بن الضحَّاك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةٍ؛ لِيَتَكَبَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا قَلَّةً». صحيح مسلم رقم: ١١٠. قال القاضي عياض: «هو عام في كل دعوى يتشبع بها المرء بما لم يعط، من مال يختال في التجميل به من غيره، أو نسب ينتمي إليه، أو علم يتحلى به وليس هو من حملته، أو دين يظهره وليس هو من أهله، فقد أعلم ﷺ أنه غير مبارك له في دعواه، ولا زالك ما اكتسبه».

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]: يملك كل شيء، ويقدر على أي شيء، فكيف يتعلق القلب بغيره؟!

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]:

بكى عليه الصلاة والسلام حتى بلَّ لحيته وقال: «لقد أنزلت علي الليلة آيات.. ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»!

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ.. وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ [آل عمران: ١٩١]:

الطاعة ولود! فكثر الذكر قادتهم لعبادة أخرى وهي عبادة الفكر.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]:

قال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة ولي فيه عبرة».

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢]:

الحزبي: الفضيحة المخجلة الهادمة لقدر المرء، وفي الآية إشارة إلى أن العذاب النفسي في النار أشد وأفظع من العذاب البدني.

من آداب الدعاء! جاءت هذه الآية كتعليل لسؤالهم الوقاية من النار. قال جمال الدين القاسمي: «وسر هذا الإتيان عظم موقع السؤال، لأن من سأل ربه حاجة، إذا شرح عظمتها وقوتها، كانت داعيته في ذلك الدعاء - أكمل، وإخلاصه في طلبه أشد، والدعاء لا يتصل بالإجابة إلا إذا كان مقروناً بالإخلاص، وهذا أيضاً تعليم من الله تعالى فناً آخر من آداب الدعاء».

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]:

قال محمد بن كعب القرظي: «ليس كل الناس سمع النبي ﷺ، ولكن المنادي القرآن».

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]:

سئل الحسن البصري عن الأبرار، فقال: «هم الذين لا يؤذون الذر».

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]:

﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي آتانا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من ثواب، أو آتانا ما وعدتنا من ثواب على تصديق رسلك.

كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد، والله لا يخلف الميعاد؟!

والجواب: معناه طلب التوفيق للأسباب المادية والإيمانية التي تؤدي لإنجاز وعد الله، فما لم يكن من الله مدد، لن يصل إلى بغيته أحد.

قال جعفر الصادق: «من حَزَبَهُ أمر فقال خمس مرات: (ربنا) أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، قيل: وكيف ذلك؟ قال: اقرءوا إن شئتم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾».

قال الحسن البصري: «ما زالوا يقولون: ربنا حتى استجاب لهم».

﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: ١٩٥]:

قدّم الله تكفير سيئاتهم على إدخالهم الجنة، لأن التخلية - كما يقولون - مقدمة على التحلية، فطهرهم أولاً من الذنوب، ثم أدخلهم بعد ذلك جنته.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]:

٩٥١

وكأن كل جزاء حسن للأعمال الصالحة في الدنيا لا يُعَدُّ حسناً إذا قورن بما أعده الله في الآخرة لعباده المتقين.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]:

٩٥٢

نهي للمؤمنين عن أن يغتروا بما عليه الكافرون من جاه ونفوذ وسلطان، فالخطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته، فإن عظيم القوم يُخاطَب بالشيء، فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قال: لا يغرنكم.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ

٩٥٣

جَهَنَّمَ...﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]:

مهما كثر نعيمهم وطال، فما هو إلا قطرة في بحر ما ينتظرهم من أهوال.

﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْهَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٧]:

٩٥٤

تعزية للمؤمنين وتسلية لهم عما يرون من غنى وجاه وسلطان لأهل الكفر، وتحريض لهم ليجعلوا همهم الأكبر العمل الصالح الذي يوصل إلى رضوان الله الباقي، وفي الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع». صحيح مسلم رقم: ٢٨٥٨.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]:

٩٥٥

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما من مؤمنٍ إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني؛ فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]:

٩٥٦

إنصاف القرآن! لما توفي النجاشي، قال رسول الله ﷺ: استغفروا لأخيكم، فقال المنافقون: يصلي على عالج مات بأرض الحبشة؟! فنزلت: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» ، وثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إن أحمًا لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه، فخرج إلى الصحراء فصنّفهم وصلى عليه».

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]:

أمرهم الله بالصبر وهو حال الصابر في نفسه.
والمصابرة وهي حال المؤمن في الصبر مع خصمه.
والمرابطة وهي الثبات والإقامة على الصبر والمصابرة.
وقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يربط، وقد يصبر ويصابر ويرابط لكن من غير تقوى، فأخبر الله أن ملاك الأمر كله بالتقوى، وأن فلاح العبد موقوف عليها.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]:

قال الرازي:

«أما الصبر فيندرج تحته أنواع:
أولها: أن يصبر على مشقة النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والنبوة والمعاد، وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات المخالفين.
وثانيها: أن يصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات.
وثالثها: أن يصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات.
ورابعها: الصبر على شدائد الدنيا وآفات من المرض والفقر والقحط والخوف».

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]:

قال ابن رجب:

«ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر:

أن الكرب إذا اشتد وعُظم وتناهى،
حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين،
وتعلّق قلبه بالله وحده.
وهذا هو حقيقة التوكل على الله.
وهو من أعظم الأسباب التي تُطلب بها الحوائج.
فإن الله يكفي من توكل عليه».



سورة النساء

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]:

تنبيه على أن زوجتك بضعة منك، ومن أقرب الناس إليك، فإن الزوجات خلِقن من الأزواج، فعليك بمراعاتها والقيام بحقوقها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]:

قال ابن القيم: «وصلة الرحم واجبة وإن كانت لكافر، فله دينه وللواصل دينه».

﴿وَأَتُوا الَّتِي تَمَنَّى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢]:

من السبع الطوال في القرآن، وثاني آية منها ﴿وَأَتُوا الَّتِي تَمَنَّى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢]! في ظل الإسلام العظيم، لا خوف على حقك مهما كنت ضعيفاً.

﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢]:

قال سفيان الثوري عن أبي صالح: «لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قُدِّر لك».

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]:

أي تجوروا وتميلوا عن الحق، من عال الميزان عولاً إذا مال، ومنه عال الحاكم إذا جار، ثم استعمل في الميل المعنوي؛ لأن تعدد الزوجات يعرض صاحبه غالباً للجور.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً﴾ [النساء: ٤]:

الصَّدُقة هو مهر المرأة، والمهر فرض وحقٌ للزوجة، وفي التعبير عن إيتاء المهور بالنحلة مع كون المهور واجبة، لإفادة أن إيتاء المهر عن طيب خاطر.

المهر علامة فارقة بين النكاح والسفاح، والمهر حق المرأة لا حق الولي، فقد كان الزوج في الجاهلية يعطي ما لا لولي المرأة ويسمونه حُلواناً، ولا تأخذ المرأة منه شيئاً، فأبطل الإسلام ذلك بأن جعل المهر حقاً للمرأة بموجب هذه الآية.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً﴾ [النساء: ٤]:

وسُمِّيَ المهر نَحْلَةً لأنه أقرب إلى الهدية منه إلى العِوض، فما يترتب على الزواج من حقوق وعلاقات أكبر من أي عِوض مادي.

﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤]:

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قضااته: «إن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأيا امرأة أعطته، ثم أرادت أن ترجع فذلك لها».

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥]:

نهى الله أولياء اليتامى عن إيتاء السفهاء من اليتامى أموالهم خشية إساءة التصرف فيها، وأضاف الأموال إلى الأولياء مع أنها لليتامى، مبالغة في حملهم على حفظها وصيانتها.

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥]:

في أمره سبحانه أن يقولوا قولاً معروفاً، بعد أمره لهم برزقهم وكسوتهم، إشعار بأن من الواجب عليهم أن يبذلوا العطاء بوجه طلق ولسان جميل بعيداً عن المن والأذى، فقد جرت عادة المنفق أن يستثقل سؤال السائل ويضجر منه.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦]:

الحقوق المالية لا بد لها من توثيق ولو كانت بين الأقربين.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ

الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]:

نزلت هذه الآية في أوس بن ثابت الأنصاري، فقد تُوِّفِّي وترك امرأة يقال لها: أم كجّة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت يقال لهما: سويد وعرفجة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، فذكرت أم كجّة ذلك لرسول الله

عَلَيْهِ السَّلَامُ: فدعاهما، فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاً، ولا ينكأ عدوا، فقال ﷺ: «انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن»، فأنزل الله هذه الآية.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]:

هذه الآية ثورة على التقاليد الجاهلية، فقد أعلنت أن الإرث غير مختص بالرجال كما كان أهل الجاهلية يفعلون، بل مشترك بين الرجال والنساء.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨]:

هذه وصية لمن عنده خادم أن يصرف له راتب شهر عند شهود الميراث، فإن النفوس تتشوف للعطاء، فوسّع على غيرك كما وسّع الله عليك.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ [النساء: ٨]:

قدّم أولي القربى على اليتامى والمساكين؛ لأن الإحسان إلى القرابة أفضل من الإحسان إلى اليتيم والمساكين؛ ولذا لما أخبرت ميمونة بنت الحارث رسول الله ﷺ أنها أعتقت جارية لها، قال لها رسول الله ﷺ: «لو أعطيتها أخوالك، كان أعظم لأجرِك».

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]:

تأمين مستقبل الأبناء بالتقوى والصلاح لا بالمال والسلاح.

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]:

أمر الله الوصي أن يخشى الله ويتقيه في أمر اليتامى، فيفعل مع اليتيم ما يحب أن يفعل مع ذريته الضعفاء بعد موته، فالعامل بالمثل، وأحب لأخيك ما تحب لنفسك، وجعل الله من شعورهم الفطري بالحنان على ذريتهم باعثاً لهم على الحنان على الأيتام.

٩٧٨

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]

حُتَّ على الإيجابية! قال ابن عاشور: «وفي الآية الكريمة ما يبعث الناس كلهم على أن يغضبوا للحق من الظلم، وأن يأخذوا على أيدي أولياء السوء، وأن يجرسوا أموال اليتامى، ويبلغوا حقوق الضعفاء إليه؛ لأنهم إن أضاعوا ذلك يوشك أن يلحق أبناءهم وأموالهم مثل ذلك، وأن يأكل قلوبهم ضعيفهم، فإن اعتياد السوء ينسي الناس شناعته، ويكسب النفوس ضراوة على عمله».

٩٧٩

اليتيم طريق الجنة: «أنا وكافل اليتيم في الجنة»، أو طريق النار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِمِ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

٩٨٠

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]:

الله أرحم بك من والدك، فالذي يوصيك بالشيء هو أرحم به منك.

٩٨١

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى﴾ [النساء: ١١]:

جعل الله نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى، لأن التكاليف المالية على الأنثى أقل كثيرًا عن التكاليف المالية على الذكر، إذ الرجل مكلف بالإنفاق على نفسه ومن يعول، بينما المرأة نصيبها من الميراث لها، ولا يشاركها فيه أحد.

٩٨٢

عبر بالذكر والأنثى دون الرجال والنساء، ليفيد استواء الكبار والصغار في استحقاق الميراث من غير دخل للبلوغ والسن في ذلك، وفيه إبطال عمل أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الأطفال والنساء.

٩٨٣

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]:

ربما خطر ببال البعض أن القسمة لو وقعت على غير الوجه الشرعي لكانت أنفع وأصلح، وهنا جاء الرد الإلهي: عقولكم عاجزة، فربما اعتقدتم المصلحة

في أمر فيه عين المضرة، أو اعتقدتم أنه عين المضرة وهو عين المصلحة، وأما الله فهو العالم بالأصلح والأضر، والحكيم في تقسيمه وتديره.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١٢]:

ذكر سبحانه هذين الأمرين أربع مرات في آيتين تأكيداً لحق الدائنين والموصي لهم، وتبرئة لذمة المتوفى.

فقد قال بعد بيان ميراث الأولاد والأبوين: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

وقال بعد بيان ميراث الزوج: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

وقال بعد ميراث الزوجة: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصَوْنَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

وقال بعد بيان ميراث الإخوة والأخوات لأم: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾.

والسبب في ذلك: التشديد على تنفيذها؛ إذ هي مظنة الإهمال، أو مظنة تعمد الإخفاء.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢]:

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم قُدِّمَت الوصية على الدَّيْن، والدَّيْن مقدَّم عليها في الشريعة؟ قلت: لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاضمهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنة للتفريط، بخلاف الدَّيْن».

﴿غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢]:

فيه نهي المورث عن إلحاق الضرر بورثته عن طريق الوصية أو بسبب الديون، فإضرار الورثة عن طريق الوصية بأن يوصي المورث مثلاً بأكثر من الثلث، وإضراره بهم عن طريق الدَّيْن بأن يقر مثلاً بدين لشخص ليس له عليه دين؛ ليمنع الميراث عن الورثة.

﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢]:

٩٨٧

يوصيكم الله بذلك وصية، والتنوين هنا للتفخيم والتعظيم، وقال: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ إشارة لتعظيم الأمر، وأنَّ من خالف وصية الله استحق عقابه.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]:

٩٨٨

الترغيب قبل التهيب، والرجاء قبل الخوف، والثواب قبل العقاب.. ليتنا نتبع هذا المنهج أثناء دعوتنا إلى الله.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]:

٩٨٩

لم ذكر العذاب المهين بعد ذكر النار؟! قال ابن عاشور: «لأن العرب أباة الضَّيْم، شُمُّ الأنوف، فقد يحذرون الإهانة أكثر مما يحذرون عذاب النَّار، ومِنَ الأمثال المأثورة في حكاياتهم: (النَّارُ وَلَا الْعَارُ)».

﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَابِكُمْ فَاستَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥]:

٩٩٠

اشترط الله شهادة أربعة من الرجال الأحرار لأن الرمي بالزنى أفحش ما تُرْمَى به المرأة والرجل، فكان من رحمة الله أن شَدَّدَ في إثبات هذه الجريمة أبلغ التشديد.

﴿إِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]:

٩٩١

قال ابن عباس: «كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور، فسَخَّه بالجلد أو الرجم».

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازُوهُمَا^ط فَإِنَّ تَابًا وَأَصْلَحًا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء: ١٦]:

والمراد بهما الرجل والمرأة البكران اللذان لم يحصنا، وذكر في هاتين الآيتين عقوبتين:

الأولى: الحبس في البيوت، وهي الأشد، وتكون للثيب.

والثانية: الإيذاء، وهو الحكم الأخف، يكون على البكر.

وقد نُسخَت هذه الآية بآية النور، حيث جعل حكم الزانين اللذين لم يُحصنا جلد مائة.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٧]:

تأمل رحمة الله في قوله (على)، فجعل التوبة حقاً أحقه على نفسه سبحانه، فما من تائب إلا وجعل الله على نفسه حقاً أن يقبل توبته.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ (بِجَهْلَةٍ)﴾ [النساء: ١٧]:

إقدامك على المعصية ليس جهلاً بحرمتها، وإنما جهل بعظمة من عصيت!

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]:

قال أبو العالية: «سألت أصحاب النبي ﷺ عن هذه الآية، فقالوا: كل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب».

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا^ط وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]:

جمع الله هنا بين عمليين من أعمال الجاهلية نهى عنهما:

فالأول: كانوا يرثون النساء كالماتع.

والثاني: العضل أي المنع من التزويج، فكان أولياء الميت يمنعون زوجته من

الزواج بعده، ويتركونها على ذلك حتى تدفع لهم ما أخذت من ميراث الميت،

أو تموت فيرثونها.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

٩٩٧

[النساء: ١٩]:

خيرًا كثيرًا، ولو كان بدون حب، فليس على الحب وحده يقوم الزواج.

﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]:

٩٩٨

ليس فقط ذهاب ما تكره، وليس عكس ذلك من الخير فحسب، بل وكثيرًا أيضًا.

لو قال خيرًا لكفى؛ فكيف وهو خير كثير؟! (كثيرًا) لدرجة أن ينسبك
آلامك، فتفعل ما كان الألم بالغًا!

٩٩٩

﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا﴾ [النساء: ١٩]:

١٠٠٠

قد تكون كراهية الشيء أول الخير فيه، فأحسن الظن باللطيف الخبير.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا
تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [النساء: ٢٠]:

١٠٠١

الإسلام ثورة على أحكام الجاهلية! كان الرجل في الجاهلية إذا أراد التزويج
بامرأة أخرى، بهت التي تحته - أي رماها بالفاحشة التي هي بريئة منها - حتى
يلجئها إلى أن تطلب الطلاق منه، وذلك نظير أن تترك له ما لها عليه من
صداق أو غيره، فنُهوا عن ذلك.

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]:

١٠٠٢

جواز الإصداق بالمال الكثير! القنطار هو المال الكثير، ولقد رأى فيها الإمام
القرطبي دليلًا على جواز المغالاة في المهور؛ لأن الله تعالى لا يمثل إلا بمباح،
وإن كان الأفضل عدم المغالاة في المهور، لقول النبي ﷺ: «خير الصداق
أيسره» صحيح الجامع رقم: ٣٢٧٩.

﴿وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ

١٠٠٣

مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]:

منع الله الرجال من أخذ شيء من مهور نسائهن لسبيين:

الأول: الإفضاء وخلوص كل زوج لصاحبه حتى كأنهما نفس واحدة.
الثاني: الميثاق الغليظ الذي أخذه الله على الرجال بحسن معاملة نسائهن.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]:

اتفق العلماء على أن المهر يستقر بالوطاء، واختلفوا في استحقاقه بالخلوة المجردة، قال القرطبي: والصحيح استقراره بالخلوة مطلقاً، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه.

﴿وَأَخْذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]:

وصف الله سبحانه الميثاق بالغلظة لقوته وشدته، وقد قيل: صحبة عشرين يوماً قرابة، فكيف بالعلاقة الزوجية مع ما فيها من اتحاد وامتزاج؟!
رباط الزوجية أعظم عقد وميثاق، فلا تحل هذا العقد في لحظة غضب.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]:

إنما خصّ هذا النكاح بالنهي من بين باقي الأنكحة الفاسدة، مبالغة في الزجر عنه، حيث كان ذلك ديدنهم في الجاهلية، وقوله: ﴿مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ تشمل كل الأصول من الرجال، أي تشمل الأجداد جميعاً سواء كانوا من جهة الأب أو جهة الأم.

قال الرازي:

«مراتب القبح ثلاثة: القبح في العقول وفي الشرائع وفي العادات.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾، إشارة إلى القبح العقلي.

وقوله: ﴿وَمَقْتًا﴾، إشارة إلى القبح الشرعي.

وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، إشارة إلى القبح في العرف والعادة.

ومتى اجتمعت فيه هذه الوجوه، فقد بلغ الغاية في القبح».

١٠٩

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣]:

قال رسول الله ﷺ: «لا تُنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا على ابنة أخيها، ولا على ابنة أختها».

وفي رواية الطبراني أنه قال: «فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم». والسر في تحريم هذا النوع من النكاح أنه يؤدي لتقطيع الأرحام؛ إذ من شأن الضرائر أن يكون بينهن من الكراهية ما هو مشاهد ومعلوم.



من روائع المتدبرين

عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب، كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ، فدخل ذات يوم فقرأ فأتى على هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] إلى آخر الآية، فانتعل وأخذ رداءه ثم أتى أبي بن كعب فقال: يا أبا المنذر .. أتيت قبل على هذه الآية ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وقد ترى أنا نظلم ونفعل، فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا ليس بذلك، يقول الله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إنما ذلك الشرك».

تعظيم قدر الصلاة ٢-٥٢٤ - محمد بن نصر المروزي - مكتبة الدار -

المدينة المنورة

الجزء الخامس

من سورة النساء من الآية ٢٤
إلى سورة النساء الآية ١٤٧
عدد الفوائد: ٢٤٠

وكأن القرآن يقرؤك

وصف جيفري لانغ شعوره نحو القرآن، ولم يجد أدق من وصف فريدريك داني في كتابه (الإسلام)، وهو شخص غير مسلم، لكن جاء بعبارة أذهلته:

«تلك التجربة العجيبة غير الطبيعية التي يشعر بها المرء أحياناً لدى قراءته القرآن، وتلك اللحظات التي يشعر فيها القارئ بحضور شيء غامض، وأحياناً مرعب معه، وبدلاً من قراءة القرآن، فإن القارئ يشعر وكأن القرآن يقرؤه».

حتى الملائكة تسأل ص ٢٠٦

الجزء الخامس

من سورة النساء من الآية ٢٤
إلى سورة النساء الآية ١٤٧
عدد الفوائد: ٢٤٠

و كأن القرآن يقرؤك

وصف جيفري لانغ شعوره نحو القرآن، ولم يجد أدق من وصف فريدريك داني في كتابه (الإسلام)، وهو شخص غير مسلم، لكن جاء بعبارة أذهلته:

«تلك التجربة العجيبة غير الطبيعية التي يشعر بها المرء أحياناً لدى قراءته القرآن، وتلك اللحظات التي يشعر فيها القارئ بحضور شيء غامض، وأحياناً مرعب معه، وبدلاً من قراءة القرآن، فإن القارئ يشعر وكأن القرآن يقرؤه».

حتى الملائكة تسأل ص ٢٠٦

الجزء الخامس

من سورة النساء من الآية ٢٤ إلى سورة النساء الآية ١٤٧

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]:

لا تعاند ربك فتؤذي نفسك؛ وذلك بإرادة المعصية وإصرارك عليها.

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]:

هل أدركت الآن حجم المؤامرة التي فضحها الله في كتابه؟!

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ...﴾ [النساء: ٢٧] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَخْشَوْهُ عَنكُمْ

....﴾ [النساء: ٢٨]:

ما أحلم الرب في تودده إلى العبد!!

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]:

فلا قوة له إلا بربه، فاقترب من ربك، واستمد منه القوة.

سئل الثوري عن قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]: ما

ضعفه؟

قال: المرأة تمر بالرجل فلا يملك نفسه عن النظر إليها، وهو لا يتفجع بها؟ فأَيُّ

شيء أضعف من هذا؟!

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]:

خلقنا الله ضعفاء لنفتقر إليه، فإذا افتقرنا إليه قوينا!

بلغ من ضعفه أن كلمة تُسعدُه، وأخرى تُحزنُه، وثالثة تغضبه، ورابعة تُقلقه،

فأَيُّ شيء أضعف من هذا؟!

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]:

قال الفضيل بن عياض: «لا تُغفلوها عن ذكر الله، فإن من أغفلها عن ذكر الله -تبارك وتعالى- فقد قتلها».

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضَلِّهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى

أَلَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠]:

إيجاز بليغ! تشمل هذه الآية نهب أموال غيرك، وتبديد أموالك، وقتل نفسك، وقتل غيرك بعبارة غاية في الاختصار، فالعدوان والظلم أوزار عاقبتها النار.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]:

مجرد اجتناب الكبائر يكفر عنا الصغائر! فأبي كرم هذا؟!

﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]:

لم نسمع بكريم قال لأحد: سألني، ثم لم يعطه، فكيف بأكرم الأكرمين؟! وهو الذي قال: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

قال سفيان الثوري: «ما أمر بالمسألة إلا ليعطي».

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]:

﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]:

ادفع الحسد عن قلبك بدعاء ربك وسؤال فضله.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]:

نهى الله عن مجرد تمني ما في أيدي الغير، وهو عمل القلب، فكيف بالعدوان عليهم وهو عمل الجوارح؟!

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ (اللَّهُ) بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]:

ذكّرنا الله بأن تفضيل بعضنا على بعض محض فضل إلهي لا دخل للعبد فيه؛ لئلا يسخط المفضل، أو يفخر الفاضل.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوَهُمْ نَصِيحُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾
[النساء: ٣٣]:

قال القرطبي: «يَبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ وَرَثَةً وَمَوَالِي، فَلْيَتَنَفَّعْ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ، وَلَا يَتَمَنَّ مَالَ غَيْرِهِ».

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣]:
هم الحلفاء الذين كانوا في الجاهلية، وذلك أن الرجل كان يعاقد غيره ويقول: دمي دمك، وسلمي سلمك، وحربي حربك، وترثني وأرثك، وتعقل عني وأعقل عنك، فيكون لهذا الحليف السدس من الميراث، وكان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نُسِخَ بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأَنْفَال: ٧٥]

﴿فَالصَّلَاحُ قَنِتْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٣٤]:
تفقد المرأة من صلاحها بمقدار ما تفقد من حفظها لسِرِّ زوجها.

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]:
لطف الله بالنساء ورحم ضعفهن حتى جعل عقوبتهن مجرد كلمة وعظ!

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]:
لن يردع الزوج عن ظلم زوجته شيء أعظم من تذكره عظمة الله وعلوه وكبره!
﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]:

قال الزمخشري: «وإنما كان الحكماء من أهلها؛ لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للصلاح، وإليهم تسكن نفوس الزوجين، ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحب والبغض، وإرادة الصلح والفرقة، وموجبات ذلك ومقتضياته، وما يزويانه عن الأجانب، ولا يجبان أن يطلعوا عليه».

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]:

صدق إرادة الإصلاح عند الزوجين من أهم أسباب التوفيق بينهما عند الخلاف.

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]:

قال القاسمي: «من أصلح نيته فيما يتوخاه؛ وفقه الله تعالى لمبتغاه».

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦]:

على الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من:

- مساعدته على أمور دينه ودنياه.
- والنصح له.
- والوفاء معه في اليسر والعسر.
- وأن يحب له ما يحب لنفسه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]:

هب العالم كله ضجّ بامتيازاتك وتكلم عن إنجازاتك، لكن ربك لا يحبك!!

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧]:

أي يحضون الناس عليه، وهذا أشد البخل، وهؤلاء هم المنافقون، ويحتمل أن يراد به كتمان التوراة بما فيها من صفة النبي ﷺ، وعلى هذا يكون المراد هنا اليهود، وهو المأثور عن ابن عباس.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [النساء: ٣٨]:

روى مسلم عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه».

كان من دعاء مطرّف بن عبد الله: «اللهم إني أستغفرك مما زعمت أني أريد به وجهك، فخالط قلبي منه ما قد علمت».

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]:

ومعلوم أن كل قرين بالمقارن يقتدي، فبئس القرين والصاحب الشيطان؛ لأن اقترانه بك هدفه أن يسحبك معه إلى النار.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٩]:

ليس في إيمانهم بالله عليهم أي مشقة، بل لو آمنوا لوصلوا إلى عز الدنيا والآخرة، ولا يحملهم على الإعراض عن الله إلا سوء النية وخبث الباطن.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩]:

متى اعتقد عبد أن علم الله لا يخفى عليه شيء، وأن السر عنده علانية، كان ذلك رادعاً له عن كبائر القلوب، كالنفاق والرياء والسمعة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]:

قال قتادة: «لأن تفضل حسناتي ما يزن ذرة أحب إلي من الدنيا وما فيها».

﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]:

من مضاعفتها نشر ثناء الناس عليها، ودعائهم لصاحبها.

﴿يُضَاعَفْهَا إِلَى كَمْ؟!﴾ قال السعدي: «إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك، بحسب

حالتها، ونفعها، وحال صاحبها إخلاصاً ومحبة وكماً».

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]:

قال ابن عطية: «الله إذا منّ بتفضله.. بلغ بعبده الغاية!».

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]:

بكى الشهيد هنا، فماذا عن المشهود عليهم؟!

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا

يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]:

تصير البهائم تراباً يوم القيامة، فيود الكفار حالها. قال ابن عباس: «يودون أن

يمشي عليهم أهل الجمع يطؤونهم بأقدامهم كما يطؤون الأرض».

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]:

١٤٧

كم من مُصَلٍّ غافلٍ من سكرة هواه، لا يعلم ما يتلوه في الصلاة.

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]:

١٤٨

قال السعدي: «فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره».

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]:

١٤٩

أعظم موضع يحتاج إلى التصريح هو موضع الأحكام الشرعية، ومع هذا كَتَى القرآن فيه، فحافظ على رُقْيٍ كلماتك في جميع أحوالك.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن

١٥٠

تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]:

نفسية اليهود عجيبة، يريدون للمؤمنين الضلالة حتى لا يفضلهم بالهداية أحد!

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]:

١٥١

أي: يسعون لأن تضلوا، وذلك بإلقاء الشبهات سعيًا في صرفكم عن دينكم، وتشكيكم في عقيدتكم.

﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ٤٤]:

١٥٢

وصف الله اليهود بأنهم أُوتوا نصيبًا من الكتاب لا الكتاب كله؛ لأنهم نسوا حظًا كبيرًا مما ذكروا به، ولم يبق عندهم من علم الكتاب إلا القليل، ومع هذا، لم يعملوا بهذا القليل بل حَرَّفوه وبدلوه وأخضعوا تفسيره لأهوائهم.

﴿يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]:

١٥٣

قال إسماعيل حقي: «واعلم أنك لا ترى حالًا أسوأ ولا أقبح ممن جمع بين هذين الأمرين، أعني الضلال والإضلال، وأكثر ما يكونان في العلماء، يطمعون في ما في أيدي الخلق، فيداهنون فيضلون، فسبب زوال المداينة: قطع الطمع».

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ [النساء: ٤٥]:

1-0٤

إذا تخلى الناس عنك في كربك، فاعلم أن الله يريد أن يتولاك.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُواْ مُخْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]:

1-0٥

اليهود محترفو تزوير! وإذا كانوا زوَّروا كتاب الله، فهل يتورعون عن تزييف غيره من الحقائق؟!

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُواْ مُخْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]:

1-0٦

قال الفخر الرازي:

«في كيفية التحريف وجوه:

أحدها: إنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر.

والثاني: أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة، وصرف اللفظ من معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية.

والثالث: أنهم كانوا يدخلون على النبي ﷺ، ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به، فإذا خرجوا من عنده حرّفوا كلامه».

ذكر الله تعالى هنا: ﴿مُخْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ إشارة إلى التأويل الباطل،

1-0٧

وفي سورة المائدة: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ إشارة إلى حذف اللفظ عن الكتاب، فهما لوان مختلفان من التحريف.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦]:

1-0٨

قال ابن عباس: كانوا يقولون للنبي ﷺ: اسْمَعْ لَا سَمِعْتُ، وقال الحسن ومجاهد: معناه غير مسموع منك، أي غير مقبول منك، ولا مجاب إلى ما تقول.

﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا

1-0٩

عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧]:

من ردّ أمر الإيمان عوقب بالخذلان.

١٠١

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]:

قال ابن عمر: «كنا نُمسِكُ عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾».

١٠٢

كان الصحابة يستبشرون بهذه الآية حتى قال علي بن أبي طالب ﷺ: «أحب آية إليّ في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾».

١٠٣

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزْكَونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْزِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]:

يزكيك الله وينشر لك الذكر الحسن بقدر ما تقاوم تزكية نفسك ومدحها.

١٠٤

﴿بَلِ اللَّهُ يُرْزِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]: إن لم تكن تزكيتك من رب الأرض والسماء، فلن ينفَعك عند الناس تزكية ولا ثناء.

١٠٥

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزْكَونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْزِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]:

تزكية النفس عادة يكرهها الله وينفر منها الناس، فلم تفعلها؟!

١٠٦

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٥٠]:

كذبوا على الله حين قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِي﴾

[البقرة: ١١١]،، وحين قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل

عمران: ٢٤]، وحين قالوا: ﴿حَتَّى أَتَّبَتُوا اللَّهَ وَأَحْبَبْتُوهُ﴾ [المائدة: ١٨].

١٠٧

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]:

ألا تعجب - يا محمد - من حال هؤلاء اليهود الذين آتاهم الله تعالى حظًا من التَّوراة، فتركوا الإيمان والعمل به إلى الإيَّمان بالجبَّت والطَّاغوت، وما أشبه

المسلمين اليوم بهذه الحال، فقد تركوا كتاب ربهم، واستبدلوه بقوانين وضعية مُجَلِّ لهم الحرام، وتحَرَّم الحلال.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤَلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم، قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المنبر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجاج وأهل السدانة؟ قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، ونزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ..﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤَلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]:

يستفاد من الآية أن من حكم بخلاف ما يعلم فهو أقبح ممن حكم بما لا يعلم، والكُلُّ عند الله قبيحٌ، لكن الأول أشدُّ جرماً؛ ولذا عظمت مسؤولية العلماء.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢]:

اللعن عقوبة المكابرة!

قال الرازي:

«إنما استحقوا هذا اللعن الشديد لأن الذي ذكروه من تفضيل عبدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد صلَّى الله عليه وآله يجري مجرى المكابرة».

﴿أَمْ هُم نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]:

كان اليهود يقولون:

نحن أولى بالملك والنبوة، فكيف نتبع العرب؟! فكذبهم الله تعالى وأبطل دعواهم بأنهم ليس لهم حظ من الملك ليفعلوا ذلك، ولو كان لهم حظ من الملك لما أعطوا أحداً من الناس ولو نقيراً (النقطة التي على ظهر نواة التمرة).

﴿أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]:

لا تحسد أحدًا على نعمة من النعم، فأنت لا تعلم ماذا حرمه الله أو أصابه من النقم!

الحاسد معترض على ربه لا على من حسده.

يقول إسماعيل حقي: «البخل والحسد يشتركان في من يريد منع النعمة عن الغير، فأما البخل فيمنع نعمة نفسه عن غيره، وأما الحاسد فيريد أن يمنع نعمة الله عن عباده، فهما شر الرذائل، وسيبهما الجهل.

أما البخل فيدعوك إلى الدنيا ويمنعك عن الآخرة، والجود يدعوك إلى الآخرة ويمنعك عن الدنيا، ولا شك أن ترجيح الدنيا على الآخرة لا يكون إلا من محض الجهل.

وأما الحسد، فلأن الألوهية عبارة عن إيصال النعم والإحسان إلى العبيد، فمن كره ذلك فكأنه أراد عزل الإله عن الألوهية، وذلك محض الجهل».

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥]:

فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من أعرض عنه ولم يتبع تعاليمه، وهذه تسلية للنبي ﷺ عما لقيه من اليهود من أذى، كأن الله يواسيه بقوله: إن هؤلاء الحاسدين لك قد اختلفوا على من هو منهم، فكيف تنتظر منهم أن يتبعوك ولست منهم؟

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾

[النساء: ٥٦] ﴿كُلَّمَا حَبَّتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾! هذا حالهم.. كلما ظنوا تخفيفًا

زيد في عذابهم، فمن يطيق هذا؟!

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]:

كانت بلاد العرب في غاية الحرارة، فكان الظل عندهم أعظم أسباب

الراحة؛ ولذا فكلمة الظليل كناية عن المبالغة العظيمة في الراحة، وهذا رد على من سأل: إذا لم يكن في الجنة شمس تؤذي بحرهما، فما فائدة قوله: ﴿ظِلًّا ظِلِيلًا﴾؟

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]:

أخذ النبي ﷺ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة فأمره ربه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فكيف بالأمانة في ما هو أعظم من مفتاح!

قال السعدي: «الأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة، وأداؤها بأن يجعل فيها الأكلفاء لها».

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨]:

أعظم المواعظ مواعظ القرآن.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]:

لم يجعل الله لولي الأمر طاعة مستقلة، وإنما طاعة أولي الأمر تكون من باطن طاعتين: طاعة الله، وطاعة الرسول؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

قال صاحب الكشاف:

«والمراد بقوله: ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾:

أمراء الحق؛ لأن- أمراء الجور- الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله بوجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إثارة العدل واختيار الحق والأمر بهما، والنهي عن أضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان، وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم؛ فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم».

١٨٢

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]:

روى المفسرون عن ابن عباس أن رجلاً من المنافقين اسمه بشر خاصم يهودياً، فاحتكما إلى النبي ﷺ ففضى لليهودي، فلم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب، فقال اليهودي لعمر: قضى لنا رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر فاشتمل على سيفه، ثم خرج فضرب عنق المنافق، ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله تعالى وقضاء رسوله ﷺ، فنزلت هذه الآية.

١٨٣

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]:

إذا أردت كشف المنافق، فتحاكم معه إلى الكتاب والسنة، وراقب موقفه.

١٨٤

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوَفَّقًا﴾ [النساء: ٦٢]:

حلف المنافقين كذباً هو ديدنهم عند تضيق الخناق عليهم وافتضاح أمرهم.

١٨٥

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]:
انصح سرّاً فهو أرحى للقبول.

١٨٦

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]:

دلّت الآية على أن من تكررت منه المعصية والتوبة صحت توبته لقوله تعالى: ﴿تَوَّابًا﴾، وهو ما ينبئ عن التكرار.

﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤]:

لم يقل: واستغفرت لهم، بل عدل عنه عن طريق الالتفات: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾؛ تفخيماً لشأن الرسول ﷺ، وتعظيماً لشأن استغفاره لأصحابه، وتنبهها على أن شفاعته الرسول من الله ذات مكانة عالية.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]:

إيمان بلا تسليم لأحكام الشرع هو محض هراء.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]:

الاستقامة لا تعني فقط فعل الطاعات، بل لزوم الحق والإذعان له في كل الأحوال.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥]:

من دلائل الإيمان الصادق: التسليم التام لأمر الله من غير أدنى حرج في النفس.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا﴾ [النساء: ٦٦]:

فعل المواعظ وتنفيذها من أهم أسباب الثبات على الحق.

أكثر الناس انتكاساً؛ أقلهم عملاً بما يوعظ به.

﴿وَإِذَا لَاتَيْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٦٧]:

فليشر كل من سمع موعظة فعمل بها، بالأجر العظيم من رب العالمين، الذي وصف نفسه باسم (العظيم).

﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٨]:

من فوائد الطاعات: تحصيل الهداية، ومن ثمراتها: الثبات على الصراط المستقيم.

﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النساء: ٦٩]:

قدّم الصديق على الشهيد لأن الحياة في سبيل الله أصعب من الموت في سبيله.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]:

ما المقصود بهذه المعية؟! قال الإمام الفخر الرازي:

«وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين، كون الكل في درجة واحدة؛ لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، فإنه لا يجوز، بل المراد كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بُعد المكان؛ لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً، وإذا أرادوا الزيارة والتلاقي قدروا عليه، فهذا هو المراد من هذه المعية».

﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٠]:

الطاعة من فضله، ولولاه ما وقعت، والجنة من كرمه، ولولاه ما استحقها أحد.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]:

لا ينبغي لحذر المؤمن أن يكون سكوناً وموتاً، بل يجب أن يصحبه عمل دؤوب ونفرة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]:

أخذ الحذر من أهم قواعد القتال لاتقاء خدع الأعداء، ويشمل ذلك أعمال الاستخبارات وجمع المعلومات وبث العيون والجواسيس، وهو لون من ألوان محاربة الأعداء بنفس سلاحهم. قال أبو بكر لخالد يوم اليمامة: «حاربهم بمثل ما يحاربونك به: السيف بالسيف، والرمح بالرمح».

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِثَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢]:

المصائب كواشف لمكنونات القلوب من إيمان أو نفاق.

١١-١

﴿وَلَيْنَ أَصْبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣]:

فوارق! الفوز العظيم عند المنافق هو ما كسبه من دنياه، وأما عند المؤمن، فما نال من أخراه.

١١-٢

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]:

حَسَمَ المجاهد المعركة الدائرة في قلبه بين الدنيا والآخرة، فانتصرت الآخرة، فكان جهاده إعلاناً عملياً أن الآخرة أغلى وأعلى وأبقى وأعظم.

١١-٣

﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]:

قدّم الله تعالى القتل على الغلبة، للإشارة إلى حرص المجاهد على الشهادة، وأنه أشد من حرصه على الغلبة والنصر.

١١-٤

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]:

المراد بالقرية الظالم أهلها: مكة، وقد وصف أهلها بأنهم ظالمون، ولم توصف هي بأنها قرية ظالمة كما وصف غيرها من القرى، وذلك من باب التكريم لمكة، إذ هي حرم الله الآمن، ولا يوصف حرم الله الآمن بالظلم ولو على سبيل المجاز.

١١-٥

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]:

ما أجمل قول الرافي يصف رسالة الفاتحين المسلمين: «لسنا على غارة نُغِيرُهَا، بل على نفوس نُغَيِّرُهَا».

١١-٦

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]:

قال الفخر الرازي: «كان في قوله ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ للتأكيد لضعف كيده، يعني أنه منذ كان، كان موصوفاً بالضعف والذلة».

﴿قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]:

قليل.. لا يستحق أن تبكي على فقده، ولا أن تقلق من أجله.

قال السعدي: «لذات الدنيا مشوبة بأنواع التنغيص وزمانها منقضي، والآخرة دائمة النعيم وأهلها خالدون، فإن فكر العاقل عرف الأحق بالإيثار».

قلّلتها في عينك وزهدك فيها ليُهوّن عليك الإنفاق منها، ثم أخبرك أنك لو بذلت منها أقلّ القليل، فتصدّقت بشقّ ثمرة لتخلّصت من النار، وهذا والله غاية الكرم.

﴿أَيَنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]:

وما أحسن قول زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلّنه
ولو رام أسباب السماء يسلم

﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]:

التشاؤم من المصلحين سنة قديمة للمجرمين!

قال القرطبي: «نزلت هذه الآية في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم لما قدم رسول الله ﷺ المدينة عليهم قالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه».

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]:

الكفر والنفاق يؤديان لانطماس البصائر، فلا يكاد أهله يفقهون ما يُلقَى عليهم من مواعط، ولا يفهمون معنى ما يسمعون، إذ لو فقهوا لعلموا أن الله هو القابض الباسط، وأنه المعطي المانع.

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]:

فهمت من هذه الآية أن أحزاني وقلقي ومخاوفي من صنع يدي، وأن سعادتي قرار شخصي، وأن الناس لا يستطيعون -مهما فعلوا- أن يشقوني.

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] :

الابتلاء تذكيرٌ عمليٌّ بذنوبك كي تتوب منها.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠] :

هذه الآية من أقوى الأدلة على عصمة النبي ﷺ في كل ما يبلغه عن ربه؛ لأنه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعةً لله.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] :

مؤامرات الأعداء لا تخفى على الله، فأعرض عنها بقلبك، فلا خوف ولا حزن، وأحسن التوكل على ربك.

﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ [النساء: ٨١] :

يحرص المنافقون على إخفاء أفعالهم وكيدهم؛ ولذا يُوقعونها ليلاً.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِيقَانِ﴾ [النساء: ٨٢] :

قال ابن القيم: «فقراءة آية بتفكير وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم».

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] :

اللسان في الفتن وقعه كوقع السيف، ومنهج المؤمن في الفتن إمساك اللسان، واستشارة العلماء الثقات.

﴿فَقَنِّتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] :

المسؤولية فردية، والمحاسبة ليست جماعية، فينبغي لكل مؤمن أن يعمل ولو خذله الجميع، واسمع قول النبي ﷺ: «والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي»، وقول أبي بكر رضي الله عنه في حروب الردة: «ولو خالفني يميني لجاهدتها بشألي».

﴿١١٢١﴾ تقدّم ولا تلتفت لتباطئ المتباطئين، أو تخذيل المخذّلين، فإن الله ناصرك لا الجنود، ولو شاء لنصرَك وحدك كما ينصرَك وحولك الألوَف.

﴿١١٢٢﴾ **﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾** [النساء: ٨٥]:

الشفاعة هي الوساطة في إيصال خير أو دفع شر، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا، وتكون بلا مقابل، ومنها الشفاعة للمظلومين، وفي الحديث: «اشفعوا تؤجروا».

﴿١١٢٣﴾ بعضنا يتردد في الشفاعة لأنه يخاف على مكانته، ويرى أنه لن يستفيد من الشفاعة شيئاً، فوعده الله بنصيب منها.

﴿١١٢٤﴾ **﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾** [النساء: ٨٥]:

الآية الوحيدة في القرآن التي ورد فيها اسم الله المقيت، فلا تحمل الهم، إنما أنت شيء من الأشياء، فلن يعجز المقيت أن يدبر لك (قوتك).

﴿١١٢٥﴾ **﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾** [النساء: ٨٦]:
ما أجمل (الكرم) ولو كان في (التحية).

﴿١١٢٦﴾ دين يعلمنا الإحسان في كل شيء حتى في التحية.

﴿١١٢٧﴾ **﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾** [النساء: ٨٧]:

كيف نفى الله الريبة في يوم القيامة بالكلية مع أن البعض لا يزال مرتاباً فيه؟!
والجواب:

المقصود ألا ريب حقيقياً فيه، أو أن أرتياب المرتابين لوْهَنه وضعف منطقته هو بمنزلة العدم.

﴿١١٢٨﴾ **﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾** [النساء: ٨٧]:

لا أحد أصدق من الله، لأن الكاذب إنما يكذب لجرّ منفعة، أو دفع مضرة، أو لجهله بقبح الكذب، والله تعالى مُنَزَّه عن كل هذا.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ [النساء: ٨٨]:

ليس العجب من مرض المنافقين، ولكن العجب من انقسام أهل الحق فيهم إلى فريقين!

لما كان للمنافق وجهان، كان مفهوماً أن يكون للصالحين فيه رأيان مختلفان، بحسب ما يراه كل واحد منهما.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]:

الضال يتمنى أن يكون الناس كلهم مثله، كي لا يشعر بوحشة الانحراف.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ودت الزانية لو زنى النساء كلهن».

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِمِّشٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَتِّلُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]:

هذه أخلاق الإسلام!

أرشد الله لقتل المنافقين الذين أعلنوا كفرهم وعادوا المسلمين، لكنه استثنى فريقين:

الأول: من لجأ إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد؛ لأنه لا غدر في الإسلام.
والثاني: من ضاقت صدورهم عن قتال المسلمين لحبهم لهم، أو كراهية قتال قومهم؛ لأن المؤمن يقابل الإحسان بالإحسان.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتَلُوكُمْ﴾ [النساء: ٩٠]:

تسليط الكافرين على المؤمنين، إما عقوبة على شيوع المنكرات بين المسلمين، أو ابتلاء واختبار حتى يعلم الله المجاهدين والصابرين، أو تمحيص لذنوب الصالحين.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]:

ليس الإسلام دين عدوان ولا تعطش لسفك الدماء، فمن سالنا سالماً، ومن حاربنا حاربناه.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوْا إِلَى
الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩١]:

هم قومٌ من أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليامنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليامنوا قومهم، وما هم بمخلصين الود لأي من الفريقين، ففيهم نزلت هذه الآية.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوْا إِلَى
الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩١]:

المؤمن حازم صارم، فأمر الله المؤمنين أن يأخذوا ويقتلوا المتلاعبين بالدين، الذين يظهرون الإسلام مع المسلمين، فإذا ما عادوا إلى قومهم كانوا معهم ضد المسلمين.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾
[النساء: ٩١]:

يظنون الحياد بين الحق والباطل كافيًا، وأنه الطريق الأسلم، وما علموا أن هذا أول خطوة في طريق السقوط.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ [النساء: ٩٢]:
وعليه، فلا يقتل القاتل حين يقتل متعمدًا وهو (مؤمن).

هذه صيغة من صيغ الامتناع والمبالغة في النفي، أي يمتنع ويستحيل أن يصدر من أي مؤمن قتل مؤمن! أي: متعمدًا، وغرض الآية: تفضيع قتل المؤمن.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ
يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢]:

ليس معنى (يصدقوا) الصدقة بل المعنى هنا العفو، وسمي العفو هنا صدقةً حثًا عليه وتنبهًا على فضله.

﴿وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا... وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]:

عذابه عظيم حتى يكون (ألم المقتول) أهون ما يكون إذا قورن (بألم القاتل).

قال ابن العربي: «ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك، فكيف بقتل الآدمي؟! فكيف بالمسلم؟! فكيف بالتقي الصالح؟!».

﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]:

حتى عند القتال لا بد من التبين والتثبت، فلا شيء يبرر التهور في إصدار الأحكام على الآخرين.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]:

الواجب علينا معاملة الخلق بالظاهر، والله يتولى السرائر.

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَلَّغَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ...﴾ [النساء: ٩٤]:

إلى كل معلّم! قال ابن عاشور: «هي عظة لمن يمتحنون طلبة العلم فيعتادون التشديد عليهم».

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْجَاهِدُونَ...﴾

[النساء: ٩٥]:

محال أن يساوي الله بين عبد أسرع إليه وآخر أبطأ عنه.

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]:

مرة قال: درجة، وهنا قال: درجات! والجواب: امتاز المجاهدون عن القاعدين بسبب عذر بدرجة، وامتازوا عن القاعدين بغير عذر بدرجات، ونكر الدرجات للإشعار بأنها درجات عظيمة لا يحدها حصر، ولا يحيط بها خيال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الظَّالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا

مُسْتَظْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُجَاجِرُوا فِيهَا

فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]:

الدين أغلى من كل شيء! قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهрани المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية».

كان الإمام الزمخشري قد هاجر من موطنه للإقامة بجوار بيت الله الحرام، فقال خلال تفسيره لهذه الآية:

«اللهم إن كنت تعلم أن هجري إليك لم تكن إلا للفرار بديني، فاجعلها سبباً في خاتمة الخير، وإدراك المرجو من فضلك، والمبتغى من رحمتك، وصل جوارى لك بعكوفي عند بيتك بجوارك في دار كرامتك.. يا واسع المغفرة».

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]:

أرض الله واسعة ومليئة بالفرص ومنح التغيير! فاخرج إلى أرض جديدة إن ضاقت بلادك بأحلامك.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً﴾

[النساء: ٩٧]:

التعلل بالأعذار لا يصلح أن يكون مبرراً للفشل والاستسلام.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨]:

عذر الله هؤلاء الضعفاء في عدم الهجرة، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والله مطلع على صدق هذه الاستطاعة من عدمها.

ذكر الله الولدان مبالغة في شرح الظلم الواقع على المسلمين، حتى بلغ الأذى الواقع الولدان غير المكلفين قهراً لآبائهم وأمهاتهم.

في ذكر الولدان مبالغة في الحث على الهجرة من الأرض التي لا يقدر المسلم فيها على إقامة شعائر دينه، حتى لو استطاع غير المكلفين -وهم الأطفال- الهجرة، فعليهم القيام بها.

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٩]:

قال الألوسي: «وفي قوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ إيذان بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى أن المضطر الذي تحقق من عدم وجوبها عليه ينبغي له أن يعد

تركها ذنباً، ولا يأمن، ويترصد الفرصة ويعلق قلبه بها.. هل علمتم الآن مكانة الدين في حياتكم؟!

عسى ولعل في كلام الله واجبتان، وإن كانتا في كلام المخلوقين رجاء وطمع؛ لأن المخلوق تعرض له الشكوك والظنون والعجز والضعف، والله منزّه عن كل هذا، وإذا أطمع عبده في شيء جاد به عليه.

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]:

نزلت في جندب بن ضمرة، وكان قد بلغه وهو بمكة فقال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي إلى الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على سرير متوجّهاً إلى المدينة، وكان شيخاً كبيراً، فمات بالتنعيم، ولما أدركه الموت أخذ يصفق يمينه على شماله ويقول: اللهم هذه لك، وهذه لرسولك ﷺ أبايعك على ما بايع عليه رسولك - ثم مات - ولما بلغ خبر موته الصحابة قالوا: ليته مات بالمدينة فنزلت الآية ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]: الهجرة في أقصر تعريف: دليل على أن دين المرء أغلى عنده من وطنه.

﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]: نية المرء خير من عمله، وبعض نيّاتك تبلغ بك أعظم الدرجات، ولن ينقطع أجرها حتى بعد موتك.

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]: قال السعدي: «فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمّان الله

تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم، وحصل منه ابتداء وشروع في العمل، فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملاً ولو لم يكملوا العمل، وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]:

هنا استدلال على قاعدة شرعية: المشقة تجلب التيسير.

﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢]:

تدل الآية على أن الصلاة لا ترتفع عن العبد ما دام فيه نفس!

الآية استدلت بها من رأى وجوب صلاة الجماعة، قال ابن كثير: «وما أحسن ما استدلت به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة».

من الأدلة التي استدلت بها البعض على وجوب صلاة الجماعة أن صلاة الخوف يسقط فيها كثير من الشروط، ويُعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها، وما هذا إلا لوجوب الجماعة.

تدل صلاة الخوف على أن الأولى أن يصلي المسلمون بإمام واحد؛ وذلك لاجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]:

كان الحسن البصري يقول: «يا ابن آدم.. ماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك؟!».

الصلاة فضلا عن أنها أفضل العبادات، لكنها كذلك من أهم وسائل تنظيم الأوقات.

﴿فَإِنَّهُمْ بِالْمُوتِ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]:

الألم واحد لكن الجزء مختلف ومتفاوت بحسب حال القلب: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ بِالْمُوتِ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ [النساء: ١٠٤]:

آلامك.. لا يخففها عنك إلا رجاء ثواب الله.

تشجيع على الصبر، فليس ما تقاسونه من ألم خاصاً بكم، بل يشارككم فيه الكفار والفجار، وإنهم ليصبرون على آلامهم، فما لكم لا تصبرون! مع أنكم ترجون من حسن العاقبة في الدنيا، وثواب الآخرة ما لا يرجون.. آه من جلد الفجار وعجز الأبرار..

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]:

أي لأجل الخائنين مخاصماً ومدافعاً عنهم، فلا تخاصم اليهود من أجل خائن، ولو كان مسلماً.

قال الشوكاني: «أي: لأجل الخائنين خصيماً: أي مخاصماً عنهم مجادلاً للمحققين بسببهم، وفيه دليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه مُحَقَّقٌ».

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦]:

قيل: معناه استغفر الله لأمتك، أما أنت فمغفورٌ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

كل ما في القرآن من هذا القليل يُقصد به الأمة، كأن الله تعالى يقول لنا: إذا كان الخطاب لرسول الله بصيغة الأمر هذه، فكيف يكون خطابكم؟ قال بعض الصالحين:

مَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَذَارَةٍ إِلَى النَّبِيِّ صَاحِبِ الْبَشَارَةِ
فَكُنْ لَبِيبًا وَافْهَمْ الْإِشَارَةَ إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ

﴿تَحْتَنَتُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧]:

لم يقل (يخونون)، وهو افتعال دال على التكلف لقصد المبالغة في الخيانة، ويمكن أن يخون الإنسان غيره، لكن كيف يخون نفسه؟

خيانة النفس تحدث بالغفلة عن العقوبة الآجلة بالشهوة العاجلة، فجعلت خيانة هؤلاء لغيرهم خيانة لأنفسهم؛ لأن سوء عاقبة هذه الخيانة سيعود عليهم، ولهذا يقال لمن ظلم غيره: إنه ظلم نفسه.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]:

الخاص عند الله كالعام! فراقبه على الدوام، ولا تستهن بنظره إليك في السر والإعلان.

﴿هَاتِئْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩]:

لا تدافع عن ظالم، ولا تجادل عن خاطئ، فإن فعلت، فواجه نفسك قائلًا: هل أستطيع المجادلة عنه غدًا بين يدي الله؟! هل أستطيع أن أدفع عنه العذاب غدًا إن عاقبه الله بذنبه؟!!

﴿هَاتِئْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [النساء: ١٠٩]:

المحامي الذي يدافع عن موكله وهو يعلم أنه مذنب، ألا يخشى أن يدخل في من عنتهم هذه الآية؟!!

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

[النساء: ١١٠]

ما أقرب الله.. ما أرحم الله.. ما ألطف الله!!

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ١١٠]

أبشع الظلم ظلم النفس؛ لأنها أعلى ما تملك، ولا تستحق منك هذه المعاملة! كيف لعبد أن يذبح نفسه؟!

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

[النساء: ١١١]

أنت أول المتضررين بذنبك؛ لأن وباله راجع إليك، إذ الله لك بالمرصاد، ومجازيك على السوء سوءًا، ولن يحمل غيرك من إثمك شيئًا، كما أنك لن تحمل من إثم غيرك شيئًا.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١]

معلوم أن السيئات إذا ظهرت، فلم تُنكر عمت عقوبتها الجميع؟! فهل يخرج هذا عما قرّره الآية؟! والجواب: كلا؛ لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١]

في هذا بيان عدل الله وحكمته، فإنه لا يعاقب أحدًا بذنب غيره، ولا يعاقب أحدًا أكثر من العقوبة المستحقة عن ذنبه.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا

مُبينًا﴾ [النساء: ١١٢]

قال القشيري: «من نسب إلى أحد ما هو بريء منه من المخازي عكس الله عليه الحال، وألبس ذلك البريء ثواب محاسن راميته، وسحب ذيل العفو على مساويه، وقلب الحال على المتعدي بما يفضحه بين أشكاله، في عامة أحواله».

وقوع العبد في المعصية أهون عند الله من اتهام بريء بها.

١١٨

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ﴾

[النساء: ١١٣]:

ومعنى ﴿يُضْلُوكَ﴾ أي يلقوك في الحكم الخطأ؛ لأن قوم طُعْمَة عرفوا أنه سارق، ومع هذا سألوا النبي ﷺ أن يجادل عنه ويبرئه من السرقة، وينسبها إلى يهودي.

١١٩

هموا أن يوقعوا النبي في الخطأ، لولا فضل الله عليه وعصمته له، أما تخاف أنت على نفسك من الضلال، وقد كثر حولك الضلال!

١٢٠

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ

بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]:

قال عليه الصلاة والسلام: «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا ما كان من أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر الله» ضعيف الجامع الصغير رقم: ٤٢٨٣.

قيل لسفيان الثوري: ما أشد هذا الحديث!

فقال سفيان: ألم تسمع الله يقول هذا بعينه.

١٢١

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥]:

وعيدٌ إلهي بأن يترك الله كلَّ فاسدٍ مع اختياره! أي نجعله والياً لما تولاه من الضلال، ونُخْلِ بينه وبين ما اختار لنفسه من سيئ الأحوال، وهذا دليل على استقلال إرادة العبد وحرية اختياره، فهو مخير لا مسير.

١٢٢

وجوب الاقتداء بسيد الأنبياء!

قال الإمام الرازي: «يدلُّ على أنَّه يجب الاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام في أفعاله؛ إذ لو كان فعل الأمة غير فعل الرسول لزم كون كلِّ واحدٍ منهما في شقٍّ آخر من العمل، فتحصل المشاققة، لكنَّ المشاققة محرمة، فيلزم وجوب الاقتداء به في أفعاله».

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]:

أي ذهب عن الصواب وبعيداً عن طريق الجنة، فإن البعد عن الجنة مراتب، فأبعده الشرك بالله؛ لأنه أقبح الرذائل؛ ولذا لا يُغفر، والشرك نوعان: جليٌّ وخفيٌّ، عافانا الله منهما.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾

[النساء: ١١٧]:

كان مشركو العرب يعبدون آلهة من دون الله، ويسمونهم بأسماء الإناث كالكالات والعزى ونائلة ومناة، وهو استهزاء بهم وتسفيه لآرائهم.

﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]:

وصف الشيطان بالتمرد لتجرده للشر، وعدم علق شيء من الخير به، ومع هذا أطاعوا أمره، أو لظهور شره بوضوح، من قولهم: شجرة مرداء إذا تناثر ورقها، ورملة مرداء إذا لم تنبت شيئاً، ومنه الفتى الأمرد لتجرده عن الشعر.

﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨]:

نصيب الشيطان من بني الإنسان! كل من أطاع الشيطان فهو من نصيبه، وهو من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، كما في الحديث: «يقول الله تعالى: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين...» صحيح الجامع رقم: ٨١٤٢.

﴿وَلَا مَرْتَبَهُمْ﴾ [النساء: ١١٩]:

يبلغ من تسلط الشيطان على العبد أن يأمره فيمتهل، كالعبد بين يدي سيده، وهذا قمة الذل والهوان، فضلاً عن أنه يورد يوم القيامة النيران.

﴿وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]:

والغرور: إظهار الشيء المكروه في صورة المحبوب، والمعنى: أن ما سَوَّله لهم الشيطان في حصول ما يرغبون.

- إما باطل لا يقع، مثل ما يسوِّله للناس من عقائد فاسدة ومذاهب منحرفة.
- أو حاصل لكنه غير محمود في العاقبة، مثل ما يزيِّنه للناس من قضاء دواعي الغضب والشهوة.

﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَهُم جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢١]:

محاولات الهروب من جهنم مستحيلة!

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾

[النساء: ١٢٢]:

ثلاثة تأكيدات هنا: ذكر وعد الله، والإشارة إلى أنه حق، وأنه لا أحد أصدق من الله وهو التأكيد الثالث، وفائدة هذه التأكيدات مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

[النساء: ١٢٣]:

حتى أهل الكتاب لهم أمانى، لكن لن (ينجو) إلا أهل.

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]:

قرأت لابن الجوزي في صيد الخاطر: «من الاعتراض أن تسيء فترى إحساناً، فتظن أنك قد سوِّجت، وتنسى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾».

كل ظالم مُعاقب على ظلمه في العاجل قبل الآجل.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]:

لا ينقص من حسناتهم قدر نقير، وهو النقرة التي على ظهر النواة، وهي مبالغة في نفي الظلم، ووعد بتوفية الصالحين ثواب أعمالهم من غير نقصان.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]:

ذكر إسلام الوجه رغم أن المؤمن يسلم مع الوجه كل جوارحه؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء، فإذا خضع خضع الباقي.

﴿أَحْسَنُ النَّاسِ دِينًا عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ مَنْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِلَّهِ وَاسْتَسْلَمَ لَهُ، مَتَمَثِّلًا مَقَامَ الْإِحْسَانِ، فَيَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ.﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٢٦]:

ارتباط هذه الآية بما قبلها أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا لحاجته إليه كحال الادميين، وكيف يُعقل هذا والله ملك السموات والأرض؟!

﴿وَدَسْتَفْتُونَا فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَنَمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]:

سبب نزولها:

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها، فأشركته في ماله، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يُزوّجها رجلاً، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية.

﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ١٢٧]:

معطوف على يتامى النساء، فقد كانوا في الجاهلية لا يورثون اليتامى كما لا يورثون النساء، فشرع الله لهم الميراث. قال ابن عباس في هذه الآية: «كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات».

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧]:

عملكم غير مجهول؛ ولذا فهو غير ضائع، بل مُسَجَّلٌ عند الله، ولن يضيع خيرٌ سُجِّلَ عند الله، وهذا سبب قوة المؤمن وثباته وصلابته في طريق الحق.

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]:

خيرٌ من ماذا؟! قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة». صحيح الجامع رقم: ٢٥٩٥.

يؤخذ من عموم هذا اللفظ أَنَّ الصُّلْحَ بين المتنازعين خيرٌ من استقصاء كلٍّ منهما لحقه.

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]:

لا يعطل الصلح بين المتخاصمين، ولا يطيل الخصومة، إلا الشح، فكل خصم يصيح: حقي! حقي!

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]:

قال الحسن وابن جرير:

في المحبة، وعن أبي مليكة أن الآية نزلت في عائشة رضي الله عنها، وكان رسول الله ﷺ يحبها أكثر من غيرها من نسائه.

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

قال جابر بن زيد: كانت لي امرأتان فلقد كنت أعدل بينهما حتى أعدُّ القُبْل! وعن مجاهد قال: كانوا يستحبون أن يسووا بين الضرائر حتى في الطيب، يتطيب لهذه كما يتطيب لهذه، وعن ابن سيرين في الذي له امرأتان يُكره أن يتوضأ في بيت إحداهما دون الأخرى.

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]:

هذه أرق كلمة يمكن أن تسمعها المطلقة، ويكفي أنها مواساة من الرب اللطيف لعبده المنكسر الضعيف.

﴿وَأِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ^١ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾

[النساء: ١٣٠]:

لا تشعر بالضيق عند فقد ما تحب، فقد يأخذ الفقد يدك إلى السعة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ [النساء: ١٣٠]:

مما وسَّعه الواسع: (الحياة)؛ فلن تضيق الحياة على مؤمن.

﴿وَأِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]:

كل شيء فقدته، فارقه مع اليقين بالعوض، وسيغنيك الله عنه من سَعَتِهِ.

رُوي عن جعفر بن محمد أن رجلاً شكاً إليه الفقر، فأمره بالنكاح، فذهب

الرجل وتزوج، ثم جاء إليه وشكاً إليه الفقر، فأمره بالطلاق، فسئل عن هذه

الآية فقال: أمرته بالنكاح لعله من أهل هذه الآية: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فلما لم يكن من أهل تلك الآية أمرته بالطلاق، فقلت: فلعله

من أهل هذه الآية ﴿وَأِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾.

﴿وَأِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٣١]:

المراد أن الله لا تنفعه طاعات الطائعين ولا تضره ذنوب المذنبين، فذكر بعد

ذلك قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، والغرض منه تقرير

أن الله غني لذاته عن كل مخلوقاته.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٣٢]:

قام بحفظ خلقه وتدبير أمور ما في السماوات وما في الأرض، ويشمل هذا من

يعقل ومن لا يعقل، فكيف لا يتوكل الخلق عليه؟!

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ^٢ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ

قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]:

لما فُتِحَتْ قبرص فُرِّقَ بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فبكى أبو الدرداء،

فسئل:

ما يبكيك في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟

فقال: ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]:

قال أبو حامد الغزالي: «من طلب الدنيا بالدين خسرهما جميعاً، ومن ترك الدنيا للدين ربحهما جميعاً!».

﴿كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]: إن لم يكن لك من نفسك واعظ، لم تنفعك المواعظ.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]:

قد يقول قائل: قد ينحاز صاحب الهوى إلى الغني طمعاً في غناه؛ فلم ذكر الله الانحياز إلى الفقير؟ والجواب: قد ينحاز صاحب الهوى إلى الفقير رحمةً به وشفقة عليه.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]:

إياك أن يميل بك الهوى لئلا تمنع حقاً عن من تكره، أو تعطي بغير حق من تحب.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦]:

نحتاج دوماً لتجديد الإيمان، وتفقدته في قلوبنا، مهما كنا مؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧]:

قصدها فتنه غيرهم بهذا التآرجح؛ لأن الآخرين سيشاهدونهم قد آمنوا، ثم يشاهدونهم يكفرون، فينسبون ذلك إلى أنهم لما تعمقوا في مسائل الدين كفروا به.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨]:

التعير بقوله: (بشّر) بدلاً من (أنذر) للتهكم؛ لأن البشارة لا تكون إلا في الأخبار السارة.

﴿أَيَنْتَفُوتْ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]:

العزة الحقيقية لا تستمد إلا من الله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ [المنافقين: ٨].

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾

[النساء: ١٤٠]:

كما أنك تأثم على كلام لا يجوز أن تتكلم به؛ فكذلك تأثم بسكوتك على منكر لا يجوز السكوت عنه.

﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]:

قال القرطبي: «فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن يُنكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم، فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية».

رُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قومًا يشربون الخمر، فقليل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم، فحمل عليه الأدب (أي: عاقبه)، وقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النساء: ١٤١]:

المنافقون يفتحون خطوط الرجعة لكل الاحتمالات تحسبًا للقادم؛ لأنهم ليسوا أصحاب مبدأ.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]:

لا يُسلِّط الله الكافرين على المؤمنين إلا بمقدار نقص إيمانهم وابتعادهم عن دينهم.

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً﴾ [النساء: ١٤٢]:

١٣٣٨

حين يرحل الحب من القلب؛ يتثاقل المرء عن اللقاء!!

﴿إِذَا لَمْ تَجِدْ أَمَّا فِي قَلْبِكَ عِنْدَ قِيَامِكَ لِلصَّلَاةِ بَتْكَاسِلٌ﴾، فهذه مصيبة أعظم تفرع ناقوس الخطر، وتوجب سرعة التحرك والحذر.

١٣٣٩

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]:

١٣٤٠

قال كعب: «من أكثر من ذكر الله برئ من النفاق».

﴿...وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا...﴾ [النساء: ١٤٢]:

١٣٤١

من أحب شيئاً أكثر من ذكره، فكيف حبك لربك؟! ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

﴿...وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا...﴾ [النساء: ١٤٢]: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾

١٣٤٢

قال السعدي:

«وأقل ذلك، أن يلازم الإنسان، أورد الصباح، والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك، في جميع الأوقات، على جميع الأحوال».

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَلَا إِلَى هَتُولَاءٍ﴾ [النساء: ١٤٣]:

١٣٤٣

حدّد موقفك في الصراع بين الحق الباطل، وإلا تسرّب النفاق إلى قلبك، ومِلّت بمرور الوقت إلى أهل الباطل دون أن تشعر.

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣]:

١٣٤٤

ليس الحياء دائماً فضيلة، أحياناً يكون علامة نفاق!

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ

١٣٤٥

أُتْرِبُذُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]:

الكلام هنا عن نفاق الكفر، لكن النفاق درجات!

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: ندخل على السلطان، ونتكلم بكلام، فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه!! فقال: كنا نعدُّ ذلك من النفاق.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

١٢٤٦

[النساء: ١٤٥]

هذا في نفاق الاعتقاد الذي يُظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر، فصاحبه في آخر دركة من دركات النار، وفي أقصى قعرها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

١٢٤٧

[النساء: ١٤٦]

قال الفخر الرازي ما ملخصه:

«واعلم أن هذه الآية فيها تغليظات عظيمة على المنافقين، وذلك لأنه تعالى شرط في إزالة العقاب عنهم أموراً أربعة: أولها: التوبة.

وثانيها: إصلاح العمل، فالتوبة: عن القبيح، وإصلاح العمل: عبارة عن الإقدام على الحسن.

وثالثها: الاعتصام بالله، وهو أن يكون غرضه من التوبة وإصلاح العمل: طلب مرضاة الله تعالى. ورابعها: الإخلاص.

فإذا حصلت هذه الشرائط الأربعة، فعند ذلك قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ

الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: فأولئك مؤمنون، ثم أعلن عن أجر المؤمنين ليحفِّز المنافقين إذا تابوا على الانضمام إليهم، فقال:

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وهذه القرائن دالة على أن حال المنافق شديد عند الله تعالى.

١٢٤٨

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]:

هذه بشارة! قال قتادة: «إن الله جل ثناؤه لا يعذب شاكراً ولا مؤمناً».

١٢٤٩

قال القشيري: «هذه آية توجب حسن الرجاء وقوة الأمل؛ لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبة شيئين اثنين: الشكر والإيمان، وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان، فإن الشكر مقالة، والإيمان حالة، ولقد هوّن السبيل على العبد حين رضي منه بمقالته وحالته».

١٢٥٠

قال الزمخشري: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]:

«أيتشفى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يستجلب به نفعاً؟ أم يستدفع به ضرراً؟ كما هو شأن الملوك».

وهو الغني المتعالي الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، وإنما هو أمر اقتضته الحكمة أن يعاقب المسيء، فإن قمتم بشكر نعمته وآمنت به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقاق العذاب».

الجزء السادس

من سورة النساء من الآية ١٤٨
إلى سورة المائدة آية ٨١
عدد الفوائد: ٢٥١

قال ابن رُشَيْق المغربي:

«وقال (أي شيخ الإسلام ابن تيمية): قد فتح الله
عليّ في هذا الحصن في هذه المدة من معاني القرآن،
ومن أصول العلم بأشياء مات كثير من العلماء
يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير
معاني القرآن».

أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٢٢

الجزء السادس من سورة النساء من الآية ١٤٨ إلى سورة المائدة آية ٨١

﴿لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]:

١٢٥١

قال السعدي:

«فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه ويتشكى منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه وعدم مقابله أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾».

﴿لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨]:

١٢٥٢

يريد الله أن يحمي آذان المجتمع من قول السوء والألفاظ الرديئة؛ لأن الناس تتكلم بما تسمع، والنطق بالكلمة السيئة سيرهق أجيالاً قادمة؛ لأن من يسمع يردّد، ويلقي إلى غيره فينشر، فينتشر السوء كالوباء، ويتحمل الوزر من نطق به أول مرة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨]:

١٢٥٣

هذا التذييل مقصود به التحذير من التعدي في الجهر بالسوء المأذون فيه، ووعد للمظلوم بأن الله تعالى يسمع شكواه ودعائه، ويعلم ظلم ظالمه له.

حجة المظلوم وإن لم يسمعها أحد، فإن الله سامعها، وقادر على الانتصار لها.

١٢٥٤

﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]:

١٢٥٥

الجزء من جنس العمل، فمن عفا عن الناس، عفا الله عنه.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ

بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]:

يقول اليهود: نؤمن بالله وبموسى ونكفر بعيسى ومحمد، والنصارى يقولون: نؤمن بالله وبموسى وعيسى ونكفر بمحمد.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠]:

من الكافرون حقاً؟! قال ابن كثير:

«والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن ردَّ نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي، تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية».

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠]:

الجزاء من جنس العمل! كما استهانوا بمن كفروا بهم من الأنبياء، فقد سلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ

يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَقَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢]:

مدح أمة محمد ﷺ! شبَّهوا الإيمان بالأنبياء جميعاً بمثل قريب، وأنهم مثل الولاة الذين يرسلهم السلطان إلى البلاد، والكتب التي جاءوا بها كمثل القوانين التي تصدر إدارة الدولة بالعمل بها، (ولا حرج في ضرب الأدنى مثلاً للأعلى)، فكل والٍ يحترم لأنه من قبل السلطان، وكل قانون يُعمل به لأنه منه، وإن كان الأخير ينسخ ما قبله، فالتفرقة إما من جهل هذه الحقيقة، وهو جهل حقيقة الرسالة والكتب المنزلّة، وإما من اتباع الهوى وإيثاره على طاعة الله ورسله، فالمؤمنون يعرفون حقيقة الرسالة، وبها يعرفون الرسل، فلا يفرقون بين أحد منهم. ذكره رشيد رضا في تفسير المنار.

١٣٦

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: ١٥٣]:

قال قتادة: سألت اليهود النبي ﷺ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بكتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَاصٌّ لليهود، يأمرهم فيه بالإيمان بمحمد ﷺ، وزاد في رواية ابن جريج: «إلى فلان، وإلى فلان أنك رسول الله».

١٣٦

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾

[النساء: ١٥٣]:

في هذه الآية تسلية للنبي ﷺ، ودلالة على جرأة اليهود وتعنتهم وعنادهم، وإظهار أن الرسل لا تجيب مقترحات أمهم في طلب المعجزات، بل تأتي معجزاتهم بإرادة الله تعالى عند تحدي الأنبياء، ولو أجاب الله المقترحين إلى ما اقترحوا من المعجزات، لجعل رسله بمنزلة المشعوذين. ذكره الطاهر بن عاشور

١٣٦

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤]:

ميثاقاً غليظاً يناسب طبيعتهم الغليظة وقسوة قلوبهم وعموم غفلتهم وسهولة تسيبهم.

١٣٦

البلاء موكل بالمنطق: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥] أي لا تعي شيئاً، فنزل بهم بلاء: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً﴾.

١٣٦

﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِّثْقَهُمْ وَكُفِّرْهُمْ بِغَايَةِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥]:

كل من وجد في قلبه قسوة، فليحذر أن يكون نقض مع الله عهداً.

١٣٦

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]:

كلمة واحدة اتهموا بها مريم أدت إلى كفرهم! احذر لسانك!

وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً يعني: أنهم رموها بالزنى.

﴿وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بَهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]:

لم يبين هنا ما البهتان العظيم الذي رموا به الصديقة مريم العذراء، لكن المعنى واضح، ولم يذكرها بما رموها به مبالغة في تبرئتها، واعترافاً بعفتها وفضلها.

ومن أسباب كفرهم أنهم أنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب، ومن أنكروا قدرة الله كافر.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٥٧]:

اختلفوا في حقيقة قتله وصلبه، فقال بعض اليهود: قتلناه، وتردد آخرون فقالوا: إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا، وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟! وقال آخرون: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا!

واختلفوا في حقيقته، فمنهم من زعم أنه ابن الله، ومنهم من قال إن فيه عنصراً إلهياً وعنصراً إنسانياً، وأن الذي ولدته مريم هو العنصر الإنساني، ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهي؛ ولذا انقسم النصارى إلى عدة طوائف.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]:

الحق المتيقن الذي يعتقده كل مسلم أن اليهود لم يقتلوا عيسى، فقد نجاه الله من مكبرهم، ورفعته حياً إلى السماء، وهو الآن حيٌّ فيها، وسينزل آخر الزمان عند قرب الساعة، ويقتل الدجال ويحكم بالشرعية المحمدية، ويتوفى بعدها ويُدفن، فهو حيٌّ إلى الأبد، يعني إلى قرب قيام الساعة، ونزوله وموته من أمارات الساعة الكبرى.

قال الراغب:

«سمي عيسى بالمسيح لأنه مُسِحَتْ عنه القوة الذميمة، من الجهل والشره والحرص وسائر الأخلاق الذميمة، كما أن الدجال مُسِحَتْ عنه القوة المحمودة من العلم والعقل والحلم والأخلاق الحميدة».

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]:

١٢٧٣

ردّ العلماء على من زعم أن المسيح ابن الله، وأنشدوا:

عجباً للمسيح بين النصارى
أسلموه إلى اليهود وقالوا:
فإذا كان ما يقولون حقاً
حين خلى ابنه رهين الأعاذي
فلئن كان راضياً بأذاهم
ولئن كان ساخطاً فاتركوه
وإلى أيّ والدٍ نسبوه
إنهم بعد ضرب به صلبوه
وصحيحاً، فأين كان أبوه؟!
أتراهم أَرْضوه أم أغضبوه؟
فاحمدوهم لأنهم عذَّبوه
واعبدوهم لأنهم غلبوه!

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]:

١٢٧٤

ردُّ صريح وإنكار واضح لقتل عيسى عليه السلام، وإثبات رفعه إلى السماء
بروحه وجسده، رفعه الله إليه وسينزل!

بدأت قصة عيسى عليه السلام بمعجزة خرقت النواميس، فقد وُلد من أم
دون أب، فإن صدقتم معجزة الميلاد، فكيف لا تصدِّقون معجزة الرفع إلى
السماء؟!

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ

١٢٧٦

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]:

إما أن الضمير يعود إلى عيسى عليه السلام، بمعنى أن ليس من أحد من أهل
الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى - عند نزوله في آخر الزمان - حق الإيَّان، أو أن
الضمير عائد للكتابي ساعة الاحتضار، فيتجلَّى له الحق عند الموت، فيؤمن
بعيسى عليه السلام، ويشهد أنه عبد الله ورسوله، لكن لا ينفعه هذا الإيَّان
لأنه جاء وقت الغرغرة.

﴿فَيُظْلَمُ مَنْ الظَّالِمِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ﴾ [النساء: ١٦٠]:

١٢٧٧

من شؤم الظلم أن يزيل النعم، فلا تعود ترجع إلا باستغفار وتوبة!!

١٢٧٨

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾ [النساء: ١٦٠]:

قال النبي ﷺ: «إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه»، فالعصيان من أعظم أسباب الحرمان.

١٢٧٩

﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]:

من شؤم الربا وأضراره أن الله حرّمه في كل الشرائع، وعلى لسان جميع الأنبياء.

١٢٨٠

هذه الآية مدنية، ولم يكن الربا قد حُرّم على المسلمين، لكنه تحريم (بالتلميح) لا (بالتصريح)؛ لأنه حكاية عن جرائم اليهود وليس فيه ما يدل دلالة قطعية على تحريم الربا على المسلمين، وكانت هذه الآية خطوة من خطوات سُنّة تدرج تحريم الربا.

١٢٨١

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢]:

عن ابن عباس قال: «نزلت في عبد الله بن سلام وأسيد بن سعية وثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد، حين فارقوا يهود، وشهدوا أن الذي جاء به رسول الله ﷺ حق من الله، وأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم».

١٢٨٢

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ [النساء: ١٦٢]:

الرسوخ في العلم ليس بكثرة التأليف ولا بسرد الأقوال، بل بصلاح الأعمال وطهارة الأحوال.

١٢٨٣

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢]:

الوعد بالأجر العظيم للراسخين من أهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا مرتين،

برسولهم وبمحمد ﷺ، وفي الحديث الصحيح: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ، فأمن به واتبعه وصدقه، فله أجران،...». صحيح الجامع رقم: ٣٠٧٣.

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢]:

كيف جاءت منصوبة، والسياق يقتضي الرفع؟!
والجواب: أنها منصوبة على الاختصاص والمدح، أي وأمدح وأخص المقيمين الصلاة، وذلك لبيان فضل الصلاة وشرفها، ومثل هذا التخصيص لم يكن واقعاً لو جاءت الآية بالرفع: (وَالْمُقِيمُونَ الصَّلَاةَ).

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]:

قال الجمل: «وإنما بدأ الله تعالى بذكر نوح عليه السلام؛ لأنه أول نبي بُعث بشريعة، وأول نذير على الشرك. وكان أول من عُذبت أمته لردهم دعوته، وكان أطول الأنبياء عمراً».

ما الفارق بين النبي والرسول؟! قال الطاهر بن عاشور: «والقول الصحيح أن الرسول أخص، وهو من أوحى إليه مع الأمر بالتبليغ، والنبي لا يؤمر بالتبليغ، وإن كان قد يبلغ على وجه الأمر بالمعروف والدعاء للخير، يعني بدون إنذار وتبشير».

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]:

لا يكن همك أن تشتهر، فما دام الله راضياً عنك فهذه أعظم شهرة، حتى الرسل لم يضرهم أن أخفى الله أسماء بعضهم في كتابه.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]:

البشارة قبل النذارة، والترغيب قبل التهيب، وكلاهما مطلوب.

﴿لَعَلَّأ يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]:

قال القشيري: «أتى يكون لمن له إلى الله حاجة على الله حجة؟! ولكن الله خاطبهم على حسب عقولهم».

﴿١٢٩﴾ كان أبو عبد الرحمن السُّلَمي إذا أقرأ أحدًا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحدٌ اليوم أفضل منك إلا بعملك، ثم يقرأ: ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿١٣٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]: الضلال أعم من الكفر، فكل كفر ضلال، وليس كل ضلال كفرًا، والناس في الضلال نوعان: ضال غير مضل، وضال مضل، وهو أعظمها جرمًا وأكبرها عقابًا، وهذا هو الضلال البعيد.

﴿١٣١﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨]: قال القرطبي:

«يعني اليهود، أي ظلموا محمدًا بكتمان نعته، وأنفسهم إذ كفروا، والناس إذ كتموهم».

﴿١٣٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٨]: نفى عن الله أن يغفر لهم، وهو قمة التحذير من البقاء على الكفر والظلم، فإن هذا الحكم تعلق بوصف ولم يتعلق بشخص، فعليهم أن يقلعوا عن الكفر والظلم حتى لا يكونوا من الذين كفروا وظلموا.

﴿١٣٣﴾ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٩]: والخلود هو المكث الطويل، وقوله ﴿أَبَدًا﴾ لرفع احتمال أن يراد بالخلود المكث الطويل بل لإفادة العذاب الأبدي.

﴿١٣٤﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَظَانَمُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]:

هذه الآية تشير لعالية الرسالة؛ لأن رسالته ﷺ عامة وتشمل الناس جميعًا.

﴿وَأِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

﴿١٢٩٦﴾

[النساء: ١٧٠]:

لن يتغير شيء في هذا الكون بكفر أحد، سوى سخط الشجر والحجر عليه، فإن الكون كله خاضع لله طائع له، وابن آدم هو أكفر الخلق.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]:

﴿١٢٩٧﴾

لا ترفعوا عيسى عليه السلام فوق قدره، فتدَّعوا ألوهيته، ولا تغلوا حتى مع رسول الله ﷺ، ففي الحديث: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله». صحيح الجامع رقم: ٧٣٦٣.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]:

﴿١٢٩٨﴾

أي خلقه الله بكلمة (كن) كما خلق آدم، فقد خلق من غير بذر يبذر في رحم أمه، فما كان تكوينه بالأسباب التي تجري في دنيا الناس، ولذلك سُمي كلمة الله.

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]:

﴿١٢٩٩﴾

لا تنطقوا بهذه الكلمة، والتثليث شعار النصارى كما أن كلمة الشهادة شعار المسلمين، ومن عادات النصارى الإشارة إلى التثليث بالأصابع الثلاثة: الإبهام والخنصر والبنصر، فمقصود الآية النهي عن التثليث نطقاً واعتقاداً.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾

﴿١٣٠٠﴾

[النساء: ١٧٢]:

قال القشيري: «كيف يستنكف عن عبوديته وبالعبودية شرفه؟! وكيف يستكبر عن التذلل وفي استكباره تلفه؟! ولهذا الشأن نطق المسيح أول ما نطق بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، وتجمل العبيد في التذلل للسادة، هذا معلوم لا تدخله ريبة».

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾

[النساء: ١٧٢]:

قال الطاهر بن عاشور: «واعلم أن تفضيل الأنبياء على الملائكة مطلقاً هو قول جمهور أهل السنة، والمسألة اجتهادية، ولا طائل وراء الخوض فيها، وقد نهى النبي ﷺ عن الخوض في تفاضل الأنبياء، فما ظنك بالخوض في التفاضل بين الأنبياء وبين مخلوقات عالم آخر لا صلة لنا به؟!»

سبب نزولها: أن وفداً من نجران قالوا للنبي ﷺ: لم تعيب صاحبنا يا محمد؟ قال: «ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى، قال ﷺ: وأي شيء قلت؟ قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله. قال ﷺ: «إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله».

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾

[النساء: ١٧٣]:

معاملة الكريم لنا بالفضل لا بالعدل.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

[النساء: ١٧٣]:

قدّم الله ثواب المؤمنين على عقاب المستكفين؛ لأن العصاة إذا رأوا أولاً ثواب المطيعين، ثم شاهدوا بعده عقاب أنفسهم، كان ذلك أعظم في حسرتهم وندامتهم.

﴿رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾

[النساء: ١٧٤]:

بقدر حظ قلبك من القرآن يكون نصيبه من الهداية والنور.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾

[النساء: ١٧٤]:

ما الاعتصام بالله؟! قال ابن القيم: «وأما الاعتصام به فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به هو الدفع عن العبد، والله يدافع عن الذين آمنوا،

فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب، ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه».

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤]:

فوعده الله من آمن به واعتصم به بثلاثة أمور: الرحمة والفضل والهداية. قال ابن عباس: «الرحمة الجنة، والفضل ما يتفضل به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً يريد ديناً مستقيماً».

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤]:

قال الإمام الرازي: «الرحمة والفضل محمولان على ما في الجنة من المنفعة والتعظيم، وأما الهداية فالمراد منها السعادة الروحانية، وآخر ذكرها عن القسمين الأولين تنبيهاً على أن البهجة الروحانية أشرف من اللذات الجسدية».

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ إِمْرَأَةٌ أَخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]:

سبب نزولها: أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال: دخل عليّ النبي ﷺ وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ فصبّ عليّ أو قال: صبوا عليه، فعقلت، فقلت: إنه لا يرثني إلا كلاله، فكيف الميراث، فأنزل الله آية الفرائض.

من رحمة الله بنا أن قطع أسباب الخصومة في الميراث بما أنزل من الآيات، فإن المال محبّب للإنسان، وجبّلت النفوس على الشحّ، فلو لم ينص الله على تفاصيل القسمة، لدبّت العداوة والبغضاء بين الورثة.

٣٣١

جاء جزء من معنى الكلالة في الآية: ﴿إِنْ أَمْرُؤَا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُدْ﴾ [النساء: ١٧٦]، وجزء آخر معلوم ضمناً: وليس له والد، فأصل الكلالة: من مات رجلاً أو امرأة ليس له والد ولا ولد، ولا جد ولا حفيد.

٣٣٢

قد يقول قائل: كيف قال الله في الآية المتقدمة في السورة: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَتْ كَلَلَةً أَوْ أَمْرَةً وَلَهُدْ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١٢]، ويقول هنا: ﴿إِنْ أَمْرُؤَا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُدْ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ﴾ [النساء: ١٧٦]، فهذه كلالة وهذه كلالة، فما الفارق؟

والجواب: الكلالة في أول السورة هي الأخت لأم أو الأخ لأم، أما الكلالة في آخر السورة فهي للإخوة الأشقاء، وفارق بين القسمتين.

٣٣٣

قال عمر: إني والله لا أدع شيئاً أهم إلي من أمر الكلالة، وقد سألت رسول الله ﷺ عنها، فما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها، حتى طعن بإصبعه في جنبي أو في صدري ثم قال: «يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي أنزلت في آخر سورة النساء».



سورة المائدة

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَحَكُّمٌ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]:

ما هذه البلاغة! حكى النقاش أن أصحاب الكِندي قالوا له: أيها الحكيم.. اعمل لنا شيئاً مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: «والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرتُ فإذا هو نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلَّ تحليلًا عامًا، ثم استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا».

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]:

معطوف على شعائر الله، والمراد به الجنس، فدخل في ذلك جميع الأشهر الحرم، وهي أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم، ورجب، وسُمِّي الشهر حراماً باعتبار أن إيقاع القتال فيه حرام.

﴿وَلَا تَجْرِمَنكُمْ شَتَاقُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]:

حذارِ أن تدفعكم كراهية أحد إلى الجور عليه والعدوان. قال ابن كثير: «لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد، في كل حال».

عن زيد بن أسلم قال: «كان رسول الله ﷺ وأصحابه بالحديبية، حين صدّهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم ناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال الصحابة: نصده هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فنزلت هذه الآية».

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]:

١٣١٨

والإثم هو التجرؤ على معصية الله التي يأثم صاحبها، والعدوان هو التعدي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فكل إثم وعدوان يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

١٣١٩

دِينًا﴾ [المائدة: ٣]:

اليوم المشار إليه هو يوم عرفة، إذ أتم الله دينه، ونصر رسوله، فبُئس الكفار كل اليأس من المؤمنين أن يردوهم عن دينهم، وفي هذا العام حجَّ النبي ﷺ حجة الوداع، فلم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

قال يهودي لعمره ﷺ: آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك

١٣٢٠

اليوم عيدًا. قال: وأي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. قال عمر: إني أعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على النبي ﷺ وهو واقف بعرفة يوم الجمعة.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]:

١٣٢١

أي نعمة هذه؟! ورسول الله ﷺ ينام في غرفة من طين، ويربط الحجرين على بطنه من شدة الجوع، ويتوسد حصارًا يؤثر في جنبه، ويرهن درعه عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير، ويدور ثلاثة أيام لا يجد رديء التمر يأكله؟! إنها نعمة الإسلام.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤]:

١٣٢٢

قال ابن القيم: «من شرف العلم أنه لا يُباح إلا صيد الكلب العالم -أي المدرب-». حتى الكلاب تتمايز بينها بالعلم!

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ [المائدة: ٤]:

١٣٢٣

رحمة وتوسعة من الله عز وجل على عباده، فقد أباح الصيد بسباع البهائم

والطير؛ لمشقة أن يصطاد الإنسان بنفسه في كل وقت؛ لأنَّ الصيد قد يكون في قمة جبل أو أدغال غابة، ولا يستطيع أن يصيده بنفسه.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبُ﴾ [المائدة: ٥]:

ليس الطَّيْب ما تستطيه النفوس، لكن الطيب ما يحقق رضا الله، فتوجد معه راحة القلوب وسكينة النفوس.

الإسلام دين الفطرة، فلم يُحَرِّم الله إلا كل خبيث، وكل ما ينفع الناس أحله الله.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]:

من تيسر الله للمسلمين أن ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم دون ذبائح الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]:

قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة جماعة، منهم عثمان، وطلحة، وابن عباس، وجابر، وحذيفة، فتزوج عثمان رضي الله عنه نائلة بنت القراقصة الكلبية النصرانية، وأسلمت عنده، وتزوج حذيفة يهودية من أهل المدائن، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وطاووس، وعكرمة.

الزواج من نساء أهل الكتاب - وإن كان جائزاً - إلا أنه مكروه، خوفاً من أن يميل إليها فتفتنه عن دينه، فإن كانت حربية فيرى بعض العلماء حرمة الزواج منها، فقد سئل ابن عباس عن ذلك فقال: لا تحل.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]:

في الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى قوماً يتوضؤون وأعقابهم تلوح، فنأى بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار» مرتين.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]:

تعليلٌ لرخصة التيمم، وهي أصلٌ لقاعدة: (المشقة تجلب التيسير).

قال الإمام الرازي: «أصلٌ كبيرٌ في الشرع، وهو أن الأصل في المضارّ ألا تكون مشروعة».

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]:

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معترلاً لم يُصلِّ مع القوم، فقال: «يا فلان، ما منعك أن تُصلي مع القوم؟» فقال: أصابتنِي جَنَابَةٌ ولا ماء، فقال: «عليك بالصَّعيد؛ فإنه يكفيك».

فائدة فقهية:

من كان على طهارة مائية ولم يجد الماء، فإنه يُباح له الوطء (الجماع)، ويتيمم بعد ذلك، وهذا باتفاق المذاهب الأربعة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٧]:

أمرٌ من الله لعباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، وذكرها يكون بقلوبهم وألسنتهم، ففي دوام ذكرها داعٍ لشكرها، وامتلاء القلب بمحبة الله، وفيه كذلك نزع إعجاب المرء بعمله الصالح، لأنه من نعمة الله عليه.

إشارة إلى أن كثرة النعم يجعلها كالأمر المعتاد؛ مما يورث الغفلة عن شكرها، فكان هذا التذكير الإلهي.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]:

خلافك مع غيرك يجب ألا يخرجك عن دائرة العدل وقول الحق.

قال ابن روضة لليهود: والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ، يعني رسول الله ﷺ، ولأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي لكم وحبي إياه أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

[المائدة: ٩]:

العبد وإن كانت له أعمال صالحة، فإنه غير مستغنٍ إلى عفو الله وغفرانه، ولولاه هلك.

وعد الله لا يتخلف! قال الإمام الرازي: «وهذا يمتنع الخُلف في وعده؛ لأن دخول الخُلف إنما يكون إما للجهل حيث ينسى وعده، وإما للعجز حيث لا يقدر على الوفاء بوعده، وإما للبخل حيث يمنعه البخل عن الوفاء بالوعد، وإما للحاجة، فإذا كان الإله هو الذي يكون منزَّهاً عن كل هذه الوجوه، كان دخول الخلف في وعده محالاً».

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

[المائدة: ١٠]:

قال الإمام الرازي: «هذه الآية نصٌّ قاطع في أن الخلود ليس إلا للكفار؛ لأن قوله ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يفيد الحصر، والمصاحبة تقتضي الملازمة كما يقال: أصحاب الصحراء، أي الملازمون لها».

﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾

[المائدة: ١١]:

كم من خطر أهدق بك وأنت عنه غافل، حرسك الله منه دون أن تحس. كثيرٌ من النَّاسِ يظن أن النِّعم هي الإيجاد، وهذا قصورٌ في الفهم؛ فالنِّعمة: إما إيجاد خير معدوم، أو كَفُّ شرٍّ موجود؛ والله يجب أن يُشْكِرَ على هذا وذاك.

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾

[المائدة: ١٢]:

أقرب العباد إلى الله أكثرهم صلاة، وهم الفائزون بمعية التأييد والنصرة.

﴿لَأَكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾

[المائدة: ١٢]:

تكفير السيئات إشارةٌ إلى إزالة العقاب، ودخول الجنات إشارةٌ إلى إيصال الثَّواب؛ فجمَعَ لهم بين اندفاع المكروه بتكفير السيئات وما يترتب عليها من عقوبات، وحصول المحبوب بدخول الجنَّات.

١٣٤٥

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]:

ألا ما أقبح الضلال بعد الإيمان! قال الرازي: «لأنَّ الكُفْرَ إِنَّمَا عَظُمَ قُبْحُهُ لِعَظَمِ النِّعْمَةِ المكفورة، فإذا زادتِ النعمة (بالإيمان) زاد قُبْحُ الكُفْرِ، وبلغ النهاية القصوى».

١٣٤٦

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]:

ومن أحبه الله أحبته الملائكة والناس أجمعون.

١٣٤٧

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ﴾ [المائدة: ١٤]:

ادعاءتكم باطلة! لم يقل: «ومن النصارى» إشارة إلى أن ادعاءهم النصرانية - وهي الدين الذي جاء به عيسى - هو قولٌ بأفواههم دون أن يتبعوه بقلوبهم، إذ لو كانوا متبعين له حقًا لآمنوا بمحمد ﷺ الذي بشر به عيسى عليه السلام.

١٣٤٨

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤]:

قال قتادة: «لما تركوا كتاب الله، وعصوا رسله، وضيعوا فرائضه، وعطلوا حدوده، ألقى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ولو أخذ القوم كتاب الله وأمره، ما افترقوا ولا تابغضوا».

١٣٤٩

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤]:

قال عبد الله بن مسعود: قد ينسى العبد بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية:

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤].

١٣٥٠

﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ

تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]:

من أخلاق النبوة العفو والتغافل! فقد عفا النبي ﷺ عن كثير من أفعال اليهود، كإخفائهم آية الرجم، وقصة أصحاب السبت، وذلك من أمارات خُلِّقه وبرهان حلمه.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]:

من غير نور الوحي سنجني التخطي في ظلمات الحيرة وعماية الضلالة.

المراد بالنور هنا: محمد ﷺ، فهو نور الأنوار كما قال الألوسي.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦]:

سبل السلام هي طرق الحق، والظلمات والنور استعارة للضلال والهدى، والظلمات جمع؛ لأن سبل الكفر متشعبة، والنور مفرد؛ لأن طريق الحق واحد.

﴿بِإِذْنِهِ﴾ [المائدة: ١٦]:

الباء تتعلق باتباع رضوان الله، فاتباع رضوان الله لا يكون إلا بتوفيق الله.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ

وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]:

لو كان عيسى إلهًا لاستطاع أن يدفع ما نزل به أو بغيره، وقد أمات الله أمه فلم يستطع دفع الموت عنها، وهذا خطاب القرآن للعقول.

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]:

قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا

يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فتلا الشيخ هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨].

لهذه الآية شاهد في مسند أحمد عن أنس: مرَّ النبي ﷺ في نفر من أصحابه،

وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت

تسعى وتقول: ابني.. ابني! وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما

كانت هذه لتلقي ابنها في النار.

فقال ﷺ: «لا.. والله ما يلقي حبيبه في النار».

١٣٥٨

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]:

كانت هذه الفترة بين عيسى عليه السلام - آخر أنبياء بني إسرائيل - ومحمد ﷺ، كما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، ليس بيني وبينه نبي».

١٣٥٩

﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]:

أسقط الله هذه الحجة الباطلة المتوقعة لأهل الكتاب، فأرسل محمداً ﷺ حتى لا يتذرعوا يوم القيامة بعدم إرسال رسول.

١٣٦٠

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]:

التنكير هنا لتعظيم شأن النبي ﷺ، وإشارة إلى أهم وظيفتين من وظائف النبوة: البشارة والنذارة.

١٣٦١

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ آذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ

أَنْبِيَاءً وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]:

خصَّ الله بني إسرائيل بألوان عظيمة من الإكرام لم يؤتها أحداً غيرهم: فلق لهم البحر، وأهلك عدوهم أمام عيونهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأخرج لهم ماء عذبا من الصخر، وأظلمهم بالغمام، ولم يجمع لقوم بين الملك والنبوة كما جمع لهم.

١٣٦٢

﴿يَنْقُومِ آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ

أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]:

الأرض المقدسة هي بيت المقدس، وتقديسها: تطهيرها من كل خبث؛ لذا فواجبنا اليوم: تطهيرها من دنس اليهود.

١٣٦٣

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]:

كان في الأرض المقدسة قوم جبارون، فوعدهم الله بأن تلك الأرض ستكون لهم، ليقدّموا على قتالهم من غير جبن ولا خوف ولا هلع.

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]:

خمس صفات لأصحاب العقلية السلبية:

تضخيم حجم العدو، واختلاق الأعذار، وعدم تحمل المسؤولية، وإلقاؤها على الغير، وتبني الكلمات السلبية.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ^١ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]:

ست صفات لأصحاب العقلية الإيجابية:

الصدق بآرائهم، وعدم الخوف إلا من الله، والمبادرة، وإحسان الظن بالله، والتوكل على الله، وتبني الكلمات الإيجابية.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣]:

أنعم عليهم بنعم الإيمان والثبات والثقة بوعد الله وطاعة أوامره، وهي كلها نعم دينية، لا يلتفت إليها أكثر الناس؛ ولذا لا يؤدّون شكرها، ويجزعون لمصائب الدنيا وحدها.

الشجاعة نعمة من أعظم النعم.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة: ٢٣]:

من خاف من الله حقاً لم يخف من الخلق.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]:

المبادرة المبادرة، والهجوم خير وسيلة للدفاع.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾

﴿١٣٧٠﴾

[المائدة: ٢٣]:

لم يلق نصح الرجلين استجابة من قومهم، لكن القرآن خلّد ذكرهم بهذه الكلمات.. مقاييس النجاح عند الله مختلفة!

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ۖ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

﴿١٣٧١﴾

فَقَتِيلًا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]:

بهذا الكلام الشنيع ظهر التفاوت بين اليهود وأصحاب النبي ﷺ حيث قام المقداد بن عمرو يوم بدر، فقال: والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِيلًا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥]:

﴿١٣٧٢﴾

يا رب.. تقبّل مني نفسي، فلن أتأخر عن بذلها في سبيلك إن أمرت، وكذلك نفس أخي.. ما أجل تجديد العهد مع الله كلما غفلت!

﴿فَأَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]:

﴿١٣٧٣﴾

أي خلّصنا من صحبة الفاسقين، ويحمل كذلك معنى الدعاء عليهم: افصل بيننا وبينهم؛ بأن تحكم لنا بما نستحق، وتحكم عليهم بما يستحقون.

لا تعاقبنا بذنوبهم، فإننا لمعصيتهم منكرون، ولأعمالهم كارهون.

﴿١٣٧٤﴾

فراق الفجرة من سمات البررة.

﴿١٣٧٥﴾

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]:

﴿١٣٧٦﴾

المجاهرة بالذنوب والاجترأ على المعصية تُعَجِّلُ بالعقوبة.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]:

﴿١٣٧٧﴾

لعل موسى شعر بالضيق من دعائه فقال لنفسه: لماذا لم أدع لهم بالهداية بدلاً من الدعاء عليهم بالفراق؟ فقال الله له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧]:

هذه القصة مهمة مهمة، وعلامة أهميتها أن الله أمر نبيه أمرًا خاصًا أن يتلو تفاصيلها علينا.

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]:

القبول لا يخضع لظاهر العمل، بل لما وقر في قلبك من التقوى.

﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]:

القاتل لا يخاف الله، ولو خافه ما قتل.

قال أيوب السخيتاني: «إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿لَيْنُ

بَسَطَتْ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ لعثمان بن عفان ؓ».

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]:

الخائف من الله لا يُقدم على الذنوب، خاصة كبائر الذنوب.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [المائدة: ٢٩]:

كيف يبوء بإثمه وإثم غيره، والله تعالى قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾!؟

والجواب: قال ابن عباس وابن مسعود: «معناه تحمل إثم قتلي، وإثمك الذي

كان منك قبل قتلي».

﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]:

في الحديث الذي أخرجه الشيخان: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظلمًا

إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمه؛ لأنه أول من سنَّ القتل». صحيح

الجامع رقم ٧٣٨٧.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ﴾

[المائدة: ٣١]:

شكرًا لك أيها الغراب.. علّمتنا درسًا من دروس الأخوة.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ﴾

١٣٨٦

[المائدة: ٣١]:

تعلم من كل من حولك حتى لو كان أقل منك، فقد تعلم ابن آدم من غراب كيف يدفن أخاه.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]:

١٣٨٧

أليس الندم توبة، فلم لم يُقبل منه؟ أجيب عن هذا: لم يكن ذلك ندم توبة، وقيل: إنما ندمه كان على فقدته لا على قتله، وإن كان فلم يكن موفياً شروطه. قال ابن عباس: «ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه».

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]:

١٣٨٨

هذا أعظم نص عرفته البشرية في تعظيم قتل النفس، قال الزمخشري في فائدة هذا التعبير: «تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب، وليشمئز الناس عن الجسارة عليها، ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها؛ لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعاً، عظم ذلك عليه فثبطه - عن القتل - وكذلك الذي أراد إحياءها».

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ

١٣٨٩

الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]:

هذه آية حكم قطاع الطرق، فأخبر الله أن جزاءهم ونكاحهم - عند إقامة الحد عليهم - أن يفعل بهم واحد من هذه العقوبات.

اختلف المفسرون:

١٣٩٠

هل الأمر هنا على التخيير، فيفعل الإمام أو نائبه ما يراه من العقوبات تجاه قاطع الطريق، أو أن عقوبتهم بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها عقوبة بحسب شدتها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

١٣٩١

رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]:

إذا كانت التوبة قبل القدرة عليه، تمنع من إقامة الحد في الحراة، فغيرها من الحدود - إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه - من باب أولى.

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]:

١٣٩٢

كل قرية تقرب من الله فهي وسيلة، فكل عمل صالح، وكل اجتناب لمعصية هو وسيلة إلى الله.

الوسيلة هي الوصلة التي تُوصل إلى طاعة الله ورضوانه ومحبته، وهل يتقرب إنسان إلى أحد يحبه إلا بما يعلم أنه يُحبه؟ فما بالناس بالتقرب إلى الله؟ وما يُحبه الله سبحانه أو ضحه في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه».

١٣٩٣

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَا مَعَهُ لَيَفْتَدُوا

١٣٩٤

بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦]:

لو آمنوا قبل موتهم بدقيقة لكفاهم عذاب الأبد، لكن لما تأخروا لم يقبل الله منهم كنوز الأرض جميعاً ولا ضعفها، للأسف تأخروا!

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

١٣٩٥

مُقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]:

قد يستعظم البعض العذاب الأبدي للكفار في مقابل عصيانهم المحدود بأعمارهم في الدنيا، وقد أجيب على هذا بأن الله خلّد أهل النار في النار؛ لأن نياتهم في الدنيا لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وقد قال الله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]:

١٣٩٦

استدل بهذه الآية وغيرها على وجوب تنصيب الإمام؛ لأن الله أوجب بهذه

الآية إقامة الحدِّ على السَّرَّاق، وأجمعت الأمة على أنه ليس لأحد الرعية إقامة الحدود، فوجب وجود الإمام لتنفيذ هذا التكليف، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]:

ختم الله آية حد السرقة بهاتين الصفتين، فهو عزيز في انتقامه من المفسدين، حكيم في تقديره الحدود حفظاً لمصالح عباده.

قال الأصمعي: كنتُ أقرأ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا

كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وبجانبني أعرابي، فقال كلام من

هذا؟ قلت: كلام الله، قال: ليس هذا كلام الله، فانتبهت فقرأت: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] فقال: أصبت.. هذا كلام الله، فقلت: أنقرأ القرآن؟ قال:

لا. قلت: من أين علمت؟ قال: يا هذا.. عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما

قطع.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]:

أكل الحرام نقصان في كل شيء، في الإيمان وفي الأبدان.

يقول صاحب الظلال: «والرَّدع عن ارتكاب الجريمة رحمة بمن تحدّثه نفسه بها،

لأنه يكفه عنها، ورحمة بالجماعة كلها لأنه يوفر لها الطمأنينة، ولن يدّعي أحد أنه

أرحم بالناس من خالق الناس، إلا وفي قلبه عمى، وفي روحه انطماس!».

﴿نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ﴾ [المائدة: ٣٨]:

سُمِّيت عقوبة السارق نكالاً؛ لأنها تردع من شاهد العقوبة عن ارتكاب مثلها

حتى لا تُقَطَّع يده ويفتضح بين الناس.

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ﴾ [المائدة: ٣٩]:

الظلم عمل إيجابي شرير مفسد، فلا يكفي في التوبة أن يكف الظالم عن ظلمه،

بل لا بد أن يعوّضه بعمل إيجابي صالح، يصلح به ما أفسده.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٤٠]:

كأنه جواب لمن تساءل عن انقلاب حال السارق التائب من العقوبة إلى المغفرة، بأن الله هو المتصرف في السماوات والأرض وما فيهما، وهو العليم بمواضع العقاب ومواضع العفو.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٤٠]:

لماذا قدّم العذاب على المغفرة؟! لثلاثة أسباب. قال الألوسي: «لأن التعذيب للمُصِرِّ على السرقة، والمغفرة للتائب منها، وقد قدّمت السرقة في الآية أولاً، ثم ذكّرت التوبة بعدها، فجاء هذا اللاحق على ترتيب السابق. أو لأن المراد بالتعذيب القطع، وبالمغفرة التجاوز عن حق الله، والأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فجيء به على ترتيب الوجود. ولأن المقام مقام الوعيد».

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]:

آية ينتفض لها القلب خوفاً، فالمدار في صلاحك أو فسادك بحسب قلبك، فراقب قلبك باستمرار.

سين: ما الحكمة في إرادة الله فتنة بعض خلقه؟

جيم: هم بدأوا! زاغوا فأزاعهم، وابتعدوا فأبعدهم، وانحرفوا فعاقبهم على انحرافهم ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رُبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤٢]:

ذمّ الله سماع الكذب، فما بالك بمن يردّده وينشره؟!

﴿أَكْثِلُونِ لِلشُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]:

أي الحرام. قال ابن جرير: «شفع مسروق لرجل في حاجة فأهدى إليه جارية، فغضب مسروق غضباً شديداً وقال: لو علمت أنك تفعل هذا ما كلمت في حاجتك، ولا أكلمه فيما بقي من حاجتك. سمعت ابن مسعود يقول: «من شفع شفاعة ليرد بها حقاً، أو يرفع بها ظلماً، فأهدى له، فقبل، فهو سحت».

﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]:

قال أبو حنيفة: «إذا ارتشى الحاكم انزل في الوقت وإن لم يُعزل (أي استحق العزل)».

﴿وَكَيْفَ تَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣]:

تعجب من تحكيمهم لآراء البشر وتركهم لحكم الله، وكم لهؤلاء ورثة بيننا!

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣]:
تعجب من الله لتحكيم اليهود للنبي ﷺ بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني، وقد فعلوا هذا طلباً للرخصة مع عدم إيمانهم بنبوته، ثم ردوا حكمه لما لم يوافق هواهم، فلا هم آمنوا بالتوراة، ولا بنبوته محمد ﷺ، وهذا غاية التعنت المستوجب للتعجب.

﴿الَّذِينَ اسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]:

الإسلام دين كل الأنبياء، وهو استسلام الظاهر والباطن لله رب العالمين.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]:

قال ابن عباس: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق».

﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]:

حث على التعامل بالفضل لا بالعدل، أي: فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص لجرحه أو دم وليه، فصدقته كفارة لذنبه، وفي الحديث: «ما من رجل يجرح في جسده جراحة، فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق». صحيح الجامع رقم: ٥٧١٢.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَتُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٥]:

سؤال: لم كرر قوله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؟!

والجواب: ليس في الآية تكرار؛ لأن في الأول: أن المسيح يصدّق التوراة، وفي الثاني: الإنجيل يصدّق التوراة.

سؤال: لم ذكر الهدى مرتين؟! ١٤١٦

والجواب: قال الفخر الرازي: «وأما كونه هُدى مرة أخرى، فلأن اشتغال الإنجيل على البشارة بمجيء محمد ﷺ سببٌ لاهتداء الناس إلى نبوته، ولما كان أشدَّ وجوه الاختلاف والمنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى في ذلك، لا جرم أن أعاده الله تعالى مرة أخرى، تنبيهًا على أن الإنجيل يدل دلالة ظاهرة على نبوة محمد ﷺ».

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]: ١٤١٧

هذه شهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور كتب حق وصدق، لكن القرآن مهيمن عليها جميعًا؛ لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخًا أبدًا، ولا يتطرق إليه تبديل ولا تحريف.

﴿وَلَيْكِن لَّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]: ١٤١٨

لا تفرح بالنعمة كثيرًا، بل افرح بنجاحك في امتحانها، فالنعمة مادة اختبار، وسيرى الله شكرك عليها، ففيم تستعملها: في طاعته أم معصيته؟!

﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]: ١٤١٩

عن ابن عباس رضيهما قال:

«قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه: فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم، وإننا إن اتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدق، فأبى رسول الله ﷺ ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾».

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]:

الوحي في مقابل اتباع الهوى، فلا ينصرف أحد عن حكم الله إلا اتباعاً لهواه،
مهما تذرّع بالأعذار.

﴿وَأَحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]:

لا محابة في الحق، فالتحذير هنا لسيد الخلق وصفوة رسل الله، لكنه ينصرف
إلى أمته من باب أولى.

أي: احذر هؤلاء اليهود؛ فإنهم كما قال الحافظ ابن كثير: «كذبة كفره خونة»
فهؤلاء اليهود فيهم هذه الثلاث الصفات «كذبة كفره خونة»، وهذا هو الحق
في وصفهم في جميع الأزمان وفي كل مكان.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]:

بعض الطاعات لا يُوفَّق لها العبد بسبب ذنب سابق، فلا تظن أن شؤم الذنب
انقضى بانقضائه.

﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]:

في تحكيم الشريعة خياران:

إما الشريعة أو الجاهلية، ولا حلول وسط!

كان طاووس إذا سأله رجل: أَفْضَلُ بَيْنَ وَلَدِي فِي النَّحْلِ (الهدايا)؟ قرأ:
﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ﴾.

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]:

﴿وَعَدُوكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ «أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا»

[النساء: ١٣٩]، لكن الواقع شيء آخر! فأَيُّ غُرْبَةٍ يحياها المسلمون اليوم؟!

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]:

قال عبد الله بن عتبة: «لِيتَقِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَهُوَ لَا
يَشْعُرُ».

﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢]:

سيفتح الله باباً كنت تحسبه من شدة اليأس لم يُخلَق بمفتاح

سين: ما الذي يجمع بين (الفتح) و(أمر من عنده)؟!

جيم: يجمعها المفاجأة وعدم توقع الحدوث.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ خَشِيَ أَنْ تَصِيبَنَا

دَآيِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]:

تسارع المنافقين لإرضاء أعداء الأمة داء قديم، ويتجدد مع كل أزمة.

أرض الخوف يتفشى فيها داء النفاق.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾

[المائدة: ٥٣]:

يقول المؤمنون لبعضهم متعجبين من سلوك المنافقين، ومولاتهم لليهود

الخائنين: أهؤلاء الذين أقسموا بالله أغلظ الأيمان إنهم منكم أيها المؤمنون؟!

وكذب المنافقين في أيمانهم سببه خوفهم من المؤمنين.

﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ [المائدة: ٥٣]:

أسهل شيء على المنافق أن يحلف كاذباً!

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣]:

موالاة الكافرين معناه حبوط عملك الصالح، وذلك هو الخسران المبين.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]:

سنة الله في خلقه.. إذا انتكس مؤمن واحد، أتى الله بقوم آخرين بدلا منه!

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]:

قال أبو يزيد البسطامي: «ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير؛ بل إنما

العجب من حبك لي وأنت ملك قدير».

﴿وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]:

أوصى النبي ﷺ أبا ذر: «قل الحق وإن كان مُرًّا». قلت: زدني. قال: «لا تخف في الله لومة لائم».

﴿وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]: أحبابه فقال: إن كنت تخشى اللُّؤام في ما تقول أو تكتب على صفحتك، فتذكر أن الله مدح أحبابه فقال: «وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ» [المائدة: ٥٤].

فيه تعريض بالمنافقين؛ فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يكادون يعملون شيئاً يلحقهم فيه لَوْمٌ من جهتهم. ذكره أبو السعود في تفسيره.

﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]:

قدّم محبته لهم على محبتهم له؛ فلولاً أنه أحبهم ما أحبوه، ولا وصلوا إلى طاعته ولا عرفوه.

﴿(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [المائدة: ٥٤]:

من ذل بين يدي إخوانه ولان، فاز بمحبة الرحمن.

﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]:

لا يمكن لعبد أحب الله أن يرتدّ عن دينه، اغرسوا حب الله في قلوب من تحبون.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]:

قال جابر بن عبد الله: قال عبد الله بن سلام للنبي ﷺ: إن قومنا من قريظة والنضير قد هجرونا، وأقسموا ألا يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك بعد المنازل، فنزلت هذه الآية، فقال: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]:

قال السعدي: «وهذه بشارة عظيمة، لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده،

أن له الغلبة، وإن أدبل عليه (انهزم) في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلاً».

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥٧]:

دينكم أغلى ما تملكون، وهو رأس مالكم، فكيف التهاون مع من أهانه؟!

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]:

أمر الغرض منه استنهاض همم المؤمنين، وإلهاب نفوسهم ليُطهروا أنهم مؤمنون بصورة عملية، وذلك بامثال أمر الله؛ لأن شأن المؤمن كمال الامتثال.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]:

الاستهزاء بالدين علامة قلة العقل، ولو حمل صاحبه أعلى الشهادات.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]:

عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نفر من يهود، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل قال: أؤمن بالله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيَّ إِلَّا نُبَأٌ مِّن رَّبِّي وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ لَكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

قال ابن القيم في (التيان في أقسام القرآن):

«وهذا شأن أعداء الله دائماً يَنقِمُونَ على أولياء الله ما ينبغي أن يُحْبُوا ويُكْرَمُوا

لأجله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ آلِكُتَابٍ هَلْ تَنَقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطية نقموا من عبادة الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وكذلك أهل الإشراف ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد. وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها، وترك ما خالفها.

وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم.

وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

الله يدافع عن عباده! هنا تعبير من الله لليهود بمساوئ أسلافهم، والهدف منه: ردع اليهود عن التطاول على المسلمين؛ لأنهم قالوا للمسلمين: لا دين شر من دينكم، فنزلت هذه الآية.

في التعبير عن عقوبة اليهود بلفظ ﴿مَثُوبَةً﴾ التي تُستعمل للتعبير عن الجزاء الحسن، إشارة إلى أن هذه العقوبة جزاء حسن إذا ما قيست بما وراءها من ألوان العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة.

جاءت عبارة ﴿بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ﴾ هنا للتفضيل، لكن هذا لا يعني أن المؤمنين في «شر»، لكنها مجازة لتفكير اليهود الفاسد وزعمهم الباطل، والكلام هنا على سبيل المشاكلة.

﴿وَإِذَا جَاءَوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ؕ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٦١]:

قال الألوسي: نزلت - كما قال قتادة والسدي - في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ، فيُظهرون له الإيمان والرضا بما جاء به نفاقاً.

عبر عن دخولهم بقوله: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾، وعبر عن خروجهم بقوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ بإضافة ضميرهم مع ﴿قَدْ﴾، للإشارة إلى أنهم عند خروجهم كانوا أشد كفراً، وأقسى قلوباً منهم عند دخولهم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٦١]:
هذا الجدُّ والاجتهادُ في المكر بالمسلمين والكيد لهم يقابله عِلْمُ الله المحيط بهم، ومن وراء علمه مجازاتهم ومعاقبتهم عليه.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ﴾ [المائدة: ٦٢]:
الجمهور على أَنَّ السُّخْتَ هو الرِّشْوَةُ، فمن ارتشى اليوم فقد اكتسب خصلة من خصال اليهود.

﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]:
عادة اليهود مستمرة! جمع الله بين صيغة الماضي: ﴿كَانُوا﴾، وصيغة المضارع: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ للإشارة إلى أن هذا العمل القبيح كان منهم في الماضي، وأنهم مستمرّون عليه في حاضرهم ومستقبلهم، بدون توبة أو ندم.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ﴾ [المائدة: ٦٣]:

مقاومة الرشوة والفساد المالي من مهام المصلحين في كل عصر.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ﴾ [المائدة: ٦٣]:
لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ

قال الإمام القرطبي: «ودلت الآية على أن تارك النهي عن المنكر كمرتكب المنكر، فالآية توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٢]:

قال الإمام السيوطي: «أصل في تكفير من صدر منه في جانب الباري تعالى ما يؤذن بنقص».

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]:

فكل من سأل الله ومد إليه يديه، لم يردّهما (صفرًا) خائبين.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]:

أيها الصامتون.. ما أفدح خسارة هذا الصمت!

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]:

اليهود دائمًا قادة إشعال الحروب والفتن بين الشعوب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ

جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥]:

وعدهم بالغفران بشرط التقوى، فلا يُعَقَّل أن يغفر الله للمُصِرِّ على ذنبه المتجاوز في حق ربه.

جودٌ تجاوز الحدود! بعد أن ذكر الله جرائم اليهود وادعاءاتهم الباطلة، دعاهم إلى التوبة، وكأن ذنبا لم يكن! فما أجملها من بُشْرَى للمذنبين.

الإيمان وحده لا يكفي! قال الزمخشري: «وفيه أن الإيمان لا ينجّي ولا يُسعد إلا مشفوعًا بالتقوى».

روي أن الحسن البصري لقي الفرزدق في جنازة، وكانا عند القبر، فقال الحسن للفرزدق: ما أعددت لهذا؟ يعني القبر.

قال الفرزدق: شهادة أن لا إله إلا الله كذا كذا سنة، فقال الحسن: «هذا العمود، فأين الأطناب؟!».

والعمود هو عمود الخيمة، وحبالها التي تُشَدُّ على الأوتاد هي الأطناب، فالإيمان عمود، والأعمال أطناب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]:

إشارة إلى أن سعة الأرزاق والبركة فيها هي ثمرة من ثمار اتباع الوحي والعمل بالكتاب.

﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]:

فيه دليل جواز ترغيب النفوس في فعل الطاعات عن طريق ذكر ما يترتب عليها من ثواب الدنيا، فلو عمل العبد عملاً صالحاً يرجو به نيل ثواب الدنيا والآخرة، فلا لوم عليه.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]:

المقتصد هو الواقف على حد الأمر، لا يقصر فينقص، ولا يتجاوز فيزيد، وجرت سنة الله أن يحفظ الكثرة العاصية بالقلة الطائعة، ولولا هم لهلكوا.

ما أجمل إنصاف القرآن، رغم أن أكثرهم مذموم. التعميم خطأ!

ذكر ابن كثير أن الله جعل أعلى مقامات أهل الكتاب: الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين؛ كما في قوله: ﴿فَعِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فدل ذلك على فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم.

﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]:

قال ابن عباس: «المعنى: بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، فإن كتمت شيئاً منه فما بلغت رسالته»، وهذا توجيه للنبي ﷺ، وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته.

﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]:

احذر! كنتم بعض الشريعة مثل كنتم جميعها.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]:

أخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُحْرَس لَيْلاً حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقَبَةِ، فَقَالَ لَهُمْ: «أَيُّهَا النَّاسُ.. انصرفوا لقد عصمني الله».

كيف نجمع بين عصمة الله لرسوله وبين شج وجهه يوم أحد وكسر رباعيته؟ قال الرازي:

«والجواب من وجهين:

أحدهما: أن المراد يعصمه من القتل، وفيه التنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل ما دون النفس من أنواع البلاء، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام! وثانيهما: أنها نزلت بعد يوم أحد».

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]:

إن لم تؤمنوا بمحمد ﷺ الذي بشرت به التوراة والإنجيل، فلستم على شيء من أمر الدين البتة! نفى أن يكونوا على أدنى شيء من الحق ما داموا لم يؤمنوا برسول الله ﷺ.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]:

ليس المراد النهي عن الحزن والأسى، فهما شعوران طبيعيان لا قدرة للإنسان على صرفهما، وإنما المراد نهيه عن لوازمهما، كالاستغراق في تذكرهما، والإكثار من تجديد شأن المصائب، وتعظيم أمرها، وبذلك تتزايد الآلام، ويضعف القلب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]:

من بلغت دعوة الإسلام من تلك الفرق لزمه الإيمان بها؛ لأنها نسخت ما قبلها، والرسول ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لو كان موسى حيًّا لما وسعه إلا أن يتبعني».

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠]:

حال بني إسرائيل مع الرسل يدور بين أمرين: التكذيب أو القتل، ولفظ «كل» يدل على العموم، «وما» ظرفية تدل على الزمان، ففي كل أوقات إرسال الرسل كذبوا وقتلوا دون تفريق بين رسول ورسول، أو بين زمان وزمان.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ [المائدة: ٧١]:
إذا فُتِنَ (القلب) عَمِيَ (البصر)، وَصُمَّتْ (الآذان)؛ فتخَبَّطَ (الجوارح).

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة: ٧١]:
الفتنة تصيب دومًا من لم يحسب حسابها، وأكثر من يظن أنه بعيد عن الفتنة هو أكثر الناس وقوعا فيها.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ [المائدة: ٧١]:
ظن بنو إسرائيل ألا يعاقبهم الله على نقض المواثيق وتكذيب المرسلين بعقوبات في الدنيا ولا في الآخرة، ومن أمن العقاب أساء الأدب.

﴿فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٧١]:
لا تفقد الأمل في هداية أحد، فهؤلاء عميت أبصارهم عن رؤية الحق، وَصُمَّتْ أذانهم عن سماع دعوة الحق، ومع ذلك تاب الله عليهم.

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢]:
كانت أول كلمة نطق بها المسيح في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، ثم أمر قومه هنا: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وإذا كان المسيح يقول: يا رب، فكيف يدعون الألوهية لمن اعترف على نفسه لربه بالعبوديته؟!

﴿وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]:

كلامهم سبب عذابهم، وهذا تهديد بأن كلمة واحدة من العبد قد تورده المهالك.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]:

دعا الله إلى التوبة من قال: إن الله هو المسيح ابن مريم، ومن قال: إن الله ثالث ثلاثة، ومن قال: يد الله مغلولة.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]:

من اشتملت عليه الأرحام، وتناوبت عليه الأسقام، كيف يليق أن يوصف بالألوهية؟!

﴿مَنْ مَسَّتهُ الْحَاجَةُ حَتَّى احْتَاجَ لِلطَّعَامِ، وَأَصَابَتْهُ الضَّرُورَةُ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ آثَارِ هَذَا الطَّعَامِ، كَيْفَ يَتَوَجَّهَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ؟﴾

أدب القرآن! قال ابن قتيبة: «هذا ألطف ما يكون من الكناية؛ لأنه عبّر عن الحدث بالطعام، وذلك أن من أكل الطعام فلا بد له من أن يُحدث، فلما ذكر أكل الطعام صار كأنه أخبر عن عاقبته، والطعام والحدث ليسا من أوصاف الآلهة».

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]:

ما أحلم الله على هؤلاء! يجادلهم لإقناعهم، ويتلطف بهم لإيمانهم وهو غني عنهم.

دلت الآية على جواز الجدل في الدين بقصد الإرشاد إلى الحق، وحكي عن الشافعي أنه كان إذا جادل أحداً قال: اللهم ألقِ الحق على لسانه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]:

سُمِّي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار، وأنشدوا في ذم الهوى:
نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويتَ فقد لقيتَ هوانا

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧]:

قال رجل لابن عباس: الحمد لله الذي جعل هواي على هواك، فقال ابن عباس: «كل هوى ضلالة».

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ... كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]:

المجتمع السلبي الذي يرى المنكر ولا ينكره هو مجتمع ملعون بنص القرآن!

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]:

قال أهل العلم: وليس من شرط الناهي عن المنكر أن يكون سليماً من المعاصي، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]:

المصلحون سبب رحمة الأمة، ووقاية لها من نزول لعنة الله، فالله حين (لعن) بني إسرائيل بيّن لنا السبب، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]:

من شأن المنكرات أن يبدأها واحد، ثم يتبناها قلة، فإن لم يجدوا من يغيّر عليهم تزايدوا، فانتشرت حتى تعمّ، وينسى الناس كونها من المنكرات، فلا يهتدون إلى الإقلاع والتوبة منها، فتصيبهم لعنة الله.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]:

قال ابن عاشور: «أطلق على ترك التناهي لفظ الفعل في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ مع أنّه ترك؛ لأنّ السكوت على المنكر لا يخلو من إظهار الرضا به والمشاركة فيه».

١٥٠٠

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ
أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١]:

اتخاذ الكافرين أولياء مَنافٍ للإيمان بالله ورسوله وكتابه.

١٥٠١

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ
أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١]:

الاستدلال بالمشاهد على الخفي! لا أحد يعلم قدر الإيمان في القلب، لكن
للإيمان آثار تدلُّ عليه، ومن آثاره: عدم تولي الكفار واتخاذهم أولياء.

من روائع المتدبرين

أورد الإمام الذهبي عن أبي عبد الله مردنيش المجاهد الزاهد المغربي أنه أغار يوماً فغنم غنائم كثيرة، واجتمع عليه من الروم أكثر من ألف فارس، فقال لأصحابه وكانوا ثلاث مائة فارس: ما ترون؟ فقالوا: نشغلهم بترك الغنيمة. قال: ألم يقل القائل: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فقال أصحابه: يا رئيس... الله قال هذا؟ فقال: الله يقول هذا وتعدون عن لقائهم!! قال: فثبتوا فهزموا الروم.

سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٢٣٣ - ط مؤسسة الرسالة



الجزء السابع

من سورة المائدة من الآية ٨٢
إلى سورة الأنعام آية ١١٠
عدد الفوائد: ٣٠٢

قال الحسن بن علي:

«إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل
من ربهم، فكانوا يتدبرونها في الليل،
ويتفقدونها في النهار».

الإحياء ١ / ٢٧٥

الجزء السابع
من سورة المائدة من الآية ٨٢
إلى سورة الأنعام آية ١١٠

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾

١٥٠٢

[المائدة: ٨٢]:

هاتان الطائفتان هما أعظم الناس عداوة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيقاع الضرر بهم؛ وسبب ذلك شدة بغضهم للمسلمين، بغيًا وحسدًا وعنادًا وكفرًا.

عداوة عبر كل العصور! قال الألوسي: «والظاهر أن المراد من اليهود العموم، أي من كان منهم بحضرة الرسول الله ﷺ من يهود المدينة وغيرهم».

١٥٠٣

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾

١٥٠٤

[المائدة: ٨٢]:

ليس أهل الكتاب فريقًا واحدًا، وليس أعداء المسلمين كذلك، بل هناك ألوان كثيرة في العداوة بين الأبيض والأسود.

الحديث هنا عن حالة خاصة. قال القرطبي: «وهذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه؛ لما قدم عليهم المسلمون في الهجرة الأولى خوفًا من المشركين وفتنتهم».

١٥٠٥

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

١٥٠٦

[المائدة: ٨٢]: المتواضع أقرب إلى الحق من المستكبر.

١٥٠٧

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾ [المائدة: ٨٢]:

إنصاف القرآن! قال الألوسي: «وفي الآية دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمودة أينما كانت».

١٥٠٨

﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]:

بقدر ما تعرف من الحق، يلين قلبك ويفيض دمعك.

١٥٠٩

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ

الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤]:

لعلهم قالوا هذا حين خالطهم بعض التردد في ترك دينهم لاعتناق الإسلام، فكم يحتاج المؤمن لأن يثبت قلبه وقلوب من حوله بمثل هذا الكلام، خاصة في زمن غربة الدين، فيزداد إيماناً وثباتاً.

١٥١٠

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ

الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤]:

أو لعلهم قالوا هذا لمن عارضهم من أهل ملتهم أو لمن عيّرهم من اليهود، فكانوا أقوياء في توجيه هذا الرد، واثقين من صحة اختيارهم لهذا الدرب.

١٥١١

﴿فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ﴾ [المائدة: ٨٥]:

رُبَّ كلام خرج من قلب صادق، كان سبب دخول صاحبه الجنة، ألا ما أغلى الكلام وأهمية اللسان!

١٥١٢

﴿فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٨٥]: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾:

وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم.

١٥١٣

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٦]:

المصاحب للشيء هو الملازم له الذي لا ينفك عنه، وأصحاب الجحيم هم ملازموه الذين لن يفارقوه، ويستفاد من الآية: تخصيص دوام العذاب للكفار، وأن الخلود في النار لا يحصل للمؤمن الفاسق.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]:

قال عكرمة: كان أناس من أصحاب النبي ﷺ هموا بالاختصاص، وترك اللحم والنساء، فنزلت هذه الآية.

قال ابن عرفة: «فيه دليل على أن التمتع بالحلال أفضل من التقشف»، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «أما أنا فأقوم وأرقد، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

ورع كاذب!

دُعِيَ الحسن إلى طعام ومعه فرقد السبخي، فجلسوا على مائدة فيها ألوان من الطعام كالديج والفالودج، فاعتزل فرقد ناحية، فسأله الحسن: أصائم أنت؟! قال: لا ولكني أكره ألوان هذا الطعام لأنني لا أؤدي شكرها، فقال له: الحسن: أفتشرب الماء البارد؟ قال: نعم، قال: إن نعمة الله في الماء البارد أكثر من نعمته في الفالودج.

تنبيه لفقهاء الأمة على الاحتراز من تحريم شيء لم يقيم الدليل على تحريمه، أو كان دليل تحريمه واهياً.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨]:

كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان يحب الزبد والتمر، وكان يحب من الشاة الذراع، وكان مع هذا أزهد الناس.

﴿وَلَيْكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَنَ فَكَفَرْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٨]:
المؤاخذه هي كفارة اليمين، والعقد هو عقد القلب.

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]:

أمر من الله تعالى لعباده بأن يصونوا أنفسهم من الحنث في أيمانهم، أو الإكثار منها لغير ضرورة، فإن الإكثار من الحلف بغير ضرورة يؤدي إلى قلة الحياء من الله تعالى، كما أن الحلف الكاذب يؤدي إلى سخط الله على الحالف وبغضه له.

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ.. فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]:

بكلمة واحدة ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ ألق الصحابة عن عادة تأصلت في نفوسهم لعشرات السنين.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ٩١]:

إيقاع العداوة بين المسلمين هدف شيطاني، فقد يئس أن يُعبد في الأرض، لكن رضي بالتحريش بين المؤمنين.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢]:

لن يتوقف المؤمن عن الحذر إلا بالأمن التام بعد دخول الجنة.

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]:

طاعة الرسول طاعة مستقلة، وقد فصل رسول الله ﷺ كثيراً مما جاء مجملاً في القرآن، وكأن الله علم منذ الأزل أنه سيأتي من يدعي أنه لن يطيع إلا القرآن، وفيهم قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه، ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل ما حرّم الله». صحيح الجامع رقم: ٨١٨٦.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]:

إلى كل داعية: لا تذهب نفسك على من تدعو حسرات، إن عليك إلا البلاغ، وقد أعذر من أنذر.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا

أَتَقُوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩٣]:

قال ابن عباس: لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر؟ فنزلت الآية.

وفي رواية البخاري عن أنس: فقال بعض القوم: قُتل قوم وهي في بطونهم،

فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾.

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُغَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ﴾ [المائدة: ٩٤]:

١٥٢٧

نزلت في عام الحديبية حين ابتلاههم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، بحيث يتمكنون من صيدها أخذًا بأيديهم، وطعنًا برماحهم وهم مُحْرَمُونَ.

﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ﴾ [المائدة: ٩٤]:

١٥٢٨

التقليل والتحقير في ﴿بِشَيْءٍ﴾ مقصود! للتنبيه على أن الصيد ليس من عظام الأمور التي تزل عندها الأقدام، كبذل النفوس والأموال في سبيل الله، فمن لم يثبت في هذا الاختبار اليسير، فكيف يثبت في العسير؟!

﴿لَيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]:

١٥٢٩

في عصر السماوات المفتوحة، لا تتعجب من سهولة الوصول للمعصية، فالمقاطع المحرمة بين يديك تصل إليها بضغطة زر، وحكمة الله: ﴿لَيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]:

١٥٣٠

لماذا حُرِّمَ هذا الصيد؟ لعل من أسبابه ما قاله المهامي: «لأن قتله تجبر، والمحرّم في غاية التذلل».

هل من حكمة ثانية لتحريم الصيد في الحرم؟!

١٥٣١

قال الطاهر ابن عاشور:

«والحكمة في ذلك أن الله تعالى عظم شأن الكعبة من عهد إبراهيم عليه السلام، وأمره بأن يتخذ لها حرمًا كما كان الملوك يتخذون الحمى، فكانت بيت الله وحماه، وهو حرم البيت محترمًا بأقصى ما يعد حرمة وتعظيمًا؛ فلذلك شرع الله حرمًا للبيت واسعًا، وجعل الله البيت أمانًا للناس، ووسّع ذلك الأمان

حتى شمل الحيوان العائش في حرمه؛ بحيث لا يرى الناس للبيت إلا أمناً للعائد به وبحرمه».

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]:

ذكر القتل فقط، فهل الذبح مباح؟! والجواب: كلا، لكنه ذكر القتل للتعميم، أو للإيذان بكون الذبح في حكم الميتة.

هل هناك استثناء يجيز القتل؟! والجواب: نعم، في الحديث: «خمسٌ قتلهن حلال في الحرم: الحية والعقرب والحدأة والفأرة والكلب العقور». صحيح الجامع رقم: ٣٢٤٥.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ [المائدة: ٩٥]:

قال مجاهد والحسن: «إن كان متعمداً للقتل ناسياً إحرامه فهو مورد الآية، فعليه الجزاء، وأما المتعمد للقتل وهو ذاكرٌ لإحرامه، فهذا أعظم من أن يكفر وقد بطل حجه، وصيده جيفة لا يؤكل».

جمهور الفقهاء يرون أن الجزاء يكون بالمماثلة بين الصيد المقتول وبين حيوان يقاربه في الحجم والمنظر من النعم، وهي الإبل والبقر والغنم، وقد حكم الصحابة في النعامة ببذنه، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]:

مراعاة الشرع للمخطئ ورحمته به! إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاء من النعم مماثل للصيد المقتول في الخلقة والمنظر، أو عليه ما يساوي قيمة هذا الجزاء طعاماً، أو ما يعادل هذا الطعام صياماً، وهو قول جمهور الفقهاء.

الترتيب هنا بحسب القدرة، فالأصل شراء هدي وذبحه في الحرم، فإن تعذر ذلك كان الطعام، فإن تعذر كان الصيام.

﴿لَيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهٖ﴾ [المائدة: ٩٥]:

١٥٣٨

قال ابن عادل: «خيرُه بينَ ثلاثة أشياء؛ اثنانِ منها يوجبان تنقيصَ المال، وهو ثَقِيلٌ على الطَّبْعِ، وهما الجزاءُ بِالْمِثْلِ والإطعام، والثالثُ يوجبُ إيلامَ البدن، وهو الصَّوْمُ، وذلك أيضًا يَثْقُلُ على الطَّبْعِ؛ وذلك حتى يُحْتَرَزَ عن قتل الصَّيْدِ في الحرم، وفي حال الإحرام».

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]:

١٥٣٩

لا يوصف الله تعالى بالانتقام وصفًا مطلقًا، فلا يُسمَّى باسم (المنتقم)، وقوله: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ لا يدلُّ على أنه وصفٌ مُطلق لله؛ لأن الله قيَّد انتقامه بالمجرمين، فقال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

﴿أَحَلَّ لَكُم صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعًا لَّكُم﴾ [المائدة: ٩٦]:

١٥٤٠

قال رسول الله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال». السلسلة الصحيحة رقم: ١١١٨.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦]:

١٥٤١

تذكيرٌ بيوم الحشر الذي يظهر فيه أمام جميع الخلائق من أطاع ومن عصى. قدَّم الجارَّ والمجرور: ﴿إِلَيْهِ﴾ على قوله: ﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ لإفادة الحصر، وهي قاعدة معروفة عند البلاغيين والأصوليين: إذا قُدِّم ما حَقُّه التأخيرُ، فإنَّه يُفيد الحصر.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]:

١٥٤٣

الكعبة من قوام الناس الذي تقوم به مصالحهم دينًا ودنيًا، فيقوى إيمانهم، وتُرفع درجاتهم، وتُغسل سيئاتهم، وتُصلح شئون دنياهم عن طريق تبادل المنافع بينهم.

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧]:

١٥٤٤

والأشهر الحرام من قوام الناس كذلك، ففيها يمتنعون عن القتال، ويحصل بينهم التآلف بعد التدابر والعداء.

﴿وَأَهْدَىٰ وَأَلْفَلَقَدَ﴾ [المائدة: ٩٧]:

1020

من قوام الناس، فيسوقها المحرمون إلى الحرم لذبحها، فيكون فيها التوسعة على الفقراء، وإشاعة روح الإخاء.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَأَهْدَىٰ

1021

﴿وَأَلْفَلَقَدَ﴾ [المائدة: ٩٧]:

قال الإمام القرطبي: «والحكمة في جعل الله تعالى هذه الأشياء قيما للناس، أن الله سبحانه خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد والتقاطع والسلب والغارة، فلم يكن بد في الحكمة الإلهية من وازع يزعهم - أى يجرهم - عن التنازع، ويحملهم على التآلف، ويرد الظالم عن المظلوم».

﴿ذَٰلِكَ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ

1022

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]:

قال الإمام الرازي: «والمعنى أنه تعالى لما علم في الأزل أن مقتضى طباع العرب الحرص الشديد على القتل والغارة، وعلم أنه لو دامت بهم هذه الحالة لعجزوا عن تحصيل ما يحتاجون إليه من منافع المعيشة، ولأدى ذلك إلى فنائهم وانقطاعهم بالكلية، دبّر في ذلك تدبيراً لطيفاً، وهو أنه ألقى في قلوبهم اعتقاداً قوياً في تعظيم البيت الحرام وتعظيم مناسكه، فصار ذلك سبباً لحصول الأمن في البلد الحرام وفي الشهر الحرام، فاستقامت مصالح معاشهم، ومن المعلوم أن مثل هذا التدبير لا يمكن إلا إذا كان تعالى في الأزل عالماً بجميع المعلومات».

﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]:

1023

تخويف وترجية في آية واحدة، وقد قيل: «لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لا اعتدلا».

﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]:

1024

وقد قام النبي ﷺ بما عليه من البلاغ، فقامت علينا الحجة، وتمزقت قائمة أعدارنا، فلا يخفى على الله شيء من أعمالنا وأحوالنا.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]:

تصدير الحكم بقول: ﴿قُلْ﴾ دليل على مزيد العناية به؛ فإن النبي ﷺ مأمور بتبليغ كل القرآن، لكن فعل الأمر: ﴿قُلْ﴾ دلّ على خصوصية هذا الأمر وأهمية تبليغه للأمة، فهو كالتخصيص بعد التعميم.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]:

للخبث كثرة وبهرج لا ينجو من (الإعجاب) به إلا الأقلون.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ

يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]:

لا يستوي الخبيث والطيب من أشخاص وأعمال ومكاسب.
فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا البر والفاجر (أشخاص).
ولا تستوي الحسنة والسيئة، ولا الطاعة والمعصية (أعمال).
ولا يستوي الحلال والحرام (مكاسب).
لا يستوون عند الله، وعند عقلاء الناس وأهل الآخرة.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾

[المائدة: ١٠٠]:

الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وفيه تنبؤ بأن الخبيث سيكثر، فلا تُعجب بكثرته وعلو الباطل من حولك، فإنّ الفلاح لأهل الطاعة مهما قلّوا، والخسران للعصاة وإن كثروا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]:

اتقوه في إثارة الطيب وإن قل على الخبيث وإن كثر.

﴿يَتَأُولَى الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]:

الآية تأديب من الله لعباده، بألا يسألوا عن الأشياء التي إذا بُيِّنَتْ لهم ساءتهم وأحزنتهم، ومن ذلك:

- سؤال بعض المسلمين للنبي ﷺ عن آبائهم، أفي الجنة أم في النار.
- والسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع، كما في الحديث: «إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرم، فحُرِّم من أجل مسأله». صحيح البخاري رقم: ٧٢٨٩.
- والسؤال عما لا يعنك.
- فهذه الأسئلة وأشباهاها نهى الله عنها.

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟

ويقول الرجل تضلُّ ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكَ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠٢]:

قال ابن عباس: «هم قوم عيسى: سأله إنزال المائدة ثم كفروا بها، وقيل: هم قوم صالح عليه السلام سأله الناقة، ثم عقروها وكفروا بها، وقيل: هم بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أخبروهم كذبوهم».

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]:

البحيرة هي ناقة يشقون أذننها، ثم يجرِّمون ركوبها.

والسائبة هي ناقة أو بقرة أو شاة كانوا يسيِّبونها لآلهم، فلا يُحمَل عليها شيء.

والوصيلة هي الناقة أو الشاة إذا أنتجت عدداً معيناً من الولد متواصلاً، فإنهم يجعلونها للأصنام.

والحام هو فحل الإبل يُحمى ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم.

فكل هذه مما حرَّمها المشركون بلا دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على الله.

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يريد عمرو بن لحي الخزاعي وأصحابه، يفترون على الله هذه الأكاذيب في تحريمهم لهذه الأنعام، وكان أول من غير دين إسماعيل، فشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقد قال النبي ﷺ: «رأيت عمر بن لحي بن قمعة بن خندف، أخا بني كعب، وهو يجرُّ قصبه في النار». أي أمعائه. صحيح الجامع رقم: ٣٤٦٩.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤]:

علّمنا القرآن عداوة التقليد الأعمى ومحاربة التعصب الجاهل.

﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]:

عن أبي أمية الشعباني أنه قال: سألت عنها أبا ثعلبة الخشني، فقال لي: سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام». سنن الترمذي رقم: ٣٠٥٨.

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري: «عليكم أنفسكم فأصلحوها، واعملوا في خلاصها من عقاب الله، وانظروا لها فيما يقربها من ربها، فإنه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ﴾، يقول: لا يضرركم من كفر وسلك غير سبيل الحق، إذا أنتم اهتديتم وآمنتم بربكم، وأطعتموه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فحرمتم حرامه وحللتهم حلاله».

قال الزمخشري: «كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتو والعناد من الكفرة، يتمنون دخولهم في الإسلام، ف قيل لهم: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وما كُلفتم من إصلاحها والمشي بها في طرق الهدى، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ ضلال غيركم عن دينكم إذا كنتم مهتدين».

قال ابن تيمية في معرض حديثه عن فوائد هذه الآية:

«ألا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم أو نهيهم أو هجرهم أو عقوبتهم؛ بل يقال لمن اعتدى عليهم: عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت، فإن كثيراً من الأمرين الناهين قد يتعدى حدود الله إما بجهل وإما بظلم».

﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦]:

١٥٦٥

الصلاة تنهى عن المنكر، ومن ضمن هذه المنكرات: الكذب.

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]:

١٥٦٦

سبب النزول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: خرج رجلٌ من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته، فقدوا جاماً من فضة - أي إناء من فضة - مخصوصاً من ذهب، فأحلفها رسول الله ﷺ، ثم وجد الجأء بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أوليائه، فحلفا لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجأء لصاحبهم، فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [المائدة: ١٠٦].

الميت إذا حضره الموت في سفر، فينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين، فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما، فإنهم يُحلفونهما بعد الصلاة، أنها ما خانا، ولا كذبا، ولا غيراً، فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنها خانا وكذبا، فيستحقون منها ما يدعون.

١٥٦٧

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ

١٥٦٩

أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦]:

شهادة الوصية لا بد فيها من شاهدين اثنين ذوي عدل.

﴿فَإِنْ عُبِّرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِنَّمَا فَتَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ

١٥٦٩

اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا

اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٧]:

الإسلام يحفظ حقوق الجميع، حتى حقوق الميت!

ولذا فالخالفان يلحfan بأنهما لا يحصلان بيمين الله ثمنًا مهما كانت قيمته، وأنها لن يحايا إنسانًا مهما بلغت درجة قرابته، ولن يكتما الشهادة التي أمرهما الله بأدائها على وجهها الصحيح، وبأنهما يقران على أنفسهما باستحقاق عقوبة الأثم المذنب إن كتما أو خانا أو حادا عن الحق، وهذا كله لكي تصل وصية الميت إلى أهله كاملة غير منقوصة.

في الآية دليل على جواز تحليف الشهود إذا ارتاب الحكام أو الخصوم في شهادتهم.

١٥٧٠

﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهْدَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ تَخَافُوا أَن تَزُدَّ بِمَنِّ بَعْدَ

١٥٧١

أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة: ١٠٨]:

لماذا الشهادة على الوصية في الحضر والسفر؟! لأن عدم الإشهاد عليها كثيرًا ما يؤدي إلى التنازع وإلى التشكيك في صحتها.

﴿يَوْمَ تَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ

١٥٧٢

عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]:

يذهل الأنبياء من هول ذلك اليوم، ويفزعون، فلا يدرون بم يجيبون، فماذا عن حال الضعفاء أمثالنا، أفلا يخافون؟!

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى سؤالهم؟ قلت: توبيخ قومهم، كما كان

١٥٧٣

سؤال الموءودة توبيخًا للوائد».

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف يقولون: «لا علم لنا وقد علموا بما أجيبوا؟!»

قلت: يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه بما ابتلوا به منهم، وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهارًا للتشكي، واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم، وذلك أعظم على الكفرة، وأجلب لحسرتهم».

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]:

القلب المطموس لا تريده البينات إلا جحودًا وعنادًا، وهكذا كان بنو إسرائيل.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]:

انظر بركة الصحبة!

خصَّهم الله بالوحي إلهامًا وإكرامًا بسبب صحبتهم لعيسى عليه السلام: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَّبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]:

كيف للخواريين أن يطلبوا مثل هذا الطلب الجريء وهم أكثر تلامذة عيسى إيمانًا؟ والجواب: طلبوا المائدة ليزدادوا يقينًا، وليس شكًا منهم في قدرة الله، فأجابهم الله إلى طلبهم.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣]:

أي لا نطلب نزول المائدة كمجرد معجزة بل لأسباب أخرى:
أحدها: أننا نريد أن نأكل منها، فإن الجوع قد غلبنا، ولا نجد طعاماً آخر.
ثانيها: نزول هذه المائدة سيزيدنا يقيناً وطمأنينة.
ثالثها: جميع المعجزات التي أوردتها قبل ذلك معجزات أرضية، لكن هذه معجزة سماوية، وهي أعجب وأعظم.
رابعها: إذا شاهدناها سنشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، فنُعلم بها الغائبين وندعوهم إليها.

﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤]:

سُئِلَ أحد العُباد: لم وُصِفَ الله بخير الرازقين؟ قال: لأنه إذا كفر أحد لا يقطع رزقه.
﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤]:
قال الفخر الرازي: «تأمل في هذا الترتيب، فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً، فقدموا ذكر الأكل فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾، وأخروا الأغراض الدينية الروحانية.
فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر أغراضه فيها، قدّم الأغراض الدينية، وأخّر غرض الأكل حيث قال: ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾.
وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحية، وبعضها جسمانية».

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَلَيَأْكُلْهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]:

توعدهم الله بالليم العقاب بعد ما رأوا الآيات، ليعلم الجميع أن إقامة الحجة على الخلق، تجعل خطر العذاب أقرب وأشد لمن أعرض.

﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]:

١٥٨٢

عذاب النار يتفاوت، وليس درجة واحدة! فليس عذاب من طلب الآيات فرآها، كعذاب غيره.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]:

١٥٨٣

ما فائدة هذا السؤال وقد علم الله أن عيسى لم يقله؟! قال القشيري: «المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نُسب إليه من الدعاء إلى القول بالثلاث، فهذا ليس خطاب تعنيف، بل هو سؤال تشريف».

﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]:

١٥٨٤

أو أن المقصود بالاستفهام هنا توبيخ الكفرة من قومه، وتبكيته كل من نسب إلى عيسى وأمه ما ليس من حقهما، وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد؛ لأن عيسى سينفي أمامهم أنه قال ذلك، والنفي بعد السؤال أشد في التوبيخ والتقريع، وأدعى لقيام الحجة على النصارى.

﴿قَالَ سُبْحَنكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]:

١٥٨٥

أدب نبوي رفيع!

كانت مبادرة عيسى بتنزيه الله تعالى أهم عنده من تبرئته نفسه، وقدم حق الله على حق نفسه.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: ١١٧]:

١٥٨٦

اختار لفظ «أَمَرْتَنِي بِهِ» على (قلت لي) مبالغة منه في التأدب في مخاطبة الرب سبحانه.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]:

١٥٨٧

عيسى حي لم يمُت! والمراد بالتوفي في الآية: الرفع إلى السماء، من قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]:

مما يعينك على الخشوع في الصلاة: ترديد الآية حتى لو بقيت تردد آية واحدة فقط في تلاوتك، فإن النبي ﷺ قام ليلة بأية ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨].

﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]:

لن يصمد يوم القيامة إلا الصادقون.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠]:

لماذا قال الله: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ على الرغم من أن الله استخلف الإنسان في الأرض، والإنسان عاقل، فكان من حقه أن يقول: ومن فيهن؟! قال الإمام الرازي: «ولم يقل (ومن فيهن)، فغلب غير العقلاء على العقلاء، والسبب فيه: التنبيه على أن كل المخلوقات مسخرّون في قبضة قهره وقدرته، وهم في ذلك التسخير كالجُمادات التي لا قدرة لها، وكالبهائم التي لا عقل لها، فعلم الكل بالنسبة إلى علمه ك (لا علم)، وقدرة الكل بالنسبة إلى قدرته ك (لا قدرة)».

تذكرك أن أصلك ﴿مِنْ طِينٍ﴾ أفضل ما ينزع من قلبك بذرة الكبر الدفين.



سورة الأنعام

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]:

١٥٩٢

الفارق بين الفعلين ﴿خَلَقَ﴾ و ﴿وَجَعَلَ﴾، أن ﴿خَلَقَ﴾ معناه أحدث فحسب، وأما ﴿وَجَعَلَ﴾ فمعناه: أحدثه متكرراً.

وقيل: فعل ﴿خَلَقَ﴾ أليق بالإنشاء من العدم، وفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ أليق بإيجاد الأعراض، وهي تتضمن تكوين شيء من شيء، فالظلمات مثلاً تتولد من اختفاء الشمس عن الأرض، والنور يتكون من بزوغ الشمس على الأرض.

١٥٩٣

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]:

١٥٩٤

وذلك يشمل الجانب الحسي والمعنوي، فالحسي كالليل والنهار والشمس والقمر، والمعنوي كظلمات الجهل والشك والشرك والمعصية والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة.

لم قدّم الظلمات على النور؟! لفئة علمية: إشارة إلى أن الظلام وُجد قبل النور، وهو ما أكّده العلماء اليوم، ولأن الظلام في الكون أكبر بكثير من النور، حيث يحوي الكون أكثر من ٩٦ ٪ مادة مظلمة.

١٥٩٥

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]:

١٥٩٦

أي يجعلون لله عدلاً يحبونه ويقدرّونه ويسوّون بينه وبين الله في المحبة والتعظيم، مع أن شركاءهم لم يشبهوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه، وهذا تسفيه من الله لكل صاحب شرك جلي أو خفي.

قال ابن عطية: «دالة على قبح فعل الكافرين؛ لأن المعنى أن خلق السموات والأرض قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد ذلك

١٥٩٧

كله عدلوا بربهم، فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسننت إليك، ثم تشتمني!».

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ٢]:

١٥٩٨

رَدُّ بأوضح دليل على صحة البعث بعد الموت، فبداية خلقكم كان من طين جامد لا حياة فيه، وأنتم بنفوسكم أعرف، والتعامي عن الدليل الأوضح أقبح.

﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ۖ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]:

١٥٩٩

قدَّر الله لكل عبد من عباده أجلين:

الأول: أجل تنتهي عنده حياتهم بعد أن عاشوا زمناً معيناً.

والثاني: أجل يمتد من وقت موتهم إلى يوم بعثهم من قبورهم لحسابهم.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]:

١٦٠٠

قال القرطبي:

«وهو الله المعظم أو المعبود في السموات، وفي الأرض، كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب، أي حكمه.

ويجوز أن يكون المعنى: وهو الله المنفرد بتدبير الأمر في السموات وفي الأرض، كما تقول: هو في حاجات الناس.

ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، ويكون المعنى: وهو الله في السموات وهو الله في الأرض».

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٤]:

١٦٠١

من محبة الله لعباده، أن أوصل إليهم آياته التي يستدلون بها عليه، ويزدادون بها قرباً إليه.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤]:

١٦٠٢

من الناس من لا يزيدهم فضل الله عليهم إلا كفرًا، ولا يواليهم بإقبال إلا قابلوه بإعراض.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ^ط فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُا مَا كَانُوا بِهِ

﴿١٦:٣﴾

يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]:

رتَّب الله أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب، من الأدنى إلى الأعلى:
فالمرتبة الأولى: الإعراض عن التأمل في الآيات.
والمرتبة الثانية: وهي أشد من الإعراض، وهي التكذيب؛ لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به.
والمرتبة الثالثة: وهي أشد مراتب الإنكار، وهي الاستهزاء؛ لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ به تكذيبه حد الاستهزاء.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦]:

﴿١٦:٤﴾

الخلاصة في كلمتين: الذنوب مُهلِكة.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦] ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ

﴿١٦:٥﴾

بِذُنُوبِهِمْ﴾:

ليس في القرآن تكرار، بل تذكير للأبرار وترديدٌ للاعتبار.

قال الله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦]: العذاب ينزل بالأوزار،

﴿١٦:٦﴾

ويرتفع بالاستغفار.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ

﴿١٦:٧﴾

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]:

كأبر القوم المحسوس الذي لا يمكن لمن له أدنى مسحة من عقل أن يدفعه،
فأخبر الله أنه لو أنزل عليهم القرآن جملة واحدة في صحيفة واحدة، فرأوه
ينتزل أمام أعينهم، ولمسوه بأيديهم، لطعنوا فيه وزعموا أنه سحر!

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]:

﴿١٦:٨﴾

خطورة عمل القلب! أسند القول إليهم مع أن القائل بعضهم، لأنهم جميعاً
متعنتون جاحدون، وما يصدر عن بعضهم كلهم عليه موافقون.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]:

لو رأوا الملك على صورته لما توا إذ لا يطيقون رؤيته، أو لأهلكوا بعذاب الاستئصال؛ لأن الله أجرى سنته بأن من طلب آية، فأظهرت له، فلم يؤمن أهلكه الله في الحال.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]:

قال الإمام القرطبي: «لأن كل جنس يأنس بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكًا لنفروا من مقاربته ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والالتقاء له، ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله».

﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]:

عادة أهل الباطل لبس الحق بالباطل! واللبس: الخلط، فكان الزعماء يقولون للضعفاء: إنما محمد بشر، وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله أنه لو أنزل الله عليهم ملكًا في صورة رجل، لاستمروا في هذا الخلط كعادتهم.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا

بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]:

إلى كل داعية: هذا الطريق لست فيه بأوحد، فقد أودى من سبقك من الرسل الكرام، وسخر الساخرون من الأئمة الأعلام، والدعاة في نفس هذا الطريق سائرون.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]:

الأمر بالنظر في أحوال السابقين يبرز أهمية عبادة التفكير، وهي من أجل العبادات وأعظم القربات، ومفتاح هداية قلوب الكثيرين.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢]:

المالك الحقيقي يذكرك أن كل ما في يدك ملك له، وهو معار لك فترة حياتك، ثم يسترده منك.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]:

دعوة للمسرفين على أنفسهم، والغارقين في بحار اليأس، والظانين بالله ظن السوء.

سبحان من ألزم نفسه بما فيه خير عبادته، لطف ما بعده لطف.

رحمته بك سابقة على خلقه لك! قال رسول الله ﷺ: «كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق: رحمتي سبقت غضبي».

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣]:

سبب نزولها: نزلت الآية لأن المشركين قالوا: علمنا أنه ما يملك على ما تفعل إلا الحاجة، فنحن نجمع لك من أموالنا حتى تصير أغنانا، فنزلت هذه الآية.

المعنى: ما خلق، ومن خلق الخلق ملكهم، وكيف ينازعه أحد في ما خلق؟! وخصّ الساكن من خلقه بالذكر لأن ما يعُمُّه السكون أكثر مما تعمه الحركة.

لم خصّ السّاكن بالذكر دون المتحرّك؟!

والجواب:

- لأنّ السّاكن من المخلوقات أكثر عددًا من المتحرّك، والسّكون أكثر وجودًا من الحركة.

- أو لأنّ كلّ متحرّك يصيرُ إلى السّكون، والعكس غير صحيح، فليس كلّ ما سكن يتحرّك.

- أو لأنّ السّكون هو الأصل، والحركة حادثه عليه.

﴿قُلْ أَغْيَرِ اللَّهُ أَخْخَذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤]:

كيف تتخذ وليًّا يشكو إن منع أكلة أو تأخرت عليه شربة أو حصرته بولة؟!

﴿قُلْ أَغْيَرِ اللَّهُ أَخْخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾

[الأنعام: ١٤]:

قال الألوسي: «والآية لبيان أن شأنه تعالى مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم؛ لأنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وأرزاقهم، ومالك العبيد نفى أن يكون ملكه إياهم لذلك».

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤]:

دعوة غير مباشرة! أعلن النبي ﷺ انقياده للحق، وأنه لم يصدر منه أدنى امتناع عن امتثال الأمر، ليحمل قومه على ذلك. قال أبو حيان: «كما يأمر الملك رعيته بأمر، ثم يتبعه بقوله: أنا أول من يفعل ذلك؛ ليحملهم على فعل ذلك».

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]:

قالها رسول الله ﷺ لمن ساومه على دينه، فقلها اليوم إن قابلت نفس المساومين.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]:

عجباً أن يخاف من عاقبة الذنب نبي معصوم، ولا يخاف منه إنسان جهول ظلوم.

لا محابة في هذا الدين لأحد على حساب المبادئ ولو كان نبياً!

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦]:

الرحمة الحقيقية هي صرف العذاب، وهذا وحده الذي يستحق أن يُسمى الفوز المبين.

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام: ١٦]:

آية تدلُّ على أن كل عقاب انصرف وكل ثواب حصل، هو ابتداء فضل من الله تعالى.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]:

أيُّ ضرر مهما كان صغيراً، في أجسادنا أو أرواحنا، في نفوسنا أو نفوس أحبائنا، لا يكشفه إلا الله.

من أعظم الضرر: حجاب العبد عن رب العالمين، وهو أشد وأخزى من عذاب الجحيم.

إذا سكن قلبك إلى الله لم تخف غيره، ولم ترجُ سواه، فلتطمئن قلوب أولياء الله ومن ضاقت بهم السبل من عباده الصالحين.

قال ابن القيم: «والتحقق بمعرفة هذا يوجب صحة الاضطراب وكمال الفقر والفاقة، ويحول بين العبد وبين رؤية أعماله وأحواله، فهو الذي يمس بالضرر، وهو الذي يكشفه، فمُسُّه بالضرر لحكمة، وكشفه الضر لرحمة».

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ خَيْرٌ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]:

هذه الآية من أسباب دواعي رجوع العبد إلى ربه بالكُلِّيَّة.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]:

قال ابن كثير: «هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجباه، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه الأشياء، وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه».

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]:

قال محمد بن كعب القرظي:

﴿لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾، قال: من بلغه القرآن، فكأنها رأى النبي ﷺ، ثم قرأ: ﴿وَمَن بَلَغَ أَبْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾، وقال أيضاً: من بلغه القرآن فكأنها كلمه الله عز وجل.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠]:

تساءل ابن عطية:

لم شبه معرفتهم له بمعرفتهم أبناءهم ولم يشبها بمعرفتهم أنفسهم؟ وأجاب بأن الإنسان يتقدم له زمن لا يعرف فيه حال نفسه - وهو زمن الصَّغَر - بخلاف ولده، فإنه يشاهده من صغره إلى كبره.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]:

سيفي ظلم الظالمين سدا منيعا حائلاً دون فلاحهم أو توفيقهم.

﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]:

ويحكم.. اسكتوا! حتى بين يدي الله تحلفون كذبًا!

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٤]:

يبرر المرء معصيته ليتهرب من عواقبها؛ وذلك ليلتمس النجاة بأي صورة، ولو بالكذب على نفسه.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]:

أعظم العقوبة.. أن يحال بينك وبين فهم كلام الله.

آية قتلت علي بن الفضيل بن عياض، وسُمِّي بها (قتيل القرآن): ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ

وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ...﴾ الآية [الأنعام: ٢٧].

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]:

الإضلال بعد الضلال هو قمة الفساد، فلا يقنعون بابتعادهم عن القرآن:

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، بل وينهون غيرهم عن سماعه: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾.

إخلاص أهل الباطل! اجتناب الناهي ما نهى عنه من تأكيدات النهي،

وأدعى لتصديق الناهي؛ ولذا آخر ﴿وَيَتَأَوْنَ﴾ عن ﴿يَنْهَوْنَ﴾.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]:

فيم خوفكم من القرآن؟! هذا اعتراف منهم بحلاوة نظم القرآن فوق نثرهم

وشعرهم، فيخافون من تأثيره على القلوب.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧]:

مجرد أول نظرة إلى النار جعلت صاحبها يتمنى الرجوع للعالم الخير،

فكيف يكون الحال بعد دخول النار ومقاساة العذاب؟!

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]:

الوقوف قريبًا من فوهة بركان في الدنيا يخلع الأفئدة، فكيف بالوقوف على

شفير النار؟!

﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا تُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨]:

هذا هو اليوم الذي تنهتك فيه الأستار، وتنكشف الأسرار، ويبدو للضعفاء ما أخفاه عنهم الزعماء، وما أغلقوا أبوابهم عليه من فضائح وأوزار.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]:

علم الله أن نفوسهم خبيثة، فلو رأت الغيب، واطلعت على العذاب، ما أفادها ذلك في حصول الثواب أو المتاب.

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]:

اليقين بالبعث من أسباب الصلاح! شتم رجلٌ عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: لولا يوم القيامة لأجبتك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]:

الإيقاف للمساءلة! شُبِّهَتْ حالهم في الإحضار للحساب بعملية القبض على الجناة، للوقوف بين يدي ربهم.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]:

الأوزار المعنوية في الدنيا ستتجسم على صورة كتل حسية في الآخرة، حتى تكون الفضيحة علنية؛ فمن سرق شاة أو بقرة سيُبعث يوم القيامة وهو يحملها على ظهره.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]:

عذابهم نوعان: معنوي بتحسرهم على ما فات، ومادي بتكبد مشقة حمل الأوزار الثقال.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]:

ليكن حزنك على ما فات من آخرتك أضعاف حزنك على ما فات من دنياك، وإلا لم تكن عاقلاً: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

من لزم التقوى زهد في دنياه وهانت عليه مصائبه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَدَّازِ

١٦٥٤

الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]:

١٦٥٥

تعزية من الله وتسلية لنبیه، فسر في حياتك على هذا النهج الرباني مع كل مصاب.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]:

١٦٥٦

انظر شدة حرص النبي ﷺ على أن تستجيب له أمته، وهكذا قلب كل داعية، عليه أن يكون رؤوفاً رحيماً بأمته.

﴿وَلَيَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ يَمْجِدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]:

١٦٥٧

الظلم نقل حق إلى غير مستحقه، وأبشع أنواع الظلم: الشرك؛ لأنه نقل حق الذات الإلهية المستحق وحده للعبادة إلى من لا يستحقها.

﴿فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَنَّهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]:

١٦٥٨

إذا بلغ أعداء الحق درجة تكذيب أهله وإيذائهم، فهذه علامة قرب النصر بشرط أن يحققوا الصبر.

﴿حَتَّىٰ أَتَنَّهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]:

١٦٥٩

لا يُرجى النصر إلا من عند الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَتَنَّهُمْ نَصْرُنَا﴾، ولم يقل: نصرهم هذا أو ذاك.

﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ

١٦٦٠

سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِغَايَةِ﴾ [الأنعام: ٣٥]:

في الآية ما لا يخفى من حرص النبي ﷺ وبذله كل ما يستطيع لهداية قومه، حتى لو قدر أن يأتيهم بآية من أعماق الأرض أو عنان السماء، لما تأخر.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]:

١٦٦١

شدة الخطاب للنبي ﷺ فيها سرٌ لطيفٌ، وهو تبعيد جنابه الكريم عن الحرص على ما لا يكون، والجزع في مواطن الصبر، ممَّا لا يليق إلا بالجاهلين، ولا

يقتضي هذا إقدامه على الجهل كما في قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ لا يدلُّ على أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَطَاعَهُمْ.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]: المستجيب للحق حي ولو كان أصم وأبكم وأعمى، والمعاند ميت ولو كان تامَّ الحواس!

من فقد سماع القلب لأوامر ربه حُرِمَ التوفيق في سائر أمره، والمقصود به سماع الاعتبار.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]:

استزادوا من المعجزات حتى حصل لهم ما يقطع كل عذر، ولم يعلموا أن مانع هدايتهم هو عمى بصائرهم ومرض قلوبهم.

﴿وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]: كل الحيوانات تعرف الله وتسبِّحه، ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]:

وجوب الرفق بالحيوان! قال ابن عاشور: «فيه تنبيه للمسلمين على الرفق بالحيوان؛ فإنَّ الإخبار بأنَّها أُمَمٌ أمثالنا تنبيهٌ على المشاركة في المخلوقية وصفات الحيوانية كلها».

﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]:

أمر الهداية والضلال مرَّده إلى المشيئة الإلهية، لكن هل قهرت هذه المشيئة الخلق وأجبرتهم؟ كلا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، فمن اختار الظلم والفسق والكفر ابتداء، حرمة الله من الهداية انتهاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَتَيْتُمْ السَّاعَةَ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠]:

الفطرة تعرف ربها جيداً، فإذا غشيها ركام الشهوات والأهواء فترة، ثم نزلت بها شدة أو محنة، تساقط عنها كل هذا الركام، فرجعت إلى خالقها.

﴿بَلْ إِلَآهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]:

التقييد بالمشيئة لبيان أن إجابة دعائهم غير أكيدة، بل هي تابعة لمشيئة الله تعالى.

﴿بَلْ إِلَآهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا

تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]:

في الآية أقوى دليل على أن أصل الدين هو الحجة والدليل، فإذا كنتم ترجعون إلى الله عند نزول الشدائد لا إلى الأصنام، فكيف تقدّمون عليه عبادة الأصنام؟!

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]:

صلى وصام لأمر كان يطلبه فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ

يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]:

قال داود عليه السلام: «سبحان مُستخرج الدعاء بالبلاء، وسبحان مُستخرج الشكر بالرخاء».

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]:

مرّ أبو جعفر محمد بن علي بمحمد بن المنكدر وهو مغموّم، فسأل عن سبب غمه فقيل له: الدّين قد فدّحه، فقال أبو جعفر: أفتّح له في الدعاء؟ قيل: نعم. قال: لقد بورك لعبد في حاجة أكثر منها من دعاء ربه، كائنة ما كانت.

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]:

قال ابن القيم: «إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن، فإن ردّه ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به، والشدّة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتُقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضًا، وللوقوف على أبواب غيره متعرضًا، وكانت البلية في حق هذا عين النعمة،

وإن ساءت وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب».

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣]:

قسوة القلب هي التي تكبل العبد عن بلوغ هذه المنزلة العظيمة: منزلة الضراعة والتمرغ في تراب العبودية.

﴿١٦٧١﴾ إذا حُرمت من التضرع لله، فاعلم أن في قلبك قسوة، وعلاجها: كثرة الذكر والاستغفار.

﴿١٦٧٧﴾ إذا قسا قلب العبد بالذنوب حُرِم التضرع بين يدي علام الغيوب!

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]:

فتح أبواب الدنيا على العبد قد يكون استدراجاً ومقدمة عقوبة سماوية.

﴿١٦٧٩﴾ من أعظم الاستدراج أن يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على معاصيه!

﴿١٦٨٠﴾ هذا نصُّ سنَّة الاستدراج! في الحديث: «إذا رأيت الله تعالى يُعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج» صحيح الجامع رقم: ٥٦١.

﴿١٦٨١﴾ تمادي الظلم وطغيان الظالم مؤذن بقطع دابره واجتثاثه من جذوره: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥]:

الظلم سبب العقوبة والهلاك، وقطع الدابر كناية عن استئصال جميع الظالمين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]:

قال ابن الجوزي: «يعاقب الإنسان بسلب معاني تلك الآلات، فيرى وكأنه ما رأى، ويسمع وكأنه ما سمع، والقلب ذاهل عما يتأذى به؛ ولا يتفكر في خسران آجلته، لا يعتبر برفيقه، ولا يتعظ بصديقه، ولا يتزود لطريقه، وهذه حالة أكثر الناس، فنعوذ بالله من سلب فوائد الآلات، فإنها أقبح الحالات».

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]:

الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يُهْلِكُ﴾ بمعنى لا يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ، الذين أصرّوا على الشرك والجحود، فهلاكهم سببه السخط عليهم وعقوبتهم؛ لأنهم عموا وصموا عن الهداية.

﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]:

قال الشنقيطي: «وفي الآية سؤال معروف: جاء في الأحاديث الصحيحة أن العذاب إذا نزل بقوم كفار، شَمِلَ مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وهذه الآية بَيَّنَّتْ أَنَّهُ لَا يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ؟ أُجِيبُ عَنْ هَذَا: بِأَنَّ الْعَذَابَ لَوْ شَمِلَ وَأَهْلَكَ مِنْهُ مَعْهُمْ، أَنَّ هَذَا الْهَلَاكَ تَحِيصٌ لَهُ، وَأَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ وَأَجُورٌ».

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]:

غاية ما يقدر عليه النبي أو الرسول هو الترغيب والترهيب، فلا سلطان لبشر - مهما علا - على القلوب.

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]:

الإيمان طاقة إيجابية هائلة، تدفع صاحبها إلى الإصلاح لا مجرد الصلاح.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩]:

جعل الله العذاب مأساً، كأنه كائن حي يوقع بهم ما يريد من آلام.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]:

مع أي نبي، إلا أنني لا أتخطى خطي أو أتجاوز حدّي، ولا أثبت لنفسي ما ليس لي، يقولها تواضعاً مع أنه أعظم نبي، فكيف يتجاوز حدّه من دونه من العباد؟! العباد؟! العباد؟! العباد؟!

كانوا يطلبون من النبي ﷺ المعجزات القاهرة، فكان مقصود كلامه إظهار العجز، والاعتراف بالضعف، وأن ما طلبوه لا يمكن تحصيله إلا بأمر الله وإذنه.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: ٥٠]:

من عمل بغير الوحي فهو كالأعمى، ومن عمل بمقتضى الوحي فهو البصير، فهل أنت في فريق العميان أم المبصرين؟!

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ [الأنعام: ٥١]:

الإنذار هو الإعلام بمواضع الخوف، وإنما خصّ الخائفين بالإنذار؛ لأن الإنذار للذين يخافون إنذاراً نافع، خلافاً لحال الذين ينكرون الحشر، والخوف علامة الإيمان، فخوف الحشر يقتضي الإيمان بوقوعه.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشَىٰ﴾ [الأنعام: ٥٢]:

تخصيص الغداة والعشى بالذكر، إشعار بفضل العبادة في هذين الوقتين؛ لأنها محل الغفلة والاشتغال بالأمور الدنيوية.

قال أبو العالية: «سألت أصحاب محمد ﷺ عن قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، فقالوا: كل من عصى الله فهو جاهل، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب» [النساء: ١٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]:

الكل مفتتن أي مختبر، فأما الغني فعليه أن يشكر، وأما الفقير فعليه أن يصبر، وكلاهما نجاح في الاختبار.

قال بعض السلف: «فتنة الضراء يصبر عليها البرُّ والفاجر، ولا يصبر على فتنة السراء إلا صديق»، ولما ابتلي الإمام أحمد بفتنة الضراء، صبر ولم يجزع، وقال: كانت زيادةً في إيماني، فلمَّا ابتلي بفتنة السراء - وهي شهرته وإقبال الناس عليه - جزع وتمنى الموت صباحاً ومساءً، وخشي أن يكون نقصاً في دينه!

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]:

النظرة الطبقية ليست وليدة اليوم! أهؤلاء الصعاليك خصّهم الله بالإيمان من بيننا!

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِغَايَتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]:

في صحيح مسلم أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوانه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي.

ويستفاد منه احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم، فإن في ذلك غضب الله.

كان أبو العالية إذا دخل عليه أصحابه يرحب بهم ثم يقرأ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِغَايَتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]:

كم في واقع الأمة اليوم من بشائر، يراها المتشائمون خسائر، ومن أعظمها: تمايز الصفوف وانكشاف الباطل.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ﴾ [الأنعام: ٥٤]:

قال مجاهد: «لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل».

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]:

أي: تتضح للناس ليكونوا منها على حيطة وحذر، وقد قيل: تعلم الشر لا للشر ولكن لتوقيه فإن من لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]:

اقطع بحسم آمال أهل الباطل فيك، وأطماعهم الفارغة في استمالتك إلى صفهم، وواجههم بالحقيقة دون موارد: أنتم في الضلال غارقون، وعن الهدى مبتعدون.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ۚ مَا عِندِيَ مَا تُسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]:

كذبوا بالبينات، تحت دعوى عدم نزول ما توعدهم به النبي من العذاب، وقد كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، وكأن موعد نزول العذاب بيد النبي!

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِندِي مَا تُسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٧]:

لو كان الأمر بيدي لأهلككم عاجلاً، غلبة لربي وتكذيبكم به، لكن الله هو الحاكم فيكم، وقد حكم بتأخير عذابكم رحمة بكم أو لحكمة عظيمة هو يعلمها.

﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٧]:

من الذي قضى؟! الله هو الذي قضى، وبُني الفعل للمفعول لتحويل الأمر، ومراعاة حسن الأدب مع الله.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]:

أي باستحقاقهم للعذاب العاجل أو إمهالهم، فتعجيل الهلاك لحكمة، وتأخيرها لحكمة، وليس لي من علم ذلك شيء.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]:

فكيف بدمعة مؤمن وزفرة مكروب ودعوة مظلوم؟!

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]:

قال ابن عباس: «ما من شجرة في بر ولا بحر إلا ملكٌ مُوَكَّلٌ بها يكتب ما يسقط منها».

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]:

سَجَّلَ اللهُ فِيهِ كُلَّ أَحْدَاثِ الْكَوْنِ، فَإِذَا جَاءَتِ الْأَحْدَاثُ كَانَتْ مُوَافِقَةً لِمَا سَجَّلَهُ اللهُ قَبْلَ آلَافِ السِّنِينَ!

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]:

يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ عِنْدَ النَّوْمِ وَعِنْدَ الْوَفَاةِ، وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَعَاقِبُكَ - إِذَا تَوَفَّاكَ بِاللَّيْلِ - عَلَى مَا جَرَحْتَ بِالنَّهَارِ، فَارْجُ اللهُ أَلَّا يَعَذِّبَكَ غَدًا - إِذَا تَوَفَّاكَ - عَلَى أَخْطَاكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

كُلُّ نَوْمَةٍ بِاللَّيْلِ هِيَ تَذْكِيرٌ إِجْبَارِيٌّ بِالْمَوْتِ، فَكُلُّ مَنْهَا وَفَاةٌ.

﴿وَهُوَ آَلَقَاهُمْ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]:

إِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ خَمْسَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: اثْنَيْنِ بِاللَّيْلِ، وَاثْنَيْنِ بِالنَّهَارِ، وَالْخَامِسَ لَا يَفَارِقُهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا.

﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٦٢]:

الْمَوْتُ بِاخْتِصَارٍ: رَحْلَةُ رَجُوعٍ إِلَى اللَّهِ.

﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]:

الْمَوْلَى بِمَعْنَى الْمَالِكِ وَالسَّيِّدِ، وَهُوَ اسْمٌ مُشْتَرَكٌ يُطْلَقُ عَلَى السَّيِّدِ وَالْعَبْدِ، وَهُوَ هُنَا السَّيِّدُ.

﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]:

الْحَقُّ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]:

مَالِكُهُمُ الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ، فَلَا يَشُوبُ مَلِكُهُ شُبْهَةً وَلَا نِزَاعًا، فَكُلُّ مُلْكٍ غَيْرِ مُلْكِ اللَّهِ مُلْكٌ غَيْرٌ حَقِيقِيٌّ.

﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَجَبْنَا

مِّنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣]:

قَالَ الرَّازِي: «أَمَّا ظُلُمَاتُ الْبَحْرِ، فَهِيَ أَنْ تَجْتَمَعَ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ،

وظلمة السحاب، ويضاف الرياح الصعبة، والأمواج الهائلة إليها، فلم يعرفوا كيفية الخلاص، وعظم الخوف.

وأما ظلمات البر، فهي ظلمة الليل، وظلمة السحاب، والخوف الشديد من هجوم الأعداء، والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب، والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد، لا يرجع الإنسان إلا إلى الله تعالى، وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً، وهو المراد من قوله: ﴿تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً﴾.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤]:

هذا ما قاله الله للمشركين، فعجباً لبعض المؤمنين كيف يتسرّب اليأس إلى قلوبهم؟!

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]:

من عقوبة الله للظالم أن يُسلّط عليه ظالماً آخر، ويكفي الله المؤمنين شرّهما.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]:

عجيب أن يؤمن الغريب ويكفر القريب، وقديماً قال طرفة: وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

﴿لِّكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]:

والنبا هو الخبر المهم، فلكل نبا أخبر الله به وقت، ومكان يقع فيه من غير تخلف ولا تأخر، إشارة إلى أن جميع ما خوفهم وتوعدهم به في المستقبل واقع لا محالة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُوضُونَ فِيْءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]:

قوة مناعة قلبك، لا تبرّر لك الإقامة في بؤر الفساد أو أماكن الوباء.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُوضُونَ فِيْءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]:

الإعراض سلاح من أسلحة المؤمنين؛ لأن الالتفات لهؤلاء ومناقشتهم يذكي نار جدالهم وحماستهم لباطلهم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُضُّونَ فِيْ ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى تَخُضُّوا فِيْ حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]:

بهذا التوجيه الإلهي يتم وأد الباطل في مهده، ويسلم المجتمع من شرّه.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٨]:

روى البغوي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُضُّونَ فِيْ ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً؟

فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾، يعني إذا قمتم عنهم، فما عليكم تبعة ما يقولون.

﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠]:

الإبسال هو الإسلام إلى العذاب، أو السجن والارتهان، والمعنيان صحيحان.

﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠]:

نفسك الأمانة بالسوء قد تؤدي لحبسك غداً، وتسلمك إلى العذاب والهلاك بسوء كسبها.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠]:

الأفكار المتعلقة بالشعائر الدينية وأمور العقيدة ليست مجالاً للتسلية أو الفكاهة والسخرية.. هذا خط أحر!

﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَيْنَمَا﴾ [الأنعام: ٧١]:

الهالك هو من لم يكن له أصحاب يدعونه إلى الهدى، ويقولون له: ائتنا.

﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَيْنَمَا﴾ [الأنعام: ٧١]:

من أعظم أسباب النجاة من الضلال والتمتع بالهداية وجود الأصحاب الصالحين.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢]:

إن لم تؤدِّ إقامة الصلاة إلى التقوى، فما هي بصلوات بل حركات.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣]:

هذا اليوم هو يوم القيامة، وخصَّه بالذكر لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا ملك الله الواحد القهار.

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣]:

صيغة قصر للمبالغة، أي قوله هو الحق الكامل؛ لأن أقوال غيره - وإن كان فيها كثير من الحق - فهي معرَّضة للخطأ، وما كان فيها صواباً فهو من وحي الله أو من نعمته بالعقل والإصابة، فالفضل فيه راجع إلى الله.

المراد بالقول كل ما يدل على مراد الله وقضائه يوم القيامة، وهو يوم يقول: كن، من أمر تكوين، أو أمر ثواب، أو أمر عقاب، فكل هذا من قول الله تعالى في ذلك اليوم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَاذَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٢]:

المؤمن ينكر على صاحب المنكر في وجهه دون مواراة، فالله أحق أن نخشاه.

هل جربت النظر إلى السماء في ظلمة الليل لتتفكر في ملكوت السموات والأرض؟ إنك إن فعلت لزداد يقينك بربك: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ

مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

﴿فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]:

الأفول صفة نقص تنافي الألوهية؛ لأنه غياب وبُعد عن الخلق، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لعباده.

﴿فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]:

تنزل لهم إبراهيم في المناظرة، وسلّم لهم بمقدمات باطلة بناء على زعمهم

الفاسد؛ ليتمكن من إفحامهم في النهاية، وهنا إبراز لصحة النظر العقلي والاستنتاج الذي استعمله معهم إبراهيم عليه السلام.

﴿لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]:

لا تظن أن هدايتك أو التزامك بتعاليم دينك قد حدث بفضل إمكاناتك وذكائك، لا يهدي إلى الله إلا الله.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِمِ رَبِّي بِرِيٍّ مِمَّا فُتِّرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]:

أي: هذا ربي، فهلتموا ننظر، هل يستحق الربوبية بحق؟ وهل هناك دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهًا بلا حجة ولا برهان.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]:

براعة الداعية وحسن الاستدلال! انظر حسن تدرجه في إقامة الحجة، فقد بدأ بأنه لا يجب الآفلين، ثم تدرّج وترقى إلى التعريض بضلالهم، ولو صارحهم بهذا من البداية لنفروا منه وما أصغوا إليه، ثم ترقى في المرة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم لأنهم على شرك، فتمت الحجة وظهر الحق.

﴿أَتُحْجَوْنَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠]:

كيف أترك ما ثبت لي بالدليل القاطع الموجب للهداية، وألتفت إلى حججكم الضعيفة، وكلما تكلمت الباطلة؟! ناقش عدوك بالمنطق!

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨٠]:

وأي خوف يقع علي وأنا لم أقع في شرك قط؟

وأنتم ما شمت قلوبكم رائحة التوحيد طوال حياتكم، ولا ذقت طعم الإيمان في سابق دهركم! ومع هذا تجرأتم على الله وما ارعويتم.

﴿وَلَا تَخَافُوبَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: ٨٠]:

قال ابن عاشور: «ولم يَقُلْ: (ولا تخافون الله)؛ لأنَّ القوم كانوا يعرفون الله ويخافونه، ولكنَّهم لم يخافوا الإِشْرَاقَ به».

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]:

ما لكم تنكرون علىَّ الأمن وأنا بالإيمان بلغته، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن وقد ارتكبتم أعظم ما يبعث على الخوف، وهو الشرك بالله، فأينا أولى بسوء مكره وعاقبة أمره؟

لماذا لم يقل: (فأينا أحقُّ بالأمن أنا أم أنتم)؟!

قيل:

- احترازًا من تركيته لنفسه، فعدل عنه إلى قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني: فريقين المشركين والموحِّدين.

- أو ليعمَّ بالأمن كلَّ موحدٍ، وبالخوف كلَّ مُشْرِك.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]:

تأملت فوجدت أن الحياة الآمنة لا توجد مع الظلم، فكل الظالمين غير آمنين، وإن تترسوا بالحرس والعتاد.

هنا قاعدة قرآنية! يتناقص شعورك بالأمن بحسب مقدار ظلمك!

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]:

كلما زاد إيمانك زاد أمانك.

﴿لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]:

أشارت اللام إلى أنَّ الأمن مُخْتَصُّ بهم وثابت، وهو أبلغ من أن يُقال: آمنون.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]:

الأمن منحة ربانية لا يستطيع أن يوفِّرها لك بشر.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ [الأنعام: ٨٣]:

كان زيد بن أسلم يقول في هذه الآية: إنه «العلم يرفع الله من يشاء به في الدنيا».

هي إجابة عن سؤال: لماذا يرفع الله بعض الناس دون بعض؟ فالله يعلم من يستحق، ومقدار استحقاقه، وذلك بحسب علمه وحكمته.

قال الشعبي:

«العلم ثلاثة أشبار، فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله، وأما الشبر الثالث فهيئات لا يناله أحد أبداً».

قال ابن تيمية:

«رفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين وآخر لا ينام الليل وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم وأرفع قدراً في قلوب الأمة، وذلك لقوة وصفاء المعاملة وخلوصها من شهوات النفوس».

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾

[الأنعام: ٨٤]:

الهداية درجات وليست درجة واحدة، وأعلاها التي تحصل للأنبياء، فسل الله من الهداية المقام الأعلى والدرجة الأسمى.

﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤]:

هنا يعدد الله نعمه على إبراهيم عليه السلام بشرف أصوله وفروعه، وفيه إشارة إلى أن الولد لا يُعدُّ نعمة إلا إذا كان مهتدياً.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤]:

استدل بهذه الآية من يرى أن الأنبياء أفضل من الملائكة؛ لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى، فيدخل فيه الملائكة.

١٧٠

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ
يُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ
وَأَجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٨﴾ [الأنعام: ٨٥-٨٧]:

ما سر هذا الترتيب؟!

قال الجمل: «اعلم أن الله تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبياً من غير ترتيب، لا بحسب الزمان، ولا بحسب الفضل، لأن الواو لا تقتضي الترتيب، ولكن هنا لطيفة في هذا الترتيب، وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من الأنبياء بنوع من الكرامة والفضل، فذكر أولاً نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول الأنبياء، وإليهم يرجع حسبهم جميعاً.

ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة: الملك والقدرة والسلطان، وقد أعطى الله من ذلك داود وسليمان حظاً وافراً.

ومن المراتب: الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد، وقد خص الله بهذه أيوب. ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف، فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة.

ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء كثرة المعجزات وقوة البراهين، وقد خص الله موسى وهارون من ذلك بالحظ الوافر.

ومن المراتب المعتبرة: الزهد في الدنيا، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس.

ثم ذكر الله بعد هؤلاء الأنبياء من لم يبق له أتباع ولا شريعة، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط، فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة كان هذا الترتيب حسناً، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه».

١٧١

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ﴾ [الأنعام: ٨٥]:

ترتيب مقصود! بدأ بزكرياً ويحيى لأنها أسبق من عيسى في الزمان، وبدأ بعيسى عطفاً على يحيى؛ لأنهما قريبان: ابنا خالة، ولأن عيسى رسول، وإلياس نبي غير رسول.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]:

أثنى الله على ثمانية عشر نبياً في سياق واحد، ثم ختم ثناءه عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] لأن الشرك ذنب لا يُغفر، ولو كان من أشرف الخلق!

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَتُولاَ فَقَدْ وَلَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]:

دعوة الله سائرة، والشرف لمن حملها، فإن تخلى عنها قوم أقام الله لها قوماً آخرين.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتُهُمْ أَقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]:

جاء الأمر باتباع الهدى لا المهتدين! فالفتنة لا تؤمن على حي، فاجعل دائماً ولاءك للفكرة لا للأشخاص.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]:

عن ابن عباس قال: قالت اليهود: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]:

تعلق بالقرآن تجد البركة. قال ابن تيمية: «وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن».

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]:

البركة أن يُعطي الشيء أكبر من حجمه المنظور، وبركة القرآن واضحة، فلو قسنا حجم القرآن بحجم الكتب الأخرى لوجدنا عدد صفحات القرآن أقل، ومع هذا ففيه من الخير والبركات والتشريعات والمعجزات والأسرار ما تضيق به آلاف الكتب.

﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢]:

ما أشرف الصلاة! قال الإمام الرازي: «ويكفيها شرفاً أنه لم يقع اسم الإيمان

على شيء من العبادات الظاهرة إلا عليها كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة، ففي الحديث: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»، فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام.

﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَىٰ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]:

قال ابن عباس: «ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن، فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا».

﴿وَالْمَلٰٓئِكَةُ بِأَسْطُوٓا۟ اَيْدِيْهِمْۙ اَخْرِجُوٓا۟ اَنْفُسَكُمْۙ﴾ [الأنعام: ٩٣]:

هذه حال الكافر أو الظالم عند قبض روحه، واستدلوا بهذه الآية على أن الملك الموت أعواناً من الملائكة.

﴿اَخْرِجُوٓا۟ اَنْفُسَكُمْۙ﴾ [الأنعام: ٩٣]:

قال الألوسي: «وذهب بعضهم إلى أن هذا تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة، بفعل الغريم المُلحَّ، يبسط يده إلى من عليه الحق، ويعنف عليه في المطالبة».

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ اِذِ الظَّٰلِمُوْنَ فِيْ غَمْرٰتِ الْمَوْتِ وَالْمَلٰٓئِكَةُۙ بِأَسْطُوٓا۟ اَيْدِيْهِمْۙ

اَخْرِجُوٓا۟ اَنْفُسَكُمْۙ اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]:

هذه الآية أحد الآيات الدالة على عذاب القبر.

﴿جَعْتُمْوُنَا﴾ [الأنعام: ٩٤]:

بصيغة الماضي وأريد به المستقبل؛ لتحقق وقوعه.

﴿وَلَقَدْ جَعْتُمْوُنَا فُرَادٰىۙ كَمَا خَلَقْنٰكُمْۙ اَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]:

وحيداً خلال إقامتك في قبرك، ثم في خمسين ألف سنة هي يوم حشرك، وليس معك حينها سوى عملك!

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]:

قال الشيخ الطنطاوي عن سِرِّ شجاعته في قول الحق: «إني لأتصور الآن ملوك الأرض وقد خرجوا من قبورهم حُفَاة عُرَاة منفردين فَاتَّعَظُ، فأقول من فوق هذا المنبر ما ينفعني في ذلك اليوم لا ما يُفيدني اليوم، ومن تصور هذا لم يعد يبالي بأحد».

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]:

أي يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقاً أخضر، وكذلك الحبة، فاستدلَّ بهذا المشهد اليومي المتكرر على الأمل القادم بلا سبب واضح أو مبرر.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]:

إن الذي يزيح ظلمة الليل كل يوم بانفلاق الصبح، قادر على تفريج كربك وتسريع فرجك وتيسير أمرك.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]:

الحكمة الثلاثية لخلق النجوم كما جاء في القرآن: الاهتداء، وتزيين السماء، ورجم الشياطين.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨]:

الأخوة أنواع، فمنها الأخوة في الخلق، والأخوة في الوطن، والأخوة في الدين، ولكل منها حقوق.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]:

لكم موضع استقرار في الأرحام أو في الأرض، وأما المستودع ففي أصلاب الرجال أو في القبور.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]:

ما الفرق بين المشتبه والمتشابه؟ الاشتباه في الشكل، والتشابه في الطعم، فالشكل واحد والطعم مختلف.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]:

١٧٨٢

أطاعوا الجن في عبادة الأوثان، وهو ما ما قرّره ابن كثير.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠]:

١٧٨٣

اختلقوا عليه بنين وبنات، بجهلهم وعدم علمهم بحقيقة ما قالوه، أو بغير علم شناعة ما قالوه.

إشارة إلى أنه لا يجوز أن يُنسب إلى الله إلا ما قام عليه الدليل، وفيه ذم من قال ما قال لمجرد الهوى.

١٧٨٤

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١]:

١٧٨٥

مبدعها على غير مثال سبق، ومنه سُميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف.

﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١]:

١٧٨٦

قال صاحب الكشاف: «وفي هذه الآية الكريمة إبطال لأن يكون لله ولد من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن مبتدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة.

والثاني: أن الولادة لا تكون إلا لمن له صاحبة، والله تعالى لا صاحبة له، فلم تصح الولادة.

والثالث: أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج».

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ

١٧٨٧

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]:

تعرف إلى الخلق بآياته، ثم تعرف إليهم بصفاته، ثم كاشفهم بحقائق ذاته.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٢]:

ذلكم: اسم إشارة للبعيد، إشارة إلى غاية البعد عن أن يُنسب إلى الله صاحبة أو ولد.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]:

هذا في الدنيا، لكن حدث نفسك باليوم الذي ترى فيه الله في الآخرة. قال الإمام ابن كثير: «تواترت الأخبار عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات».

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]:

لذا يجب أن تخافوا منه وتحذروه.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]:

البصر الحقيقي بصر القلب!

البصائر جمع بصيرة، وهي للقلب بمنزلة البصر للعين، لكنها الأهم، فكم من أعمى البصر حاد البصيرة، وكم من مبصر لكن أعمى البصيرة.

﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]:

وفي الكلام حذف تقديره: ولئلا يقول أهل مكة جهالة وسفاهة أنك درست على يد أهل الكتاب، وفي قراءة: (دارست) أي أهل الكتاب، ثم أتيت بهذا القرآن.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]:

ليس إعراضاً عن دعوتهم، بل أعرض عنهم بقلبك، ولا تستهلك مشاعرك في الحزن والحسرة عليهم، ولا تُبالٍ بتكذيبهم واستهزائهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]:

قال الألوسي: «وهذا دليل أهل السنة على أنه -تعالى- لا يريد إيمان الكافر،

لكن لا بمعنى أنه يمنعه عنه مع توجهه إليه، ولكن بمعنى أنه - تعالى - لا يريده منه لسوء اختياره الناشئ من سوء استعداده».

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]:

١٧٩٥

قال ابن عاشور: «هذا تطف مع الرسول ﷺ، وإزالة لما يلقاه من الكدر من استمرارهم على الشرك، وقلة إغناء آيات القرآن ونذره في قلوبهم، فذكره الله بأن الله قادر على أن يحول قلوبهم، فتقبل الإسلام، ولكن الله أراد أن يحصل الإيمان ممن يؤمن بالأسباب المعتادة في الإرشاد والاهتداء، ليميز الله الخبيث من الطيب وتظهر مراتب النفوس في ميادين التلقي».

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]:

١٧٩٦

حين تكون مهذباً في كلامك، فأنت تصون دينك عن عبث العابثين وكلمات الجاهلين.

ليس مطلوباً فقط أن تفعل ما تراه صحيحاً، لكن لا بد ألا يؤدي فعلك الصحيح إلى مفسدة أكبر.

١٧٩٧

قال أبو حيان: «إذا كانت الطاعة تؤدي إلى مفسدة، خرجت عن أن تكون طاعة؛ فيجب النهي عنها كما ينهي عن المعصية».

١٧٩٨

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]:

١٧٩٩

طلبوا خوارق العادات وأعرضوا عما رأوا من عظيم المعجزات، فأخبر الله أنه لو جاءهم بما يطلبون، فإنهم لا يؤمنون.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]:

١٨٠٠

قال ابن القيم: «من عرض عليه حق فردّه ولم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه».

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]:

قلبك متقلب، وأمره ليس بيدك! فتقرب لربك ليقرب قلبك إلى ما ينفعه، ويبعده عما يضره.

لما احتضر أبو الدرداء جعل يقول: من يعمل لمثل يومي هذا؟ لمثل ساعتني هذه؟ من يعمل لمثل مضجعي هذا؟ قال: ثم يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَهُمْ

وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]:

احذر أن يعاقبك على ثاقلك عن اتباع الحق أول مرة بأن يقلب فؤادك، فلا تهدي للحق، أو تهدي له ولا تقدر على الاستجابة له، ولو حرصت!



الجزء الثامن

من سورة الأنعام من الآية ١١١
إلى سورة الأعراف آية ٨٧
عدد الفوائد: ٢٨٧

عندك مشكلة؟! تعاني من أزمة؟!
الحل:

افتح مصحفك، واستقبل الحل الناجع في وصية
قرآنية تجدها في ثنايا ورد قرآنك، فالله ما ضاقت بك
الدنيا إلا واتسعت بآية تقرأها في كتاب الله، وكأن
الله يواسيك ويناديك: أنا أعلم بما يداويك!

الجزء الثامن من سورة الأنعام من الآية ١١١ إلى سورة الأعراف آية ٨٧

﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]:

إيمانك رهنٌ بمشيئة الله وتوقيفه، فهل أدركت الآن قدر حاجتك إلى ربك؟!

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]:

هيئات أن تسلك طريق الأنبياء دون أن تلتقي بأعدائهم على قارعة الطريق!

﴿زُحِرْفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]:

إذا كثرت (زخارف) القول، فاعلم أنها تخفي وراءها عيوب فكرة باطلة.
قال ﷺ: «إنما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان».

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]:

شياطين الإنس أشد خطورة من شياطين الجن؛ لذا قدّم الله ذكرهم هنا.

حتى الأنبياء كان لهم أعداء، فكيف تستبعد وجودهم حولك!

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: ١١٢]:

كلما كانت رتبة العبد أعلى، كانت البلايا أشد والعداوات أصعب؛ ولذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]:

أطفئ لهيب الحزن والألم في قلبك، وتعرف على الحكمة الغائبة من الأحداث،

وذلك بتأملك في قول ربك: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣]:

التدرج الشيطاني مخادع و رهيب.
فأول خطوة: الإصغاء..
والثانية: الرضا..
والثالثة: اقتراف الحرام.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]:

كل ما في القرآن لا يزيد عن خبر أو أمر، فخبره صدق، وأمره عدل، بل لا أصدق من الأخبار التي أودعها الله في كتابه، ولا أعدل من أوامره ونواهيه.

أتباع الشياطين أكثر من أتباع المرسلين، واقرأ إن شئت: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فلا تغرنك الكثرة!!

﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦]:

الاغترار بالكثرة يؤدي إلى العقل الجمعي ويفسّر سياسة القطيع، والتي تقودك لمواكبة من حولك ولو كانوا على خطأ.

﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]:

كثرة الأتباع ليست دليلاً على صحة المنهج، وإلا فإبليس صاحب أكثر الأتباع على وجه الأرض، ومن اغتر بكثرة أتباعه صرعوه، وتحكّموا به وأهلكوه.

﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]:

أهل الحق أقل عدداً لكنهم أثقل وزناً، وأهل الباطل كثرة، لكن لا وزن لهم عند الله. الأكثرية ليست دائماً دليل الصوابية، والأقلية ليست دليل الخطأ.

احذر تأثير الكثرة والانجراف مع التيار، فقد أخبر الله في كتابه أن طاعة الأكثرية كفيلة بإضلال سيد الأنبياء (مع استحالة ذلك في حق النبي المعصوم)، فكيف بمن دونه من الضعفاء؟!

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

[الأنعام: ١١٧]:

مقصد الآية إظهار شدة اعتناء الله بالمهتدين، وإحاطة علمه بضلال الضالين.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨]:

سبب نزولها: نزلت الآية بسبب أناس أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله.. إنا نأكل ما نقتل، ولا نأكل ما قتل الله؟ فنزلت: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

قال عطاء: «في هذه الآية أمرٌ بذكر اسم الله على الشراب والذبح وكل مطعوم».

﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]:

أشد ألوان الفساد أن تضل، ثم تُضِلَّ غيرك، والسبب: أنك بلا علم، وأقرب إلى شاطئ الجهل.

قال الإمام الرازي: «وقد دلَّت هذا الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة، والآية دلت على أن ذلك حرام».

﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]:

قال سهل بن عبد الله عن الإثم: «ظاهره الفعال، وباطنه الحب له».

باطن الإثم يشمل ما لا يعرفه الخلق من الحسد والحقد وسوء الظن بالناس وإضمار الشر لهم، وغيرها من آثام القلوب.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرِ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]:

الرأي الفقهي الراجح أن ترك التسمية نسياناً لا يضر، أما عمداً فلا تحل معه الذبيحة.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ^ط وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]:

دليل على أن ما يقع في قلوب البعض من الإلهامات والكشوف، لا تدل على أنها حق، ولا تُصدَّق حتى تُعرَض على كتاب الله وسنة رسوله.

قال ابن تيمية: «الوحي وحيان: وحي من الرحمن ووحي من الشيطان. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ﴾، وقد كان المختار بن أبي عبيد من هذا الضرب حتى قيل لابن عمر وابن عباس: أحدهم يقول إنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ﴾».

﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]:
القرآن حياة لقلبك، ونورٌ يضيء ظلام دربك.

﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]:
نفع المؤمن ليست مقتصرًا على نفسه، ونوره وأثر بركته يفيض على غيره.

﴿فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]:
أثر طول الضلال!

قال الرازي: «فإذا دام كون الكافر في ظلمات الجهل، والأخلاق الذميمة، صارت تلك الظلمات كالصفة الذاتية اللازمة له؛ يعسر إزالتها عنه، نعوذ بالله من هذه الحالة».

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]:
في كل بلد مجرمون يُفسدون، فإن تركهم الناس ولم يأخذوا على أيديهم هلكوا جميعًا!

سين: لم اكتفى بذكر أكابر المجرمين؟!
جيم: لأن باقي المجرمين تبع لهم.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾

١٨٣٤

[الأنعام: ١٢٤]:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل عليه السلام، فيخبرنا أن محمداً صادق كما قالوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بِلَآئِهِ وَالْمَلَكَةِ قَبِيلًا﴾.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]:

١٨٣٥

لا تقلق على دعوة الله، بل اقلق على نفسك إن لم تخرج من غنمة الدعوة بسهم، فإن لم تكن بها لن تكون بغيرها، ودعوة الله إن لم تكن بك كانت بغيرك.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]:

١٨٣٦

الإجرام لون من ألوان الاستكبار؛ لذا يعاقب الله صاحبه بالذل والصغار، ليكون جزاؤه يوم القيامة من جنس عمله، ففي الحديث: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ». صحيح الجامع رقم: ٨٠٤٠.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الأنعام: ١٢٤]:

١٨٣٧

توعد الله المجرمين بعقوبتين: الإهانة وهي الصغار، والضرر وهو العذاب، وقدّم الإهانة لأنهم قصدوا بالتمرد على النبي صلى الله عليه وسلم حصول العز والمكانة، فعاقبهم الله بعكس مطلوبهم.

﴿يَشْرَحُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]:

١٨٣٨

بقدر إيمانك وحسن إسلامك يكون انشراح صدرك.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]:

١٨٣٩

ضيق صدرك لعله علامة ضلالك عن طريق الحق، فتخلص من هذا الضيق بالرجوع إلى الحق.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي

١٨٤٠

السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]:

قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية، ثم سأل أعرابياً: ما الحرجة؟ قال: الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦]:

هناك قولان: الصراط المستقيم هو الإسلام أو القرآن، فاثبت عليه، ولا يحرفك عنه شيطان، بأن تحرّم ما أحل الله، أو أن تُحلّ ما حرّم الله.

﴿هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]:

أبشّر أخي المصاب! دار السلام غداً تحوي كل ألوان السلامة، فلن يصيبك فيها حزن ولا همٌّ ولا غمٌّ ولا نصب ولا أدنى أذى.

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]:

قال الرازي:

«يشعر بأن ذلك الأمر المدخر موصوف بالقرب من الله تعالى، وهذا القرب لا يكون بالمكان والجهة، فوجب كونه بالشرف والعلو والرتبة، وذلك يدل على أن ذلك الشيء بلغ في الكمال والرفعة إلى حيث لا يعرف كنهه إلا الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]».

﴿هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]:

ثلاث تشريفات إلهية! قال الرازي:

«في هذه الآية تشريفات لمن عناهم الله بالآية:

النوع الأول: قوله: ﴿هُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾، وهذا يوجب الحَصْرَ؛ فمعناه: لهم دار السّلام لا لغيرهم.

النوع الثاني: قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وهذا يدلُّ على قُرْبِهِمْ من الله تعالى.

النوع الثالث: قوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾، وهذا يدلُّ على قُرْبِ الله منهم».

﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]:

استكثرتُم من إضلالكم للإنس، فأضللتم منهم خلقاً كثيراً، فاللهم لا تجعلنا من هذه الكثرة الضالة، واكتبنا من القلة المهتدية.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨]:

استمتع الجن بالإنس أنهم تلذذوا بطاعة الإنس لأوامرهم، وتلذذ الإنس بالجن أنهم قبلوا أمرهم بالمعصية، فآثروا الشهوات الحاضرة على اللذات الغائبة.

﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]:

وصلنا المحل الذي نُجازي فيه بالأعمال، فافعل بنا ما تشاء، وفي الكلام تضرع منهم وإشفاق، لكن للأسف! بعد فوات الأوان؛ لذا صدر الحكم الإلهي العادل فيهم: ﴿النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]:

ينتقم الله من الظالمين بالظالمين، ثم ينتقم من الظالمين أجمعين، فكأن الظالم له رسالة في الحياة، أن ينتقم من ظالم مثله، قبل أن يهلكا جميعًا.

سئل الأعمش عن هذه الآية، فقال: سمعتهم يقولون: «إذا فسد الناس أُمر عليهم شرارهم».

﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]:

الاستفهام هنا للتقريع والتبكي، وهو لون من ألوان العذاب النفسي في النار، وهو أشد وقعًا من العذاب الحسي.

دليل على أن الله لا يُعَذِّبُ أحدًا حتى يبعث إليه رسولًا، فتبلغه الرسالة، وتقوم عليه الحجة، فمن لم تبلغه الرسالة، فلا يعذب.

﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ

أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]:

ما أخطر الدنيا التي تغر أهلها باللذات الزائلة، فيعرضون عن الآخرة الخالدة، ويضطرون في النهاية إلى الشهادة على أنفسهم والاستسلام للعذاب، وهذا تحذير لكل سامع ألا يسلك نفس الطريق.

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]:

هل هناك تعارض بين هذه الآية وبين حكاية الله عن قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟

والجواب: هناك احتمالان:

الأول: أن يكون ذلك من طوائف: طائفة تُشْهَد، وطائفة تُنْكِر.
الثاني: أن يكون ذلك من طائفة واحدة؛ مع اختلاف أحوالهم لطول يوم القيامة: فيُقَرُّون في بعضها، ويُجحدون في بعض، وهذا يدل على شدة خوفهم واضطرابهم؛ فإنَّ مَنْ عَظُمَ خوفه كَثُرَ الاضطراب في كلامه.

﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]:

الذي يغرُّ هو الشيء الذي يكون له قدر ومكانة، وهذه الدار لا قدر لها؛ لذا وصفها الله بأنها «دنيا»!! فأعظم الغرور إيثار الحقير رغم وقوع التحذير، وهو من عمى البصيرة.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]:

قال القشيري: «متى يصحُّ في وصفه توهم الظلم والملك ملكه والخلق خلقه؟ ومتى يقبح منه تصرُّفٌ في شخصٍ بما أراد، والعبد عبده والحكم حكمه؟».

قبل الإهلاك يبعث الله الرسل، والرسول إما أنبياء أو رسائل إلهية، مثل نزع البركة وغياب الأمن وغلو الأسعار، فإذا استحكمت غفلة الناس، ولم تحدث اليقظة - رغم وجود الرسل - كان الهلاك.

قال ابن عادل: «تدل على ألا وجوب ولا تكليف قبل ورود الشَّرع».

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا..﴾ [الأنعام: ١٣٢]:

قدرك عند الله على قدر عملك.

الخير درجات، والشر درجات، وفي المقابل: الجنة درجات، والنار درجات.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]:

الغنى والرحمة نادرًا ما يجتمعان، ولا يجتمعان إلا في عظيم! فسبحان ربي العظيم.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣]:

آية تبث الطمأنية في قلوب المستضعفين الذي يلاقون أصناف العذاب من المجرمين، أن الجميع في قبضة الله وتحت مشيئته، وأنه قادر على تبديل الأحوال.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]:

ترشدك إلى قصر الأمل، فكل آت قريب، ومن قصر أمله لا بد أن يحسن عمله.

لا أحد يقدر على أن يمنع تحقيق وعد الله أو وعيده، بل إن زوال السماوات والأرض لأهون على الله من إخلاف وعد من وعوده.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤]:

التعبير بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام، فلن تُعجزوا الله —أيها المجرمون— هرباً فتفوتوه، بل أنتم في قبضته وتحت سلطانه وقهره، وهو قادر على أن يُنفذ وعيده فيكم في أي لحظة متى شاء.

﴿قُلْ يَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ

تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥]:

تهديد في صيغة أمر، أي زيدوا في الضلال، والكيد والاحتيال، وضاعفوا مكرهم الذي تزول منه الجبال، فإن العاقبة —رغم كل هذا— للمتقين.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ [الأنعام: ١٣٥]:

أعلنها مع نبيك: إني عامل على مكاني، وثابت على مبدئي، ولن أترشح قيد أنملة عن ديني ودعوتي.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥]:

تعلموا فن الحوار! فيه إنصاف في المقال، وحسن أدب في الحوار، حيث لم يقل لهم —مثلاً— العاقبة لنا، وإنما فوّض الأمر في ذلك إلى الله، فهو كقول: ﴿وَإِنَّا أَوْ

إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

١٨٦٨

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ
فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]:

يكذبون على الله ثم يفضلون عليه ويظلمون! ثلاث جرائم: يكذبون في جعلهم لله نصيباً من الحرث والأنعام، ثم يفضلون على الله بهذه القسمة الباطلة، وليتهم وفوا بها، بل أضافوا إليها حكماً جائراً، فكانوا يسرقون حق الله، فإذا ما أصابت زرعهم آفة وأهلكته أخذوا ما خصَّصه الله وأعطوه لشركائهم، قائلين: إن ربنا غني! وفي الأنعام: إذا أصابهم فقر أو ماتت بهيمة من التي نذروها لله لم يعوضوها، وإذا ماتت بهيمة منذورة للأصنام أخذوا بدلاً من الذي نذروه لله، وهكذا ساء حكمهم وكان فاسداً.

١٨٦٩

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]:
دقة الخبر القرآني! وإنما قال: لكثير من المشركين لأن قتل الأولاد لم يكن فعل جميع القبائل.

١٨٧٠

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَاءُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]:

والتزيين: التحسين، فجعلوا عملية قتل فلذات الأكباد ووآد البنات حسنة في نظر الآباء؛ وذلك خشية العار أو الفقر أو أن يؤخذن سبايا، ألا ما أخطر تأثير الصحبة وآراء الأصدقاء!

١٨٧١

﴿شُرَكَاءُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]:
سماهم الله شركاء لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من قتل أولادهم ووآد بناتهم، فأشركوهم مع الله في الطاعة والحكم.

١٨٧٢

إذا كان أهل العقيدة الباطلة ضحوا بفلذات أكبادهم إرضاء لباطل مزعوم وأوهام، أفلا يضحي صاحب العقيدة الصحيحة بكل ما يملك في سبيل الحق وإرضاء الرحمن؟!

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]:

أنعام يمنعون الناس من أكل لحومها، وحبوب وثمار يمنعون أكلها، وأنعام يحرمون ركوب ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، وهو كناية عن منع الحج عليها، أو لا يذكرون اسم الله عليها عند نحرها، بل يذكرون اسم ما قُربت إليه، زاعمين أن الله أمرهم بذلك؛ فلذا قال: ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾، إذ لا يعقل أن يُنسب إلى الله تحريم ذكر اسمه على الأنعام التي تُقرب لغيره.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]:

استدل بها العلماء على أنه لا يجوز للمرء وقف بعض أمواله لأولاده الذكور دون الإناث، وأن ذلك الوقف يُفسخ ولو بعد الموت؛ لأنه من فعل الجاهلية.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩]:

من ألوان كفرهم أنهم قالوا: ما في بطون هذه الأنعام المحرمة، إذا نزل منها حيًّا، فأكله حلال للرجال دون النساء، وإذا نزل ميتًا فأكله حلال للرجال والنساء على السواء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]:

قال الإمام ابن كثير: «قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيّقوا على أنفسهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافتراءهم».

التعبير بقوله: ﴿خَسِرَ﴾ دون ذكر مفعول معين للإشارة إلى أن خسارتهم خسارة مطلقة من أي تحديد، فهي خسارة دينية وأخروية وخسارة دنيوية.

﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]:

دليل على وجوب الزكاة في الزروع والثمار، وأنها تجب يوم الحصاد.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]:

قال مجاهد: لو كان أبو قبيس (جبل) ذهباً فأنفقه رجل في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفاً، ولو أنفق درهما في معصية الله تعالى كان مسرفاً.

قيل لحاتم الطائي: لا خير في السرف، فأجابهم: بل لا سرف في الخير.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا﴾ [الأنعام: ١٤٢]:

الحمولة هي ما حُمِلَ عليه من الإبل وغيرها، والفرش صغار الإبل التي لم تدرك أن يُحْمَلَ عليها.

﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُّنِ بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]:

قال الألوسي: «والمعنى: إنكار أن الله تعالى حَرَّمَ عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم في ذلك، وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمبالغة في الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افتراءهم، فإنهم كانوا يجرِّمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادها كيفما كانت تارة أخرى، مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه.

﴿نَبِيُّنِ بِعِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٣]: دليل على تحريم الإفتاء بغير علم، وأن شأن من يتصدى للتحليل والتحريم أن يكون ذا علم.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمُ اللَّهُ بِهِذَا﴾ [الأنعام: ١٤٤]:

أنتم حاضرين حين وصاكم الله وأمركم بهذا التحريم؟ كلا، ما كنتم حاضرين، فمن أين لكم هذه الأحكام الفاسدة؟ فالجملة تبكي على افتراءهم على الله.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]:

إذنان بأن التحريم إنما يُعَلِّمُ بالوحي لا بالهوى.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ

مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]:

أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت:

يا رسول الله! ماتت فلانة (يعني الشاة)، فقال: فلو لا أخذتم مسكها؟ فقالت:

نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله ﷺ: إنما قال الله عز وجل:

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ

مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾، فإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه تنتفعوا

به، فأرسلت إليها فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قربة، حتى تحرقت

عندها.

﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]:

كان العرب يأكلون الدم الذي يسيل من أوداج الذبيحة، ويجمعونه ويحففونه

ثم يشوونه، وربما خلطوا الدم بالوبر ويسموناه (العلهز)، وذلك في المجاعات،

وتقييد الدم بالمسفوح للتنبيه على العفو عن الدم الذي ينز من عروق اللحم

عند طبخه فإنه لا يمكن الاحتراز عنه.

قال القرطبي: «والآية مكية، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير

هذه الأشياء، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخنقة

والموقوذة والمتردية والنطيحة وغير ذلك، وحرّم رسول الله ﷺ بالمدينة أكل

كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير».

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا﴾ [الأنعام: ١٤٦]:

كذب اليهود! قال ابن حيان: «في الآية تكذيب اليهود في قولهم: إن الله لم يحرم

علينا شيئاً، وإنما حرّمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه».

١٨٩٠

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]:

قال ابن عاشور: «مناسبة تحريم هذه المحرمات للكون جزاء لبغيهم: أن بغْيهم نشأ عن صلابة نفوسهم، وتغلب القوة الحيوانية فيهم على القوة الملكية، فلعل الله حرم عليهم هذه الأمور تخفيفاً من صلابتهم، وفي ذلك إظهار منته على المسلمين بإباحة جميع الحيوان لهم إلا ما حرمه القرآن وحرّمته السنة، مما لم يختلف فيه العلماء وما اختلفوا فيه».

١٨٩١

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]:

الخطاب لليهود، فلا ينقطع الأمل من هداية أحد.

١٨٩٢

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]:

سيظل التذرع بالأقدار سبيل البعض للإقامة على الأوزار، وترك الصلاة والتقصير في الحجاب هما أعظم مثال.

١٨٩٣

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]:

لو شاء أن يكرهكم على الهداية بقدرته لفعل، لكنه ترك لكم حرية الاختيار، بلا قهر ولا إجبار.

١٨٩٤

﴿قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٥٠]:

من أتاك بتحريم شيء، فطالبه بالدليل.

١٨٩٥

﴿نَحْنُ نَزَّلُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]:

وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي لا تخافوا من فقركم بسبب أولادكم؛ ولهذا قال هناك: ﴿نَحْنُ نَزَّلُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، فبدأ

برزقهم للاهتمام بهم، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ لأنه الأهم ها هنا.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]:

ما بطن من الفواحش هو محبة القلب للذنب، لكن لا يقدر صاحبه على فعله لعدم توفر الظروف أو لخشية افتضاحه بين الناس، ولو تخلص من هذا لوقع في الذنب.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ [الأنعام: ١٥١]:

الاقتراب من الخطر هو بداية السقوط!

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]:

قال الإمام الرازي: «في قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ﴾ دقيقة، وهي: أنَّ الإنسان إذا احتَرَزَ عن المعصية في الظاهر، ولم يحتَرِزَ عنها في الباطن؛ دَلَّ ذلك على أنَّ احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته، ولكن لأجل الخوف من مذمَّة الناس، وذلك باطل؛ لأنَّ من كان مذمَّة الناس عنده أعظم وقعًا من عقاب الله؛ فإنه يُحْشَى عليه من الكُفْرِ».

﴿وَصَنَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]:

بحسب قيام العبد بأمر الله يكون عقله، وبحسب تقصيره يكون نقصان عقله.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]:

ما أقبح أن تُضَاعِفَ جراح اليتيم بأخذ ماله دون وجه حق.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]:

في الثقافة العائلية والقَبَلِيَّة، أنت تقف مع أسرَتك وعائلتك حتى لو خالفت القانون، إلا في ديننا الإسلامي، فأنت تقف مع الحق ضد أسرَتك!

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ

سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]:

«خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: سبيل الله مستقيمًا، ثم خط خطوطًا

عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه
 شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
 السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ صحيح ابن حبان رقم: ٦.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
 وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]:

أزمتنا أزمة يقين! لو أيقنوا بقاء الله لاستعدوا له، وعملوا بالكتاب، فكان لهم
 هدى ورحمة.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]:

قال السعدي: «فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً».

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ
 لَغَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦]:

قد يحتاج بعض المشركين بأن التوراة والإنجيل لو أنزلت عليهم لكانوا أهدى
 من اليهود والنصارى، فقطع الله عليهم كل عذر بأن أنزل إليهم القرآن.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِفَايْتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]:

من أعظم الناس ظلماً؟! صدف عن الشيء أي انصرف عنه وصرف عنه غيره،
 فجمع بين الضلال والإضلال، فحمل أوزاره وأوزار من تبعه.

﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا
 خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]:

لماذا لا ينفع النفس إيمانها؟

قال السعدي: «والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً
 بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وُجِدَت الآيات صار الأمر شهادة،
 ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق
 ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه».

﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]:

انتظار الفرج من أعظم العبادات، فأحسن الظنَّ برب الأرض والسموات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]:

نزلت في اليهود والنصارى، نهانا الله عن التفرق مثلهم، فتوحدوا اليوم علينا، وتفرقنا!

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]:

العشر أقل ما وعد الله به من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين، وسبعمائة، وبغير حساب؛ ولذا قيل: المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر.

قال المهامي: «كمن أهدى إلى سلطان عنقود عنب، يعطيه بما يليق بسلطنته، لا قيمة العنقود».

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]:

وهذا من عظيم رحمة الله! ولذا قيل: ويل لمن غلبت آحاده عشراته!

معاملة الله لنا بين الفضل والعدل! فالثواب من باب الفضل؛ ولذا ينال العبد به أجورا مضاعفة إلى ما لا نهاية، وأما العقاب فمن باب العدل.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]:

نصُّ قرآني صريح أنَّ السَّيِّئَاتِ لَا تُضَاعَفُ، لكنَّ السَّيِّئَةَ تَعْظُمُ بِحَسَبِ عِظَمِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَإِذَا عَظُمَتِ السَّيِّئَةُ عَظُمَ جَزَاؤُهَا؛ كما قال في حَرَمِ مَكَّةَ:

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدُقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقال عن الأشهر الحرم: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةُ حُرُمٍ﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ آَلَقِيمُ فَلَا

تَظْلِمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]:

قرأه نافع وابن كثير قِيَمًا، والقِيَم - بفتح القاف وتشديد الياء - وصف للمبالغة في القيام بالأمر، وهو مرادف القيوم، فالإسلام قِيَمٌ بالأمة وحاجاتها، يقال:

فلان قيّم على كذا، بمعنى مدبر له ومصلح، ولا أصلح من الإسلام تنصلح به أحوال ديانا وآخرتنا.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]:

١٩١٦

الإسلام نظام شامل يشمل شؤون الحياة جميعاً، ولا فصل فيه بين سياسة الأمة ودينها.

﴿لَا شَرِيكَ لَهٗ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]:

١٩١٧

خذها رسالة! كن أول المسارعين إلى تنفيذ أمر الله والامثال له، فالكُلُّ مأمورون بذلك، ونحن مأمورون -فوق ذلك- بأن نقتدي بالأنبياء والمرسلين.

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بِنِيعِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]:

١٩١٨

ولم يقل: قل أغير الله أعبد ربًّا، فمجرد أن يتطلع إلى رب غير الله غير وارد، وهذا من الأساليب البلاغية الرائعة، فإذا كان مجرد التفكير في إله غير الله أمر مرفوض، فكيف يُقبل أن يُعبد غير الله؟!

قال ابن كثير: «أي: فلا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر، ففي هذه الآية الأمر بإخلاص العبادة والتوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة لله تعالى».

١٩١٩

﴿لَيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]:

١٩٢٠

أي ليمتحانكم فيما أعطاكم من نعم، والنعم هي رصيدكم في سوق الحياة، والسوق مكان التجارة، فيربح فيه من ربح، ويخسر من خسر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]:

١٩٢١

هو العقاب المعجل على الذنب في الدنيا، قبل أن يرجع إلى الآخرة، فيلقى العقوبة الأشد.



سورة الأعراف

﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]:

كيف تحمل رسالة تتخرج عن ذكر تفاصيلها أمام غيرك؟!

لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغ القرآن مخافة أن يكذبوك أو يؤذوك أو يستهزؤوا بك، فبلغ رسالة الله ولو ساءهم ذلك.

خطاب لرسول الله ﷺ يتضمن خطاباً لأمته، فإياك أن تتخرج من آية في كتاب الله أن تبلغها لغيرك!

قال مجاهد وقتادة: الحرج هنا: الشك؛ لأن الشاك ضيق الصدر، والمراد أمة النبي ﷺ، أي: لا يشك أحد منكم في آية من كتاب الله.

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]:
وجوب اتباع شرع الله! قال ابن القيم: «أمرٌ باتباع ما أنزل الله على رسوله، ونهي عن اتباع غيره، فما هو إلا اتباع المنزل؛ أو اتباع أولياء من دونه، فكل من لا يتبع الوحي؛ فإنما يتبع الباطل، واتبع أولياء من دون الله».

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]:
فأحر منه يسقط ما خاتمه إلى فاتحته من القرآن ليقراً أحدكم إن: (مسعود ابن قال به العمل أسقط وقد

﴿فَجَاءَهَا بِأُسْتَا بَيْنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]:

قال ابن كثير: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيْنًا﴾ أي: ليلاً
﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القيلولة، وهي: الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة وهو.

١٩٢٩

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْتَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥]:
 لا هلاك إلا بعد إقامة الحجة! قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما هلك قوم حتى
 يُعَذِّروا من أنفسهم، ثم قرأ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْتَا إِلَّا أَنْ
 قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾».

١٩٣٠

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]:
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟! فيقول:
 نعم، فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من
 أحد، قال: فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته».

١٩٣١

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]:
 ما فائدة سؤال الله للرسول مع علمه أنه لم يصدر عنهم تقصير؟!
 قال ابن عادل: «لأنهم إذا أثبتوا أنه لم يصدر عنهم تَقْصِيرٌ أَلْبَتَهُ التَّحَقُّقُ التَّقْصِيرُ كُلُّهُ
 بِالْأَمَّةِ، فيتضاعف إكرام الله تعالى للرسول؛ لظهور براءتهم عن جميع موجبات التَّقْصِيرِ،
 ويتضاعف الحُزْنُ والإهانة في حق الكفار؛ ما ثبت أن ذلك التقصير كان منهم».

١٩٣٢

﴿فَلَنَقْصِصَنَّ عَنْهُمْ بَعْلِهِمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]:
 سيقص الله علينا يوم القيامة ما كنا نعمل في الدنيا، وسيكتشف بعضنا أنه
 سبحانه لم يكن غائباً عن شيء فعلوه، فواخجلته يومئذ أو وا فرحتاه!

١٩٣٣

﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨]:
 قال وهب بن منبه: «إنما يوزن من الأعمال خواتيمها، وإذا أراد الله بعبد خيراً
 ختم له بخير، وإذا أراد الله به شراً ختم له بشر عمله».

١٩٣٤

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا
 يَظْلُمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]:

قال القشيري: «يزن أعمالهم بميزان الإخلاص، وأحوالهم بميزان الصدق،
 فمن كانت أعمالهم بالرياء مصحوبة لم يقبل أعمالهم، ومن كانت أحوالهم
 بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحوالهم».

قال ابن عباس: «توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة، فيوضع في كفة الميزان، فتثقل حسناته على سيئاته، فذلك قوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ويؤتى بعمل الكافر في أقبح صورة، فيوضع في كفة الميزان، فيخف وزنه حتى يقع في النار».

قال الجمل في حاشيته على تفسير الجلالين: «فإن قلت: أليس الله تعالى يعلم مقادير أعمال العباد، فما الحكمة في وزنها؟ قلت: فيه حِكم: منها إظهار العدل وأن الله تعالى لا يظلم عباده. ومنها: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا، وإقامة الحجة عليهم في العقبى.

ومنها: تعريف العباد بما لهم من خير أو شر، وحسنة أو سيئة. ومنها: إظهار علامة السعادة والشقاوة، ونظيره أنه سبحانه أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ، وفي صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه».

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]:

توبيخ على قلة شكر نعم الله التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، فإن النفوس التي لا يزجرها الوعيد قد ينفعها التذكير بالنعم واستحضار المزيد.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]: الخطاب بصيغة الجمع، مع أن الحديث عن آدم؛ لأن كل ذرية آدم كانت في صُلب آدم ساعة الخلق؛ ولذا ناداهم الله في شخص آدم عليه السلام، فقال: ﴿اهْبِطُوا﴾.

﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]:

دليل على أن مطلق الأمر يدل على الفور؛ لأن الله ذم امتناع سجود إبليس في الحال، والعبرة هنا: لا تؤخر أمر الله متى أتاك.

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]:

شعار إبليس الذي أهلكه، ويهلك كل من سار على خطاه.

قال الأوزاعي - رحمه الله - لبقية بن الوليد: «وإذا سمعت أحداً يقع في غيره؛ فاعلم أنه إنما يقول: أنا خير منه!».

علامة الكبر! قال أبو حازم: «من رأى أنه خير من غيره فهو مستكبر؛ وذلك أن إبليس قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فكان ذلك استكباراً».

إنما أهلك إبليس العجب بنفسه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وكملت فضائل آدم باعترافه بذنبه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]

﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]:

قال ابن سيرين: «من قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس».

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾

[الأعراف: ١٣]:

«قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، فمن نازعني في ردائي قصمته». صحيح الجامع رقم: ٤٣٠٩.

دعا إبليس ربه: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]:

فاستجاب الله له: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]. أفلا يستجيب لك؟!

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]:

قال ابن كرامة الجشمي اليماني: «ومتى قيل: ما وجه سؤاله مع أنه مطرود وملعون؟ فجوابنا: علمه بإحسانه تعالى إلى خلقه، من أطاع ومن عصى، فلم يمنعه من السؤال ما ارتكب من المعصية».

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم، وقد يجيب الله دعاء الكفار، فإن الكفار يسألون الله الرزق، فيرزقهم ويسقيهم، وإذا مسهم الضر في البحر ضل من يدعون إلا إياه، فلما نجاهم إلى البر أعرضوا، وكان الإنسان كفورًا».

قال ابن القيم: «فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضيًا عنه ولا محبًا له ولا راضيًا بفعله، فإنه يجيب البر والفاجر والمؤمن والكافر».

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]:

مقعد الشيطان ليس فقط في الخمارة وأماكن الفجور، إنما يجلس كذلك على أبواب المساجد ومواطن الأجور، لكي يفسد على الطائع طاعته.

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٧]:

احتجاج العاصي على معصيته بالقدر مُشابهة لإبليس.

﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾

[الأعراف: ١٧]:

قال قتادة: «أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله».

﴿وَلَا تَحِذُ أَكْثَرَهُمْ شُكْرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]:

عرف إبليس مبكرًا قدر مقام الشكر؛ وأنه من أجل المقامات وأشرفها، فجعل غايته أن يقطع الناس عنه.

حصار الشيطان للإنسان! قد يكون حصارًا زمنيًا بأن يغطي كل لحظة في حياته من الماضي أو المستقبل، فقد أتاهم من بين أيديهم أي من جهة المستقبل ليقنطهم من توفيق الله، ومن خلفهم أي من قبل الماضي فأيسهم فيها من رحمة الله.

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]:

١٩٥٥

قال القشيري: «أخرجه من درجته، ومن حالته ورتبته، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته، ثم تخليده أبدًا في عقوبته، ولا يذيقه ذرة من برد رحمته، فأصبح وهو مقدّم على الجملة، وأمسى وهو أبعد الزمرة، وهذه آثار قهر العزة، فأني كبد يسمع هذه القصة ثم لا يتفتت؟!».

﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨]:

١٩٥٦

قسّم إلهي مرعب بأن النار دار العصاة، ولا بد أن يملأها الله من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

دلّت الآية على أن التابع والمتبوع في الباطل يجتمعان غدًا في النار، ويشمل هذا من اتّبع إبليس، أو اتبع جنديًا من جنود إبليس.

١٩٥٧

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]:

١٩٥٨

حرص ربنا على وقايتنا من الحرام، فأمرنا بعدم الاقتراب منه، كي لا تجذبنا دوامة الحرام عند الدنو منها.

﴿فَوَسْوَسَ﴾ [الأعراف: ٢٠]:

١٩٥٩

تكرار الحروف في الكلمة الواحدة، إيذان بتكرار العمل، فالشيطان وسوس إلى الأبوين المرة بعد المرة، وهذه عادته ودأبه في إغواء البشر.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]:

١٩٦٠

في قراءة ابن عباس والضحاك: ملكين، بكسر اللام، فأول مدخل دخل به الشيطان على الإنسان كان حبّ الملك والخلود، وهو نفس المرض الذي ابتليت به الأمة اليوم: الوهن، وهو حب الدنيا وهو الملّك، وكرهية الموت وهو الخلود، فانظر كيف امتد هذا المرض إلى اليوم!

﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنْ لَكُمَا لَمَنْ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]:

١٩٦١

ليس من القسم؛ بل من القسم أي حلف لهما الشيطان.

﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنْ كُنتُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]:

الكاذبُ كثير الحلف دون أن يطلب منه أحد أن يُقسم!

﴿فَدَلَّلْنَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]:

قال ابن عباس: «غَرَّهما باليمين، وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحدٌ بالله كاذباً».

﴿فَدَلَّلْنَاهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]:

أي أنزلهما من مرتبتهما العالية إلى مواجهة الخطيئة، والتدلية: السقوط من عل، فالطاعة علو، والعصيان هبوط.

﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَ أَنَّهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]:

قال الرازي: «دلَّ على أنَّ كَشَفَ الْعَوْرَةِ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ».

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]:

قال أبو حيان: «لما كان وقت الهناء شُرِّفَ بالتَّصْرِيحِ بِاسْمِهِ فِي النَّدَاءِ، فَقِيلَ:

﴿وَيَتَنَادَمُ أَسْكُنْ﴾، وحين كان وقت العتاب أَخْبَرَ أَنَّهُ نَادَاهُ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِاسْمِهِ».

﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]:

تعريف الخسارة في القرآن: هو عدم المغفرة.

قال ابن القيم: تالله ما نفعه [آدم] عَزَّ ﴿أَسْجُدُوا﴾، ولا شرف ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾،

ولا فخر ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، وإنما انتفع بِذُلِّ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾.

﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَى

حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]:

الحياة في الدنيا مؤقتة، وعارضة، فليست مسكنًا حقيقيًا، ولا مستقرًا نهائيًا، بل

مجرد مقر تنزود منه للآخرة.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]:

قال ابن عطية: «وكان هذا خطاب لجميع الأمم، قديمها وحديثها، هو متمكن

لهم، ومتحصل منه لحاضري محمد ﷺ أن هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه».

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]:

يقول ابن عباس: «لباس التقوى هو العمل الصالح».

ما أصدق قول الشاعر:

وخير ثياب المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

مهما ارتديت أجمل الثياب، ستظل التقوى أجمل ثوب؛ لأنها ما يحب الله أن يراه عليك.

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾

[الأعراف: ٢٧]:

تذكيرٌ بالتأثر ممن كان سبب خروج أبيك من الجنة، وهذا كفيل بإذكاء نار العداوة بينك وبين إبليس، فكيف تبيع جوهر العمر النفيس بعمل خسيس؟

﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]:

اللباس جولة رئيسة ومعركة محورية في صراع الشيطان مع الإنسان.

﴿إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]:

عدو يراك ولا تراه، فما أسهل أن يظفر بك!

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٧]:

حارب الإسلام التقليد الأعمى بكل صورته، وجعل للمسلم شخصية مستقلة، قائمة على استقلال الإرادة مع التقيد بالدليل.

تنبؤ نبوي مخيف! في الحديث: «لتركن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه». صحيح الجامع رقم: ٥٠٦٧.

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]:

إقامة الوجوه هي تمثيل لكمال الإقبال على الله بحال المتهيئ لمشاهدة أمر مهم، ولا يلتفت عنه يمينة ولا يسرة، وأطلق عليه إقامة لأنه جعل الوجه قائما دون أي التفات ولا توانٍ.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]:

الهداية محض فضل من الله، وأما الضلالة فيجلبها العاصي على نفسه!

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]:

لو علم الضال أنه ضال، لانفكت العقدة، لكن أبشع ألوان الضلال من ظن صاحبها أنه على خير حال.

﴿يَبْنِيٰٓءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]:

تزيين الظاهر بالثياب مستحب لمن أراد الذهاب إلى المسجد، لكن تزيين الباطن بالإخلاص والخشوع أهم.

كان الإمام الحسن بن علي إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه، ف قيل له: يا ابن بنت رسول الله.. لم تلبس أجمل ثيابك؟

فقال: إن الله جميل يحب الجمال، فأنا أتجمل لربي، لأنه هو القائل: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]:

قال علي بن الحسين بن واقد: «جمع الله الطَّبَّ في نصف آية، فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾».

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٣٢]:

هذا توسعة من الله لعباده ليستعينوا بها على عبادته في الدنيا، ولا يكون عليهم بسببها تبعة يوم القيامة، وليس ذلك لأحد غير للمؤمنين؛ ولذا قال: ﴿قُلْ

هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]:

كم من مُنْعَم في الدنيا، مُعَذَّب يوم القيامة.

١٩٨٧

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]:

قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما ظهر منها فنكاح الأبناء نساء الآباء، وجمع بين الأختين، أو تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها».

١٩٨٨

في الحديث النبوي: «لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». صحيح الجامع رقم: ٧١٦٥.

١٩٨٩

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]:

إياك أن تحرّم على عباد الله شيئاً أو توجب عليهم شيئاً في الدين بغير نص عن الله ورسوله، بل واجتنب أن تقول: هذا مندوب أو مكروه في الدين بغير دليل، وما أكثر الغافلين عن هذا التوجيه، والمجتريين على التحليل والتحريم.

١٩٩٠

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]:

قال عليه السلام: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

١٩٩١

﴿فَمَنْ آتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]:

قال أبو بكر أحمد بن علي: «قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ كقول الطبيب للمريض: (لا بأس عليك) يعني أن أمره يؤول إلى العافية، وليس هذا بالوجه لأنه نفى الخوف والحزن مطلقاً».

١٩٩٢

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]:

قال الرازي: «وقد تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن الفاسق من أهل الصلاة لا يبقى مخلداً في النار؛ لأنه تعالى بيّن أن المكذبين بآيات الله والمستكبرين عن قبولها هم الذين يبقون مخلدين في النار».

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَايَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧]:

يصيبهم من الكتاب ما سبق لهم به الحكم به في اللوح المحفوظ، فمن جرى بسعادته الحكم وقع عليه وصف السعادة، ومن سبق بشقاوته الحكم حقت عليه الشقاوة.

﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٧]:
عند الموت يخونك الجميع إلا عملك الصالح.

قال ابن عباس: «الموت قيامة الكافر، فالملائكة يطالبونهم بهذه الأشياء عند الموت على سبيل الزجر والتوبيخ والتهديد، وهؤلاء الرسل هم ملك الموت وأعوانه».

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]:

النار تحوي فريقين من أهل العذاب: الجن والإنس. قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: «وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مُسيء الجن في النار يعدل الله، وبما كانوا يكسبون، فمُحسنهم في الجنة بفضل الله، وبما كانوا يعملون».

﴿كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]:

ما أشد تحاصم أهل النار: كلُّ يلقي باللوم على غيره وينسى نفسه!

تحية أهل النار اللعن! والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمُ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]:

قال الجشمي: «تدل الآية على أن الكفار والضلال والمبتدعة، وإن تناصروا

وتعاونوا على ضلالتهم، وتوادوا في الدنيا، فإنهم في الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون، ويسألون العذاب لمن أضلهم.
وتدل على فساد التقليد، والاعتزاز بقول علماء السوء.
وتدل على أن الداعي إلى الضلال مضل.
وتدل على أن إضلال غيره إياه ليس بعذر له.
وتدل على أن اشتراكهم في العذاب لا يوجب لهم راحة، بخلاف الاشتراك في محن الدنيا».

﴿وَأَسْتَكْبِرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٠]:

ما دام في القلب كبر، فالطريق نحو الجنة مسدود!

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَهَنَّمُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]:

المقصود بالجميل الحبل الغليظ لا الجميل المعروف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]:

دلالة على أن المؤمنين تُفْتَحُ لهم أبواب السماء؛ أي لأرواحهم عند الموت، حتى تعرج إلى الله، وتبتهج بالقرب منه، بعكس أرواح الكافرين، فتُغْلَقُ أمام أرواحهم أبواب السماء؛ ليكون هذا بداية الشقاء.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]:

المهاد: الفرش، والغواشي: اللحف، كما أحاطوا أنفسهم بالذنوب في الدنيا، فكذلك أحاطت بهم العقوبات في النار، فمن فوقهم عذاب، ومن تحتهم عذاب.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف: ٤٢]:

الجنة مع عظم قدرها، يتوصل إليها العبد بالعمل السهل من غير مشقة ولا صعوبة.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣]:

حين نظهر قلوبنا من الغل، نعيش في بقعة من الجنة، وحين نحمل الغل، فإننا نحمل في صدورنا النار.

﴿إِذَا لَفِظْتَكَ يَوْمًا نَارَ الْغُرُورِ، فَادْكُرْ دَعَاءَ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]:

تطيب من الله لخواطر المؤمنين، وإلا فإنهم إذا رأوا مقاعدهم في الجنات علموا أن أعمالهم المشوبة بالتقصير لا توجب لهم أبداً هذه الدرجات.

﴿أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]:

كلمة الميراث دليل على أن الجنة عطية من الله، ومحض فضل منه؛ لأن إيمان العبد وطاعته لا يوجب عقلاً ولا عدلاً إلا نجاته من العقاب المترتب على الكفران والعصيان، لكن لا يوجب له جزاء ولا عطاء.

﴿الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]:

الجنة ميراث يرثه أهل الجنة من قوم كانت قد أعدت الجنة لهم، لكنهم لم يقدموا الثمن اللازم لشرائها، قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكر، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هدانا، فيكون عليه حسرة» صحيح الجامع رقم: ٤٥١٤.

﴿أَبْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]:

قال ميمون بن مهران: «إن الرجل يقرأ القرآن وهو يلعن نفسه. قيل له: وكيف يلعن نفسه؟ قال: يقول: ﴿أَبْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤] وهو ظالم».

نادى رجل على سليمان بن عبد الملك وهو جالس على المنبر، فقال: يا سليمان.. اتق الله، واذكر يوم الأذان، فنزل سليمان عن المنبر مغضباً ودعا

بالرجل، فقال: أنا سليمان.. فما يوم الأذان؟! فقال الرجل: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَدِّنٌ
بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

قال: وما مظلمتك؟

قال: وكيك قد غلبني على أرضي.

قال: فأمر بالكتاب إلى وكيه أن أعطه أرضه، وأرضي مع أرضه!

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥]:

الظالمون في حرب مباشرة مع الله؛ لأنهم يصدون الناس عن سبيله،
ويستهدفون اعوجاجهم، وحرفهم عن صراطه المستقيم.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥]: ينفر الظالمون الناس عن الإسلام بوصفهم
له أنه دين معوج، أو دين إرهاب، أو دين تعصب وتشدد، فيصدون الناس
بذلك عن الله.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ ۖ وَنَادَاوُا
أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ ۖ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦]:

أصحاب الأعراف قومٌ تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم
فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم، فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما
شاء الله، حتى أدخلهم الجنة برحمته.

ما الحكمة في حبس أهل الأعراف بين الجنة والنار؟

قال الزمخشري: «فائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم
والتأخر على حسبها، وأن أحدا لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا
يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه.

وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم.

وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها
من أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه.
وليعلم أن العصاة يوبّخهم كل أحد، حتى أقصر الناس عملاً».

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧]:

خوف وتقوى! قال سالم مولى أبي حذيفة: «وددتُ أني بمنزلة أصحاب الأعراف».

﴿أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]:

في الحديث: «إن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟! فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك». صحيح الجامع رقم: ٢٠٧٥.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: ٥٠]:

طلبوا الماء خاصة لشدة ما في جوفهم من الاحتراق واللهيب بسبب شدة حر النار.

﴿أَفِضُوا عَلَيْنَا﴾ [الأعراف: ٥٠]:

دلالة على أن أهل الجنة أعلى مكاناً من أهل النار.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]:

الجزاء من جنس العمل! تركوا العمل الصالح في الدنيا، فتركهم الله في دركات النار!

في سنن الترمذي: «يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك رأساً وتربع، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ قال فيقول: لا! فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني». صحيح الجامع رقم: ٧٩٩٧.

﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]:

الأفعال مع الأقوال! لم يكونوا في الدنيا ناسين لقاء يوم القيامة، فقد كانوا يذكرونه ويتحدثون عنه، لكن أفعالهم خالفت أقوالهم، فكانت أفعال من لا يصدق بالقيامة.

﴿فَالْيَوْمَ نَنْسِفُهُمْ﴾ [الأعراف: ٥١]:

في ذكر اليوم أثر عظيم في زيادة حسرتهم وندامتهم، فإن حرمانهم من الرحمة كان في أشد أوقات احتياجهم إليها، وهذا من العذاب النفسي الذي يضاعف أثر العذاب الحسي.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[الأعراف: ٥٢]:

الكتاب الذي جعلناه منبع هداية لهم هجره، والآيات التي فصلناها لتكون سبب رحمة لم يقربوها، فلا عجب أن يكون مصيرهم إلى النار.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]:

التأويل هنا ليس التفسير بل بمعنى المآل والعاقبة.

﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾

[الأعراف: ٥٣]:

الغريق يتعلق بقشة! توهموا طوق النجاة بأحد أمرين: أن يشفع لهم شفيع، أو يُردوا إلى الدنيا فيعملوا غير ما كانوا يعملون، وهيئات!

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]:

قال القرطبي: «وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل، إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء، وحكمة أخرى - خلقها في ستة أيام لأن لكل شي عنده أجلاً، وبين هذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب، لأن لكل شي عنده أجلاً».

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]:

قال الإمام مالك: «الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]:

كناية عن أن أحدهما يعقب الآخر ويخلفه بلا فاصل، فالليل يلاحق النهار، والنهار يلاحق الليل، ودوام الحال محال.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ [الأعراف: ٥٥]:

أمر الله لعباده بالدعاء هو إعانة لأصحاب المحن، وعطاء لأصحاب الحوائج، وراحة لأصحاب الهموم، وأنس لأصحاب القرب من الله.

قال السعدي: «من كان قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء، وحصول مطلوبه، فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس».

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]:

علمنا الله آداب الدعاء بأن ندعوه بلسان الافتقار والانكسار والاضطرار، فتنهمر علينا عطاياه كالأمطار.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]:

من غاية إكرام الله لنا أن جعل الإمساك عن دعائه المؤدي إلى عطائه اعتداء منا!!

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]:

أفضل الدعاء أخفاه؛ لأنه دليل إخلاص العبد، ومن أسباب القبول.

﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]:

الاعتداء في الدعاء على وجوه: منها علو الصوت فيه والصياح، أو الدعاء بمحال، أو بما ليس في الكتاب والسنة، فيتخير الداعي كلمات فيها سجع كثير متكلف، ويترك ما دعا به رسوله ﷺ.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]:

قال ابن عطية: ولا تعصوا في الأرض، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث

بمعاصيكم، وفي الحديث: «لم يمنع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا». صحيح الجامع رقم: ٩٣٣٥.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]:

قال أبو حيان: «هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود بجميع أنواعه، من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان».

﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]:

اجعل خوف العقاب ورجاء الثواب جناحين يحملان طير قلبك إلى طريق الاستقامة، فإن انفراد أحد الجناحين يسقط بالطائر، ويهلك العبد.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]:

قال يحيى بن معاذ الرازي: «ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تدمه».

﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]:

كلما زاد الإحسان زاد قربك من الرحمن.

الجزء من جنس العمل، فكما أحسن المؤمنون بأعمالهم، أحسن الله إليهم برحمته، فتعامل بالإحسان لتفوز برحمة الرحمن.

ما أقرب الله من المحسنين! قال ابن القيم: «إذا كانت الرحمة الإلهية قريبة من المحسنين، فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منهم، بل قرب رحمته تبع لقربه هو - تبارك وتعالى - من المحسنين».

﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]:

كل من لا يصدق بالبعث بعد الموت، فلينظر كيف قلب الله الأرض الجرداء جنة خضراء.

قال ابن عباس: «يرسل الله تعالى بين النفختين مطراً كمَيَّ الرجال، فينبت الناس به في قبورهم كما نبتوا في بطون أمهاتهم».

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]:

إذا زكا الأصل طاب الفرع، وإذا خبث لم يطب ما خرج منه، فالمظهر يدل على الجوهر، ومن صفا باطن قلبه زكا ظاهر فعله، ومن كان بالعكس، فحاله بالضد.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]:

ما فائدة تكرار ذكر الأنبياء في القرآن؟! قال الرازي: «وفيه فوائد: أحدها: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيانات، ليس من خواص قوم النبي ﷺ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمت خفت. ثانيها: أنه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا، والخسارة في الآخرة، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، وذلك يقوي قلوب المحقين، ويكسر قلوب المبطلين. وثالثها: التنبيه على أنه تعالى، وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين، ولكنه لا يهملهم، بل ينتقم منها على أكمل الوجوه.

ورابعها: بيان هذه القصص دالة على نبوة محمد ﷺ، لأنه كان أمياً، وما طالع كتاباً، ولا تلمذ أستاذاً. فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله تعالى».

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]:

الملاؤ وعلية القوم والأثرياء دائماً ما يكونون رأس الحربة في مواجهة المصلحين.

﴿قَالَ يَتَقَوَّمِرْ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]:

حلم وأدب وصبر على سفاهات القوم.

٢٠٤٩

﴿أُفْلِحْكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]:

لماذا جمع رسالات؟! قالوا: إنه يريد رسالات الله إليه وإلى الأنبياء من قبله، ومنها صحف جدّه إدريس عليه السلام.

٢٠٥٠

قال القرطبي: «النصح: إخلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة، ويقال: رجل ناصح الجيب، أي: نقي القلب، والناصح: الخالص من العسل وغيره».

٢٠٥١

ما الفارق بين تبليغ الرسالة والنصح؟! تبليغ الرسالة أن يعرفهم أوامر الله ونواهيه، وأما النصح فترغيبهم في قبول تلك الأوامر والنواهي، وتحذيرهم من عقوبة مخالفتها.

٢٠٥٢

﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]:

قال قتادة: «إني أعلم من إحسان الله تعالى إلي ما يوجب حسن الظن به».

راجع ملفاتك القديمة في تعاملاتك مع الله، وأنعش روح الأمل.

٢٠٥٣

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا

وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]:

قالوا: هذا الترتيب في غاية الحسن؛ لأن المقصود من الإرسال: الإنذار، ومن الإنذار: التقوى، ومن التقوى: الفوز بالرحمة.

٢٠٥٤

قال أبو السعود: «وفائدة حرف الترجي التنبيه ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ على عزة المطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هي منوطة بفضل الله، وأن المتقي ينبغي ألا يعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله».

٢٠٥٥

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾

[الأعراف: ٦٤]:

قال ابن عاشور: «قدّم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق، مع أن مقتضى مقام العبرة تقديم الإخبار بإغراق المنكرين، فقدّم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين، وتعجيلاً لمسرة السامعين من المؤمنين بأن عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجي الرسول والمؤمنين».

﴿وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]:

لماذا أمرهم بالتقوى؟! كانت واقعة هود مسبقة بواقعة إغراق قوم نوح، وعهد الناس بها قريب، فقلوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تعريض وتخويف لهم بهذه الواقعة الشهيرة، أي إن لم تتقوا الله سيحلُّ بكم مثل ما حلَّ بهم من العذاب الذي اشتهر خبره في أرجاء الدنيا.

قال قوم هود له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] فأجابهم ﴿يَنْقُومِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]: ما أرقى سلوك الأنبياء في الردِّ على السفهاء.

﴿يَنْقُومِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]:

لما ولي عمر بن عبد العزيز خرج ليلة ومعه الحرس، فدخل المسجد فمرَّ في الظلمة برجل نائم فتعثر به، فرفع رأسه إليه، فقال الرجل: أعمنون أنت؟ قال: لا، فهَمَّ به الحرس، فقال لهم عمر: مه! إنما سألني أعمنون أنت فقلت لا.

﴿أُيْلِغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]:

قال ابن عاشور: «الصدق من الأمانة؛ لأن الكذب الخبر بأمر غير واقع في صورة توهم السامع واقع، فذلك خيانة للسامع، والصدق إبلاغ الأمر الواقع كما هو فهو أداء لأمانة ما علمه المخبر، فقلوله في الآية أمين وصف يجمع الصفات التي تجعله بمحل الثقة من قومه، ومن ذلك إبطال كونه من الكاذبين».

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]: بعض الناس يتعجب من الناصح إذا أنذرهم، لكن لا يتعجب من المفسد إذا إلى الفساد أرشدهم!

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]:

﴿مِّنْكُمْ﴾: تعرفون نَسَبَهُ وطهارة أحواله وصدق أقواله، فِمَمَّ تتعجبون؟!

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]:

قوة الجسد نعمة، فاستعملها في نصره الحق وإغاثة الملهوف، وإلا كانت حجة عليك.

﴿فَازْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]:

المفلحون هم الذين يذكرون نعمة الله فيؤدون شكرها، وأما الخاسرون فهم الغافلون عنها بلا شكر.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]:

استحوذ الشيطان على قلوب هؤلاء، فصور لهم الحسنات سيئات، والسيئات في شكل حسنات، حتى صار أفراد الله بالعبادة لديهم منكراً من المنكرات!

﴿أُتَجَدِّلُونَ فِيْ أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١]:

كل قول في الدين لا يستند لدليل أو شاهد من الشرع، فمصييره التكذيب والنكران.

﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]:

هذه الثقة في موعود الله هي سر القوة التي يستشعرها كل داعية صادق؛ مهما انتفش الباطل حوله واستطال.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [الأعراف: ٧٢]:

قال القشيري: «وأخبر - سبحانه - أنه نجى هوداً برحمته، وكذلك نجى الذين آمنوا معه برحمته، ليعلم أن النجاة لا تكون باستحقاق العمل، وإنما تكون بابتداء فضل من الله ورحمته، فما نجا من نجا إلا بفضل الحق سبحانه».

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]:

ما الفائدة في تخصيص تلك الناقة بأنها ناقة الله؟

قال الإمام الرازي: «فيه وجوه:

قيل: أضافها إلى الله تشریفًا وتخصيصًا كقوله: بيت الله.
وقيل: لأنه خلقها بلا واسطة.
وقيل: لأنها لا مالك لها غير الله.
وقيل: لأنها حجة الله على القوم».

قال بعض العلماء: إنها كانت آية بسبب خروجها بكمالها من الصخرة. قال القاضي: «هذا إن صحَّ فهو معجز من جهات: أحدها: خروجها من الجبل. والثانية: كونها لا من ذكر وأنثى. والثالثة: كمال خلقها من غير تدريج».

القول الثاني في كونها آية أن لها شرب يوم، ولجميع ثمود شرب يوم، واستيفاء ناقة شرب أمة من الأمم عجيب، وكانوا في يوم شربها يجلبون منها القدر الذي يقوم لهم مقام الماء في يوم شربهم.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]:

قال الشهاب: «لم يقل: خلفاء عاد، إشارة إلى أن بينهما زمانًا طويلاً».

﴿قَالَ أَلَمْأَلُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٧٥]:

الاستكبار دافع إلى رد الحق، وصدَّ الغير عن الحق.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]:

الكبر من أسباب الكفر، وقد قيل في الأمثال: الكبر يولد الكفر.

هذه الآية من أعظم ما يحتجُّ به القائلون بأنَّ الفقر خيرٌ من الغنى؛ وذلك لأنَّ الاستكبار يتولَّد من كثرة المال والجاه، والاستضعاف يحصل من قلتها، فكثرة المال والغنى دافع إلى التمرد والتكبر، والفقر بالعكس.

لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون، بل قالوا: ﴿بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ وذلك عنادًا واستكبارًا، وإظهارًا لتعمد مخالفتهم للمؤمنين.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]:

٢٧٦

أسند العقير إليهم جميعاً؛ لأنه كان برضاهم، وإن لم يياشره إلا واحد منهم.

أكثر ما يُستعمل (العقر) في الفساد، وأمّا (النحر) فيُستعمل غالباً في الانتفاع بالمنحور لحماً وجلداً، فالتعبير بالعقر دون النحر لأنهم لم يقصدوا بنحرها إلا إهلاكها لا الانتفاع بها؛ عناداً وعلوّاً ومعاذة لأمر صالح عليه السلام.

٢٧٧

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]:

٢٧٨

الفاء للتعقيب والسرعة، بمجرد عقيرهم الناقة نزل بهم من العذاب ما ليس لهم به طاقة، بعض الذنوب تستعجل الهلاك.

من علامة الهلاك: كراهية الناصح مع حب المادح.

٢٧٩

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ

٢٨٠

لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]:

محبة الناصح من علامات القلب الحي، وكلما توارت هذه المحبة عن القلب زادت قسوته واقترب موته.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ

٢٨١

الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]:

قال ابن كثير: «وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهدوه ولا تألفوه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنعه أهل سدوم، عليهم لعائن الله».

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]:

٢٨٢

قال الوليد بن عبد الملك: «لولا أن الله عز وجل قصّ علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكراً».

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

٢٨٣

مُتَسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]:

وقد حكى القرآن أن لوطاً - عليه السلام - قال لهم في سورة النمل: ﴿بَلْ أَنْتُمْ

قَوْمٌ عَادُونَ»، وقال في سورة النمل كذلك: **﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ﴾**، فمجموع الآيات يدل على أن أهل هذه الفاحشة مصابون بفساد العقل، وانحطاط الخلق، وإيثار الغي والعدوان على الرشاد والتدبر.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]:

فساد الفطرة!

هل صار التطهر عيباً، والاستقامة جريمة؟! والجواب: من عاش النجاسة وألفها أحبها، ثم كره الخروج منها؛ لذا كرهوا طهارة المؤمنين.

﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]:

استدلَّ به على تحريم أدبار النساء. قال مجاهد: «أي: عن أدبار الرجال وأدبار النساء».

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]:

قال ابن تيمية:

«ومن رضي عمل قوم حُشِرَ معهم، كما حُشِرَت امرأة لوط معهم ولم تكن تعمل فاحشة اللواط، فإن ذلك لا يقع من المرأة، لكنها لما رضيت فعلهم عمَّها العذاب معهم».

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]:

إذا رأيت الناس قد أقبلوا على نوع من المفاسد أكثر من إقبالهم على غيره، فابدأ به، كما بدأ شعيب بالنهي عن التطفيف والبخس لما رآه فاشياً في قومه، وهو درس للدعاة المنفصلين اليوم عن واقع الأمة.

﴿وَتَبَغَّوْنَهَا عَوْجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]:

كثيرون ممن حولنا يحبون انحرافنا عن صراط الله المستقيم، ويسعون في هذا سعيًا حثيثاً.

٢٨٩

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦]:

توعّدوا من آمن بنبي الله شعيب بسوء العذاب، وبسبب هذا الوعيد خاف كثير من الناس من اتباع الحق، فوقع الصد عن سبيل الله.. سُنَّة جارية في كل عصر.

٢٩٠

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]:

لا تقابلوا النعم بضدها!

قال البقاعي:

«لما كانت أفعالهم نقص النَّاس؛ إمّا في الأموال بالبخس، وإمّا في الإيمان بالصدّ - ذكّرهم أنّ الله تعالى فعل معهم ضدّ ذلك من التّكثير بعد القلّة، فقال: ﴿فَكَثَرْتُمْ﴾ أي: كثر عددكم وأموالكم، وكلّ شيء يُنسب إليكم، فلا تقابلوا النّعمة بضدها».



من روائع المتدبرين

قال ابن ظفر المكي:

قرأ السري السقطي على مؤدِّبه قول الله تعالى:

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾، فقال يا أستاذ.. ما الوِرد؟ فقال:

لا أدري، فقرأ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ

عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]، فقال: يا أستاذ.. ما العهد؟ قال: لا أدري! فقطع

السَّريُّ القراءة وقال: إن كنت لا تدري فلم غرَّرت بالناس؟ فضربه

المؤدِّب، فقال السَّري: ألم يكفك الجهل والغرور حتى أضفت إليهما الظلم

والأذى فاستحلته المؤدِّب (أي طلب العفو منه)،

وتاب إلى الله، وأقبل على طلب العلم،

وكان يقول: إنما أعتقني من رِقِّ الجهل السريُّ.

أنباء نجباء الأبناء ص ١٤٦-١٤٧

الجزء التاسع

من سورة الأعراف من الآية ٨٨
إلى سورة الأنفال آية ٤٠
عدد الفوائد: ٣١٤

قال ابن باديس:

«القرآن الذي كَوَّن رجال السلف لا يكثر
عليه أن يكوَّن رجالاً في الخَلَف، لو
أُحْسِنَ فهمه وتدبره، ومُحِلَّت
الأنفس على منهاجه».

آثار ابن باديس ٢ / ١٤٢

الجزء التاسع
من سورة الأعراف من الآية ٨٨
إلى سورة الأنفال آية ٤٠

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾

٢٠٩١

[الأعراف: ٨٨]:

في الآية ما يدل على صعوبة مفارقة الأوطان؛ إذ قرنوا ذلك بالعودة إلى الكفر.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]:

٢٠٩٢

كل المفاتيح بيد الله، قليل من الناس من يدرك هذا.

﴿وَقَالَ أَتَلَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا

٢٠٩٣

لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]:

أحياناً تكون نصيحة البعض ذبحاً لدينك، فاختر أصحابك وناصحيك.

﴿لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]:

٢٠٩٤

ما أقبح الإضلال بعد الضلال، إفساد بعد فساد.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِّمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]:

٢٠٩٥

الرجفة التي أصابت أهل مدين زلزلة الأرض بهم، وصواعق خرجت من ظلة أي سحابة، كما في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾، وقد عبّر عن الرجفة في سورة هود بالصيحة، فتكون الرجفة هي الزلزال، والصيحة هي الصاعقة.

٢٠٩١

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]:

الجزء من جنس العمل! كما أرجفوا شعبياً وأصحابه وتوعدوهم بالجللاء، أخذتهم رجفة الله.

٢٠٩٧

﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبِيًّا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠-٩١]:

بعض كلمات لسانك سبب تعجيل عذابك!

٢٠٩٨

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَبِيًّا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]:

ماذا أفادهم الغرق في نعيم الدنيا لمائة عام، وقد تبعه الخلود في النيران!

٢٠٩٩

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣]:

هكذا نفوس العظماء - وليس أعظم من الأنبياء - تأسف وتحزن لإعراض الناس عن الخير، مع أن هذا هو اختيارهم لأنفسهم، لكنها شفقة المصلح على قومه.

٢١٠٠

صلة الأنساب والأقوام لا وزن لها عند الله إن تعارضت مع الدين، فالوشيجة الباقية هي وشيجة الدين، والارتباط الوثيق بين الناس إنما يكون عبر حبلى الله المتين.

٢١٠١

﴿أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]:

من فوائد الشدة والبلاء أن يراك الله متضرعاً بين يديه!

٢١٠٢

سبب نزول الخيرات والبركات هو استقامة الناس على أمر الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ

الْأَفْرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]:

٢١٠٣

ليست العبرة بالنعمة إنما العبرة بالبركة في هذه النعمة؛ ولذا كان من دعاء

النبي ﷺ: «اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مُدَّنَا»، والصاع والمُدَّ

مكايل مشهورة عند العرب.

٢١٠٤

سين: لكن المشاهد أن أكثر أهل الغنى هم من لا يؤمنون بالله، أو لا يتقونه!

جيم: المؤمن التقى أكثر الناس غنى في قلبه، وقناعة في نفسه، ورضا بقدره،

وهذه أعظم بركة، ولا حياة أطيب من هذه الحياة.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]:

أبدلناهم بالشدة رخاء حتى عفوا، أي كثرت أمواهم وأولادهم، والمقصود أن الله نَوَّعَ الله عليهم صنوف البلاء، فأخذهم بالشدة فلم يزدجروا، ثم بالرخاء فلم يشكروا، فأخذهم الله بالعذاب.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥]:

خاطبهم الله بما يفهمون، وبلغتهم التي بها يتكلمون، فالسيئة حسب ما يظن أكثر الناس هي الشدة، والحسنة هي النعمة، وليس هذا صحيحًا عند أصحاب الآخرة.

صحَّ مفاهيمك! النعمة المطلقة هي التي لا عقوبة معها، والبلاء المطلق هو الذي لا ثواب عليه.

عقوبة الاستدراج! أراد الله تنبيههم بالشدة إعلامًا بأن سلب النعمة علامة غضب الله عليهم، فلما ازدادوا بالشدة كفرًا ردَّهم إلى حالتهم الأولى من النعمة إمهالًا واستدراجًا، فازدادوا إعراضًا.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]:

تدل الآية على أن قوم شعيب أهلِكوا بعذاب الاستئصال لما لم يقبلوا نصح نبيِّهم، فدلَّ على وجوب قبول النصح في الدين.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ [الأعراف: ٩٥]:

أهل الغفلة يتعاملون مع الشدة على أنها حدث عارض، ليس له سبب، وأما أهل اليقظة فيرونها رسائل ربانية، إما تنبيهًا أو تهذيبًا أو تطهيرًا.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]:

ليست العبرة بالنعمة، وإنما العبرة بالبركة؛ لذا لم يقل عن النعمة: ضاعفنا، لكن قال: بارَكْنَا.

﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]:

الأخذ بالعقوبة نعمة من الله؛ لأنها تُظهر عدالته سبحانه؛ ولو لم يؤاخذ الله المفسدين بإفسادهم، لأغرى ذلك غير المفسدين بالفساد، لكن عقوبة الله للمفسد تردعه وتردعه غيره من الزلل.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [٩٧]:

الغرق في الغفلة يأتيه الموت على غفلة، سواء كانت غفلته في ليل بالنوم، أو في نهار باللعب، يموت المرء على ما عاش عليه.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]:

لا يشتط الظالم في ظلمه إلا حين يأمن مكر الله؛ لذا فعاقبة الظلم الخسران والهلاك.

قال ابن حجر: «الأمن من مكر الله يتحقق بالاسترسال في المعاصي مع الاتكال على الرحمة».

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]:

قال القشيري: يقال: «من عرف علو قدره - سبحانه - خشي خفي مكره، ومن أمن خفي مكره نسي عظيم قدره».

تتابع الذنوب من غير توبة هو سبب إزهاق روح القلب، وتحويله إلى صخرة

صماء: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ

الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]:

طريق الضلالة واحد، يجتمع عليه أهل الضلال في كل عصر ومصر، والطبع على القلوب صفة من سبقت بالشقاء قسمته، وحقَّتْ بالعذاب عليه كلمته.

﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ [الأعراف: ١٠١]:

التكرار للاعتبار، فقد كرّر الله ذكر القرى التي أهلكها حتى صارت للسامعين كأنها حاضرة مشاهدّة، وصالحة لأن يشار إليها بالبنان.

المقصود بالقرى الأقوام الخمسة الذين وصفهم الله فيما سبق من آيات، وهم: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

لم خص هؤلاء بالذكر؟

قال الإمام الرازي:

«وإنما خصّ الله أنباء هذه القرى؛ لأنهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم، فتوهّموا أنهم على الحق، فذكرها الله تعالى تنبيهاً لقوم محمد عليه الصلاة والسلام عن الاحتراز من مثل تلك الأعمال».

الهدف من اسم الإشارة زيادة إحضار القرى المهلكة في أذهان السامعين، ليعتبر الغافلون بمصارع القوم السابقين، ويروا أنهم في العناد والضلال سواء، فيعودوا إلى الحق قبل نزول العذاب.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]:
نقض العهد مع الله مهلك، وكلنا أخذ الله منا العهد، ونحن في صلب أبينا آدم في عالم الذر.

لا يقبل الله أن ينقض عبّد عهده مع عبد مثله ولو كان مشركاً: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]، فكيف بنقض العهد مع الله؟!

﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]:

ليتنا نتعلم الإنصاف! لو أنّ من الاحتراز امتاز به القرآن في عرض الحقائق، فلا يلقي التهم جزافاً، ولا يعمّم، بل يعطي كل ذي حق حقه، فإن كان الأكثرون استحقوا الدم، فإن قلة أمنت فاستحققت المدح.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]:

هذا مجمل القصة، ثم يبدأ القرآن في قصّ أحداثها بالتفصيل، وهذا من بلاغة القرآن، فمع أن القصة لم تبدأ بعد، إلا أنه دعاهم إلى النظر في سوء مصير المفسدين، ليشير تطلعاتهم وتطلعاتنا إلى خاتمة الصراع بين الحق والباطل، والتي تأتي تفاصيلها بعد قليل.

﴿فَإَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]:

طمأنة وتسلية لقلوب المصلحين في صراعهم الأبدي مع أهل الإفساد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤]:

اختيار صفة «رَبِّ الْعَالَمِينَ» إبطال - في غاية الاختصار - لاعتقاد فرعون أنه رب مصر وأهلها حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ودخل في العالمين جميع البلاد والعباد الذين لم يكن فرعون يدعي أنه ربهم مثل الفرس والآشوريين.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]:

(الحاء والقاف والقاف) في لغة العرب تدل على الثبوت وعدم الاضمحلال، والمعنى: واجب عليّ قول الحق، ومجموع قول الحق حقاً عليّ، فرسالتي حق لا شك فيها؛ لأنني رسول ثابت في ديوان المرسلين.

الرسول لا يقول إلا الحق، والعلماء ورثة الأنبياء، فلا يقولون على الله إلا الحق، ولا يداهنون ولا يتأخرون عن قول الحق.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ [الأعراف: ١٠٦]:

خطاب التشكيك! عبّر بحرف «إِنْ» المفيد للشك، للإعلام أنه ليس معتقداً في صدق موسى عليه السلام.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٨]:

ما أسرع رد فعل موسى وأقواه في مواجهة جبروت فرعون!

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٨]:

بيضاء بياضاً نورانياً خارقاً للعادة، يجمع عليه أنظار الناس؛ لأن موسى عليه السلام كان شديد السمرة. في صحيح البخاري: «وأما موسى فآدم جسيم سَبُط، كأنه من رجال الزُّط»، وآدم أي أسمر، وجسيم أي طويل، وعن رسول الله ﷺ بالزُّط جنساً من السودان أو الهنود.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]:

إلقاء التهم أمر في غاية السهولة عند الطغاة، وهو سلاح تم توجيهه نحو الأنبياء، فكيف بمن دونهم؟!

قال الجشمي: «تدل الآية على عظيم معجزة لموسى، وتدل على جهل فرعون وقومه، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر عليه غير الله تعالى، حتى نسبوه إلى السحر. وتدل على أن عادة البشر، أن من رأى أمراً عظيماً أن يعارضه».

﴿يُرِيدُ أَنْ مُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: ١١٠]:

اتهم المصلحين بالتآمر على البلد أسطوانة يكرّرها طغاة كل عصر.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٠]:

نصحهم لفرعون بالتأخير دليل أن فرعون تقدم بأمر آخر، وهو الهُمُّ بقتل موسى، فنصحوه: أخره حتى ينكشف للناس حاله، فكان التأخير خيراً وفتحاً.. لفرعون تدبير، والله تدبير غالب!

﴿يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٢]:

قال الإمام الرازي: «تدل على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان، وهذا يدل على صحة ما يقوله المتكلمون من أنه تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالباً على أهل ذلك الزمان، فلما كان السحر غالباً على أهل زمان موسى عليه السلام كانت معجزته شبيهة بالسحر، وإن كان مخالفاً للسحر في الحقيقة.

ولما كان الطب غالباً على أهل زمان عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب.

ولما كانت الفصاحة غالبية على أهل زمان محمد عليه الصلاة والسلام لا جرم كانت معجزته من جنس الفصاحة».

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣]:

حزب المتتبعين موجود دائماً حول كل طاغية، يزيّن له جرائمه، في مقابل الاستفادة من جوائزه.

﴿وَإِن كُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]:

التقريب وإغداق الهدايا أسلوب الظالمين في إغراء أصحاب النفوس الضعيفة لينفذوا أمرهم ويضمنوا ولاءهم.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]:

لعله أدب! قال القرطبي: «تأدّبوا مع موسى عليه السلام، فكان ذلك سبب إيمانهم».

﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]:

أو ثقة في الفوز! وكأنهم يقولون: في كلتا الحالتين نحن واثقون من الفوز عليك، فأرح نفسك من الآن، واستسلم لنا مقدّماً.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]:

احتج بهذه الآية القائلون بأن السحر محض خداع وتمويه. قال القاضي: «لو كان السحر حقاً لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم، فثبت أن المراد أنهم تخيلوا أحوالاً عجيبة، مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيلوه».

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]:

تسمية سحرهم إفكاً دليل على أن السحر لا حقيقة له، وأنه مجرد تخیلات وتمويهات.

عصا تتحول أفعى، ثم تبتلع عشرات الحبال، فكيف لا يقع الإيمان، أين العقول والأفهام؟!

﴿فَوْقَ الْحَقِّ وَبَطْلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨]:

اليقين! كان موسى يعلم يقيناً قبل أن يلقي عصاه أن سحرهم باطل، وأن الله سيُبطله؛ ولذا جاء في سورة يونس: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]:

﴿فَغْلِبُوا هَنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]:

لم يُغلب السحرة فحسب، بل غلب معهم فرعون وكل من وقف معه، وعاش كل من عادى موسى في الصغار بعد العلو والاستكبار.

﴿وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]:

وكأن قوة القاهرة ألقتهم إلى وضع السجود! فلم يتمالكوا أن سجدوا دون تريث أو تردد، بعد أن بهرهم نور الحق الساطع.

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]:

قال الإمام الرازي: «لما قالوا: آمنا برب العالمين، قال لهم فرعون: إياي تعنون؟ فلما قالوا: رب موسى، قال: إياي تعنون؛ لأنني أنا الذي ربيت موسى، فلما قالوا: وهارون، زالت الشبهة».

﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣]:

حتى الإيمان يحتاج إلى تصريح! ما أغبى الطغاة!

﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلَفَ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤]:

أراد العذاب المادي بتقطيع الأيدي والأرجل، وأراد الفضيحة والإذلال بالصليب.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥]:

كل أوجاع الدنيا مغمورة في بحر ثواب الآخرة.

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]:

في زمن غربة الدين يصبح الإيمان تهمة الصالحين! قال ابن عباس: «ما أتينا بذنب تعدبنا عليه إلا أن آمنا بآيات ربنا».

﴿وَقَالَ أَكَلُ اللَّأْمِ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧]:

أولى خطوات معاداة الناصحين هي شيطنتهم في عيون الناس.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]:

اختيار الفوقية يُوجي بالسيطرة التامة، وهي أول خطوة في طريق سقوط الطغاة، أن ظنوا أن الأمر إليهم لا إلى الله.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨]:

قدّم موسى الاستعانة بالله على الصبر؛ لأن التوكل على الله أنفع في الشدة من الاعتماد على النفس بصبرها وتجملها.

خارطة الطريق نحو النصر = توكل + صبر .

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ

كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]:

قال ابن عاشور: «وجاء بفعل الرجاء دون الجزم تأدباً مع الله تعالى، وإقصاءً للاتكال على أعمالهم ليزدادوا من التقوى، والتعرض إلى رضا الله تعالى ونصره».

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]:

ليس معنى السنين هنا السنوات؛ بل القحط وقلة المطر.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]:

الشقاء أن ينظر العبد إلى إحسان الله عليه بعين الاستحقاق لا الإنعام.

﴿وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُٗ﴾ [الأعراف: ١٣١]:

قال الفراء:

«وقد تشاءمت اليهود بالنبي ﷺ بالمدينة، فقالوا: غلت أسعارنا وقلّت أمطارنا مذأتانا».

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

[الأعراف: ١٣٣]:

عناد بعض الكفار حال بينهم وبين الإيمان، ولو أتيتهم بألف دليل فما لإيمانهم من سبيل، وهؤلاء يستوي عندهم نزول الآيات وعدمها.

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]:

﴿لَكَ﴾ شخصنة القضية من علامات البلية!

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]:

يجري على العبد من العقوبات بحسب ما وقع منه من السيئات!

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَنْمُوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٣٤]:

في الشدائد والأزمات تتجه الأنظار دوما نحو المصلحين.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾

[الأعراف: ١٣٥]:

الإيمان النفعي أو المصلحي! الرجز اسم من أسماء الطاعون، وقد سأل بنو إسرائيل موسى أن يرفع عنهم الطاعون في مقابل إيمانهم، فدعا الله فارتفع، فنكثوا عهدهم ولم يؤمنوا.

﴿فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمُ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا

غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]:

الغفلة داء خطير، تجعل الآيات التي يشاهدها العبد بعينه معدومة الأثر، فعدم الاعتبار بالآيات الظاهرة صيرها وكأنها خافية.

﴿فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٦]:

هنا محل العبرة من القصة، ونتيجة كل ما سبق من المقدمات، وفيه فذلكة الحكاية: لا بد من الحسم والإهلاك مهما طال زمن الإمهال.

﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾

[الأعراف: ١٣٧]:

الاستضعاف أولى خطوات التمكين!

سين: لماذا لم يقل (المستضعفين)، وقال: (كانوا يُستضعفون)؟

جيم: لسببين:

الأول: إشارة إلى سبب هذا الخبر، أي أن الله أورثهم الأرض جزاء صبرهم.
الثاني: التعريض ببشارة المؤمنين في كل عصر بأنهم ستكون لهم العقوبة كما كانت لبني إسرائيل، إن هم صبروا على الأذى في سبيل الله كما صبر من قبلهم.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]:

حسبك ثناء على الصبر أنه شرط النصر!

﴿وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ

قَالُوا يَمُوسَىٰ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]:

طبيعة بني إسرائيل المعوجة! سبحان الله! كفروا بالله، ولا تزال أقدامهم مُبتَلَّة من عبور البحر الذي أغرق الله فيه فرعون، وما زالوا في نشوة النصر وفرحة الغلبة!!

﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]:

نظيره قول جُهَّال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط، يعظمونها في كل سنة يوماً: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أكبر.. لقد قلتُم كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾».

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي: «انظروا رحمكم الله.. أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق، فهي ذات أنواط، فاقطعوها».

أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم فُقطعت؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبَرُّمًا هُمْ فِيهِ وَيَسْطَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]:

قال الرازي: «أجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر، سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهًا للعالم، أو اعتقدوا فيه أن عبادته تقرّبهم إلى الله تعالى».

﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]:

توبيخ.. كان الواجب أن تخصوا الله بمزيد الإقبال، كما خصّكم بمزيد الإنعام والإفضال.

﴿وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١]:

قال الإمام الرازي ما ملخصه: «في قتل الذكور دون الإناث مضرة من وجوه: أحدها: أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال، وذلك يقضي انقطاع النسل. ثانيها: أن هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعيشة. ثالثها: أن قتل الولد عقب الحمل الطويل، وتحمل الكد، والرجاء القوي في الانتفاع به من أعظم العذاب. فنعمة الله في تخليصهم من هذه المحنة كبيرة. رابعها: أن بقاء النساء بدون الذكور من أقاربهن، يؤدي إلى صيرورتهن مستفرشات للأعداء. وذلك نهاية الذل والهوان».

﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]:

قال القرطبي: «هذا أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره

ومفارقة أهله، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيا، حكمه كحكمهم..
إزالة المنكر أو الزوال عنه.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]:

جبال رواسٍ وصخور تتصدع، وقلوب من لحم ودم لا تتصدع!

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]:

قال الرازي: «وإنما قال: ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ ولم يقل على الخلق؛ لأن الملائكة قد تسمع كلام الله من غير واسطة كما سمعه موسى عليه السلام».

كيف اصطفاه على الناس برسالاته مع أن غيره من الأنبياء ساواه في الرسالة؟
والجواب: خصّه من دون الناس بالكلام مع الله من غير واسطة.

﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]:

خذ ما أنعم الله عليك من النعم، ولا يضق صدرك إذا منعك من غيرها من النعم (وهي هنا الرؤية)، واشتغل بشكر نعمة الرسالة عليك، وشكرها يكون بالقيام بلوازمها علما وعملا.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]:

تمثيل لحالة العزم على العمل بما في الألواح من الأوامر والنواهي، بمتهى الجد والحرص دون تأخير ولا تساهل ولا انقطاع عند المشقة أو الملل. لتعامل هكذا مع القرآن.

الأمر للرسول، لكن يدخل فيه كل من بلغ رسالته، واقتصر الأمر على الرسول لأن من اقتدى به سار على دربه.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]:

شعار المرسلين: أصلح نفسك، وادع غيرك.

﴿سَأَصْرِفُ عَنَّا بَنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]:

المتكبرون أقل الناس إدراكا للحقائق وفهما للواقع.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٤٦]:

قال سفيان بن عيينة: «أنزع عنهم فهم القرآن، فأصرفهم عن آياتي».

﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]:

قال القشيري: «تبيّن بهذا أنه لا يكفي شهود الحقّ حقاً وشهود الباطل باطلاً، بل لا بد من شهود الحق من وجود التوفيق للحق، ومع شهود الباطل من وجود العصمة من اتباع الباطل».

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ تُجْزَوْنَ

إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧]:

أطلق الله لفظ العمل على عمل القلب، فعبر عن التكذيب بالآيات ولقاء الآخرة بقوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ لأن عمل القلب واعتقاده هو أساس أقوال العبد وأفعاله.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾

[الأعراف: ١٤٨]:

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت لم قيل: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ والمتخذ هو السامري؟ قلت فيه وجهان:

أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم لأن رجلاً منهم باشره، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا، وفعلوا كذا، والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذهم، راضين به. والثاني: أن يراد واتخذوه إلهًا وعبدوه».

﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]:

بيان لفقدان عقولهم، فإنهم عبدوا عجلًا لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر، من الكلام وإرشاد الغير، ومثلهم اليوم في فقدان العقل من يعبدون البقر والفئران!

﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]:

الحرمان من رحمة الله ومغفرته هي الخسارة التي ما بعدها خسارة.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]:

الصديق لا يشمت، الأعداء فقط يفعلون.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]:

لا تعاتب حبيبك في لحظات غضبه، فعندما حمل الغضب موسى عليه السلام على إلقاء الألواح وفيها كلام الله، وجرّ رأس أخيه وهو نبي، عذره الله ولم يعاتبه.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: ١٥١]:

كم أخاً من إخوانك دعوت له اليوم؟!

كم من نائم مغفور له، يقوم أخوه يصلي من الليل، فيدعو له، فيغفر الله للآخرين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا﴾ [الأعراف ١٥٣]:

قال القشيري: «وفارق بين الإمهال والإهمال، والحق سبحانه يمهل، ولكنه لا يهمل، ولا ينبغي لمن يذنب، ثم لا يؤاخذ في الحال أن يغترّ بالإمهال».

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا﴾ [الأعراف ١٥٣]:

عمل السيئات يخدش الإيمان؛ لذا أمره الله بعدها بتجديد إيمانه.

﴿تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا﴾ [الأعراف: ١٥٣]

ما معنى الإيمان هنا بعد التوبة؟!

قال القشيري:

«والإيمان الذي هو بعد التوبة يحتمل آمنوا بأنه يقبل التوبة.

- أو آمنوا بأن الحق سبحانه لم يضره عصيان.

- أو آمنوا بأنهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله.
- أو آمنوا أي عدّوا ما سبق منهم من نقض العهد شركاً.
- ويقال: استداموا للإيمان، فكان موافاتهم على الإيمان.
- أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر سقطوا من عين الله؛ إذ ليس كل مرة تسلم الجرّة.

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]:

اختصاص يفيد القصر، أي لا يهرب العبد أحداً إلا الله، ورهبته خالصة لوجه الله، وليست رياء ولا سمعة ولا لقصد الثناء.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]:

اختار موسى سبعين رجلاً من خيار قومه للذهاب معه لإعلان توبتهم من عبادة العجل، فطلبت هذه الصفوة ما لا ينبغي لهم، وهو رؤية الله، فأخذتهم الرجفة بسبب ذلك، أو بسبب أنهم لم ينهوا بني إسرائيل عن عبادة العجل عند غياب موسى.

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]:

من استعظم ذنبه، فقد استصغر رحمة ربه.

قال الثوري: «ما أحب أن يُجعل حسابي إلى أبوي؛ لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما».

هكذا مطلقاً، ودون استثناء، كل شيء مرحوم! وأنت من الأشياء!

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ..... يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ

عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]:

أبرز صفات نبينا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما نصيب ورثته من هذه التركة؟!

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي

٢٢٧

التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]:

من أجمع ما جاء في التوراة خاصاً بالنبي ﷺ ما أخرجه البخاري عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: (قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ: محمد رسول الله: عبدى ورسولى، سميته المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، بل يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله).

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]:

٢٢٨

المحبة اقتداء لا ادعاء! أثبت صدق اتباعك لنبيك، بأن تقتفي أثره في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

﴿وَنُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَنُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]:

٢٢٩

كل ما نفع الخلق هو طيب أحله الله، وكل ما ضرهم فهو خبيث حرّمه الله، لأن الله أرحم بالعباد وأعلم بنفعهم وضرهم من أنفسهم.

﴿وَنُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]:

٢٣٠

استدلت دار الإفتاء المصرية بهذه الآية على تحريم التدخين، وجاء في فتواها: «فالطيبات هي كل ما عاد على الإنسان بالنفع الحسي أو المعنوي أو لم يضره، والخبائث كل ما ضرّ الإنسان حسيّاً أو معنويّاً، وقد ثبت طيباً أن التدخين بكل أنواعه مضرّ بصحة وبدن الإنسان، فيكون محرماً».

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]:

٢٣١

كانت في شرائع الأمم التي قبلنا ضيق، فوسّع الله على هذه الأمة أمورها، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدّث به أنفسهم، ما لم تقل أو تعمل»، وقوله: «بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا»، وقوله: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]:

تعلم من نبيك أن تجهر بدعوتك، وأن تفخر بين الناس بهدايتك، وإياك أن تحجل من إعلان استقامتك.

في صحيح مسلم: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». صحيح الجامع رقم: ٧٠٦٣.

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الْنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨]:

قال الإمام الرازي: «أجل معجزات النبي محمد ﷺ وأشرفها أنه كان رجلاً أمياً» إلى أن قال: «ظهور هذه العلوم العظيمة عليه مع أنه كان رجلاً أمياً لم يلق أستاذاً، ولم يطالع كتاباً، من أعظم المعجزات».

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]:

من إنصاف القرآن أن استثنى بعض اليهود كانوا في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام، وأسلموا مثل عبد الله بن سلام، وابن سوريا، فإن قيل: كانوا قليلين في العدد، ولفظ أمة يقتضي الكثرة، فالجواب: قد أطلق الله على إبراهيم لقب أمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]:

الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وكان بنو إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً هم أولاد يعقوب عليه السلام.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]:

قال ابن جرير: «ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها، فإن الله تعالى لا تضره معصية عاصٍ، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد في ملكه عدل

عادل، لنفسه يظلم الظالم، وحظها يبخس العاصي، وإياها ينفع المطيع، وحظها يصيب العادل».

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

[الأعراف: ١٦١]:

في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة، فبدّلوا ودخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعيرة».

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢]:

الرجز هو العذاب، سواء أكان بالأمراض أو غيرها، وقد أتاهم من السماء إشعاراً بأنه عذاب لا يمكن دفعه، ولم يكن له سبب أرضي من عدوى أو غيرها، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء، فأصيب به الذين ظلموا تحديداً دون غيرهم.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]:

سئل الحسين بن الفضل عن المثل: (الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام يأتيك جزافاً).. هل يوجد في كتاب الله تعالى؟! فقال: نعم، في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]:

(اللوامون) فئة ليتهم إذ قعدوا عن فعل الخير لم يلووموا غيرهم على فعله.

﴿مَعَذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]:

واضح أن الله سيسألنا: لماذا لم ننكر؟ لماذا لم نغيّر؟ فلا عذر لساكت بعد اليوم!

٢٢٣٣ مهما انتشرت المنكرات من حولنا، فلا ينبغي ترك الإنكار وإلا نزل العذاب بالجميع، ولم ينبج أحد: ﴿مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

٢٢٣٤ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِمُ أَجْنَبَتْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]:
الناجون من أصلحو لا من صلحو، ومن تكلموا لا من صمتوا، ومن غيروا لا من فقط تغيروا.

٢٢٣٥ ﴿أَجْنَبَتْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥]:

ما مصير الفرقة اللائمة؟! هل هلكوا أم نجوا؟ اختلفوا في ذلك، ولعل سبب هذا أن هذه الفرقة وقفت من المعتدين موقفاً سلبياً، استحقت معه الإهمال، حتى لو لم تكن أهلاً للإهلاك.

٢٢٣٦ السوء هو الاحتيال لنيل الحرام. قال رسول الله ﷺ: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل».

٢٢٣٧ ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]:
أخبر الله تعالى عن أهل السبب من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرم الله عليهم من الصيد، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد، أخذوه يوم الأحد، وفي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية، ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه؛ إذ الفقيه الحق من يخشى الله بحفظ حدوده وتعظيم حرماته، لا المحتال بكل طريق على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه.

٢٢٣٨ ﴿وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]:

هل تعطل هذا الوعيد الإلهي مع ما نرى من علو اليهود اليوم؟!

والجواب: ما علا اليهود ولا صارت لهم دولة إلا بعد أن فرط المسلمون في حق الله، وفرطوا في الأسباب التي شرعها الله لهم للنصر على عدوهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]:

يبتليكم الله بالحسنات والنعم ليعثك على الشكر، كما يبتليكم بالسيئات والنقم ليعثك على الصبر.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]:

بدلاً من أن يشكروا الله على نعمة المغفرة، كفروا بهذه النعمة واستمروا العصيان.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]:

يا ويح هؤلاء!

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليس

ماذا دفعت من ثمن كي تشتري المغفرة؟! أم تظنها رخيصة أو بالمجان؟!

قال معروف الكرخي: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور».

قال الحسن البصري: «إن قومًا ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بلا حسنة، باعتقاد حسن الظن، وهو كاذب فيه، فلو كان صادقاً لأحسن العمل، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾».

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]:

قال سعيد بن جبير:

«يعملون بالذنوب، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه: أي: ذنب آخر، يعملون به».

﴿وَيَقُولُونَ سَيَغْفِرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]:

عجيب شأن بعض المذنبين! يمشون على الأرض مطمئنين، وكأنهم أخذوا صكاً من السماء بمغفرة رب العالمين!

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيَغْفِرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]:

هذه التوبة سابقة التجهيز! يأكلون الحرام، ويقولون: سنستغفر الله وسيغفر!

﴿عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩]:

والعرض: الأمر الذي يزول ولا يدوم، ويراد به هنا المال.

والأدنى: من الدنو بمعنى الأقرب؛ لأن متاع الدنيا عاجل قريب، أو من دنو الحال وسقوطها، وفي استخدام اسم الإشارة (هذا) إيحاءة إلى تحقير هذا الذي رغبوا فيه.

هذه الآية نزلت في المرتشين، فقد كان قضاة بني إسرائيل يأخذون الرشوة في الأحكام للتسهيل على العوام.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ

الْمُضِلِّينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]:

من أبرز صفات المصلحين وعلامات صدقهم: الاستمسك بالكتاب مع إقامة الصلاة.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ

بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]:

قيل: إن موسى لما أتى بني إسرائيل بالتوراة، وقرأها عليهم، وسمعوا ما فيها من التخليط كبر ذلك عليهم، وأبوا أن يقبلوا ذلك، فأمر الله الجبل فانقطع من أصله حتى قام على رؤوسهم، فلما نظروا إليه فوق رؤوسهم خروا ساجدين، فسجدوا كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر، وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً من أن يسقط فوقهم.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]:

قال القرطبي: «وهذا هو من المقصود من الكتب: العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان فحسب، روى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن من شر الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن لا يرعوي إلى شيء منه».

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]:

قال الإمام ابن كثير: «ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد»، ومن ذلك الحديث القدسي: «يقول الله - تعالى -: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم - أي صرفتهم عن دينهم - وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]:

تدل الآية على فساد التقليد في الدين، وتدل على أن الله تعالى أقام الحجة على الناس، فبعدها لم يبق لأحد عذر في الكفر أو الشرك.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤]:

إذا انسدت عيون البصائر، فماذا نُجدي كثرة الدلائل؟!

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]:

لا ييأس إبليس من إغواء أحد ولو بلغ مقام الأولياء، ولا سقف لطموحه في إضلال العبد، فينقله من إمامة المؤمنين إلى إمامة المجرمين!

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]:

قال ابن الجوزي: «بالله عليك يا مرفوع القدر بالقوى: لا تبع عزها بذل المعاصي».

القرآن يرفع صاحبه، والهوى يضعه.

٢٢٤٩

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]:

الضالُّ على علم: إن زجرته لم يرتدع (هلك)، وإن تركته بلا نصيح (هلك)، كالكلب إن طُرد كان لاهثًا، وإن تركته كان لاهثًا.

٢٢٥٠

قال ابن قتيبة: «كل لاهث إنما يكون من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال راحته وحال تعبته؛ وفي حال الري وحال العطش». ووجه التشابه: حال صاحب الهوى في لهثته خلف هواه.

٢٢٥١

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]:

ليس معنى ﴿تَحْمِلُ﴾ من وضع الأحمال عليه؛ إذ الكلاب لا يُحْمَل عليها، بل المعنى: تزجره وتطرده.

٢٢٥٢

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٧]:

بئس المثل الذي مثَّل به القوم الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فقد شَبَّهوا بالكلاب، إما في أنهم ضالون، وُعِظُوا أم لم يوعظوا، وإما في الخسة، فإن الكلاب لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة.

٢٢٥٣

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]:

ليست الهداية من السعي، إنما الهداية من البداية، وليست الهداية بسبب عمل العبد ونظره، إنما الهداية بفضل الله وإحسانه وبرّه.

٢٢٥٤

حكمة إفراد المهتدي: الإشارة إلى أن الحق واحد لا يتعدد، وحكمة جمع الخاسرين: الإشارة إلى تعدد أنواع الضلال، وتنوع وسائله وأساليبه.

٢٢٥٥

﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا

يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]:

كل من له قلب لا يفقه به الحق، وعين لا تبصر الحق، وأذن لا تسمع الحق، فهو ﴿كَأَلَّا نَعْمِرَ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ﴾، وسر أنهم أضل من الأنعام أن الأنعام لو كان لديها عقل لفقحت به!

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]:

قال القرطبي موضحاً: «أي اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رازق ارزقني، يا هادي اهديني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تب علي، وهكذا».

قال ابن القيم: «وهو مرتبتان: إحداهما: دعاء ثناء وعبادة، والثاني: دعاء طلب ومسألة».

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]:

جرت سنة الله ألا تخلو الأرض من أهل الحق، وهؤلاء أوكل إليهم مهمة إظهار الحق وهداية الخلق، ففي الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». صحيح الجامع رقم: ٧٢٨٩.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]:

قال سفيان الثوري: «نسبغ عليهم النعم، ونمنعهم الشكر».

قال أبو حازم: «نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها، إني رأيتَه أعطاهَا أقوامًا فهلكوا».

قال القشيري: «الاستدراج انتشار الصيت بالخير في الخلق، والانطواء على الشر - في السر - مع الحق».

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]:

تكررت هذه الآية في القرآن - لأهميتها - مرتين، هنا في سورة الأعراف، والثانية في سورة القلم، لتكون بمثابة تهديد للمجرمين، وتسلية للمؤمنين.

لماذا سماه كيداً؟! قال البيضاوي: «وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان، وباطنه خذلان».

لم وصف الله كيده بالمتين؟! ليلقي الرعب في قلوب المجرمين، فكيدة قوي، أي لا إفلات منه لمن كاده الله.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا^{٢٣٦٥} مَا بِصَاحِبِهِمْ^{٢٣٦٥} مِنْ جِنَّةٍ^{٢٣٦٥} إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

[الأعراف: ١٨٤]:

لم التعبير بقوله: ﴿بِصَاحِبِهِمْ﴾؟ للتنبيه على أن طول مصاحبتهم له أطلعتهم على نزاهته، فقد لبث فيهم ﷺ قبل الرسالة أربعين سنة، وكانوا يلقبونه فيها بالصادق الأمين.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]:

تعجب من رب العالمين من إعراض بعض الخلق عن التفكير في هذا الملك العظيم، الذي خلقه ليستدلوا به عليه، فأعرضوا عنه.

وما أجمل قول أبي العتاهية:

فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعِصِي الْإِلَهَ	أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَا حِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ	وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ	تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥]:

لو تفكروا في دنو الأجل واقتراب الموت، لبادروا الأجل وأحسنوا العمل.

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]:

الحرمان من الهداية له سبب! مع أن ضلالهم قدر رباني، لكن السبب فيه هو الضال نفسه، فقد بادر بالتكذيب، ولم يتفكر في عظمة النبي ﷺ، ولا نظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله، ولم يتفكر يوماً في اقتراب موته، فحكم الله عليه بالحرمان من الهداية وأضله، جزاء وفاقاً.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]:

عن ابن عباس أن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً؟ إنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحاناً منهم، مع علمهم أن الله تعالى قد استأثر بعلمها.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]:

أطلق على يوم القيامة ساعة إما لأنها تقع بغتة، أو لسرعة الفراغ فيها من الحساب، أو لأن يوم القيامة - على طوله - قدره يسير عند الله تعالى.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]:

السبب في إخفاء الساعة كي يكونوا دائماً على حذر، فذلك أدعى للطاعة، وأزجر عن المعصية، وإلا فلو علم الخلق موعد الساعة لأساءوا العمل وأخروا التوبة.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]:

قال السُّدِّي: «من خفي عليه علم شيء كان ثقيلاً عليه».

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]:

هذا أوضح حديث على إتيان الساعة بغتة!

قال النبي ﷺ:

«لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته - أي ناقته ذات اللبن - فلا يطعمه.

ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه - يصلحه ويسد شقوقه - فلا يسقي فيه. ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فمه فلا يطعمها». صحيح الجامع رقم: ٧٤١١.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]:

قال صاحب الكشاف:

«أي عالم بها، وهذا التركيب معناه المبالغة.

ومنه إخفاء الشارب.

واحتفاء البقل: استئصاله.

وأحفى في المسألة إذا ألحف أي ألحّ وتشدد.

وحفي بفلان وتحفى به: بالغ في البرّ به..

وقيل: إن قريشا قالت له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسألونك عنها كأنك حفي تتحفى بهم، فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة، وتزوي علمها عن غيرهم».

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]:

اعتراف نبوي وإقرار بالتبرؤ من حوله وقوته، وأن قيامه وأمره كله بفضل ربّه ومِنّته؛ ولذا تتبدل عليه الأحوال، فبين عسر ويسر، وجوع وشبع، ومرض وصحة، بحسب ما قدّر الله له.. هذا أشرف الأنبياء يعترف بفقره لربه، لكن الجاهلاء يتفاخرون وبقوتهم يغترون!

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]:

عن ابن عباس: أن أهل مكة قالوا: يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري عند الغلاء، وبالأرض التي تريد أن تجذب، فترتحل منها إلى التي قد أخصبت، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ [الأعراف: ١٨٨].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٩]:

هنا أدب القرآن لا الأدب المكشوف! وانظر لتصوير العلاقة بين الزوجين بكناية بديعة تناسب جو السكن والمودة بين الزوجين، وتتماشى مع الستر الذي دعا إليه الإسلام عند الحديث عن مباشرة الرجل للمرأة، ولا تكاد تجد كلمة تختصر هذه المعاني أفضل من كلمة: ﴿تَغَشَّيْهَا﴾.

﴿دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠]:

﴿ءَاتَيْنَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠]:

عادة الإنسان جحود النعمة، ومن جحد نعمة الخالق، هل يراعي جناب الخلق؟! الخلق؟! الخلق؟! الخلق؟!

﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]:

قال أبو يزيد البسطامي: «استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق».

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]:

كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها، ليعتبر قومها بذلك، فكان لعمر بن الجموح - وكان سيداً في قومه - صنم يعبدته ويُطِيبُه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالقاذورات، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً، ويقول له: انتصر! ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلياه في حبل في بئر، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، علم أن ما كان عليه من الدين باطل، ثم أسلم فحسن إسلامه.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]:

الإقناع العقلي! يستوي دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم، فلن يتغير حالكم في الحالين، كما لن يتغير حالهم لأنهم جهاد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]:

أطلق على الأصنام لفظ عباد - مع أنها جهاد - وفق اعتقادهم فيها تبكيता لهم وتويخا.

﴿اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ هُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]:

قال الإمام الرازي:

«ذكر في هذه الآية أعضاء أربعة، وهي الأرجل والأيدي والأعين والأذان، ولا شك أن هذه الأعضاء إذا حصل في كل واحدة منها ما يليق بها من القوى المحركة والمدركة تكون أفضل منها إذا كانت خالية عن هذه القوى. فالرجل القادرة على المشي واليد القادرة على البطش أفضل من اليد والرجل الخاليتين عن قوة الحركة والحياة. والعين الباصرة والأذن السامعة أفضل من العين والأذن الخاليتين عن القوة الباصرة والسامعة وعن قوة الحياة. وإذا ثبت هذا ظهر أن الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام، بل لا نسبة لفضيلة الإنسان إلى فضل هذه الأصنام ألبتة. وإذا كان كذلك، فكيف يليق بالأفضل الأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحس منه فائدة ألبتة، لا في جلب المنفعة ولا في دفع المضرة».

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]:
ما يضرك إن تولى كل الناس عنك، إن تولى الله أمرك أيها العبد الصالح.

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ [الأعراف: ١٩٦]:
ذكر الله الكتاب مع الولاية، وكأنها إشارة إلى أن ولاية الله لك على قدر صلتك بالقرآن.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]:
والفعل المضارع فيه دلالة على سريان قانون نُصرة الله للصالحين على مر العصور.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧]:

لم التكرار؟! الجواب: أن المراد هو وصف الأصنام بهذه الصفات، وأعيد هنا على وجه التقرير، أو أن المراد هنا المشركون، فقد كانوا يخوفون رسول الله ﷺ وأصحابه، فأخبر الله أنهم لا يقدرُونَ على شيء.

﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]:

كثيراً ما تبصر العين ويعمى القلب.

قيل لسفيان بن عيينة: قد استنبطت من القرآن كل شيء؛ فأين المروءة فيه؟ قال: في

قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]:

وذلك مثل قبول الاعتذار والعفو والمساهلة وترك البحث عن الأشياء والتغافل.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]:

﴿وَأَعْرِضْ﴾ عنهم بعينك فلا تنظر إليهم، ﴿وَأَعْرِضْ﴾ عنهم بقلبك فلا يلقون فيه بالهموم.

كثير من الوقت الضائع في الجدل كان دواؤه ألا تتورط فيه منذ البداية.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيجذب نحوك دائماً من يكابره ويجهل عليك.

إذا لم يعترض طريق المصلحين جاهلٌ ومعاند فإصلاحهم مشكوك فيه؛ فإن

الله تعالى قال لنبيه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[الأعراف: ٢٠٠]:

قال أبو السعود: «وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره (الشیطان)، وتنبه على أنه من العقبات الصعبة التي لا يتخلص من مضرتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل».

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]:

سيرتعد شيطانك خوفاً من استعاذتك إن واطبت عليها وأكثرت منها، وكلما حضر فيها قلبك، ازداد بُعد الشيطان عنك.

للاستعاذة تأثير وقائي ضد التأثير بوساوس الشيطان؛ لذا وجبت المواظبة عليها في أكثر الأحوال.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]:

قال الإمام الرازي: «قوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يدل على أن الاستعاذة بلسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك، فإني سميع، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك، وفي الحقيقة: القول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر».

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَإِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١]:
حين تتعثر وتخطئ يسلبك الله صفة التقوى، فسبحان من يمدحك ولو أخطأت!

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]:
علاقة شياطين الجن بالفجار علاقة أخوة شيطانية! فكلاهما شيطان، وشياطين الجن يمدُّون شياطين الإنس بتكثير الشبهات وتزيين الشهوات وتسهيل السيئات، ثم لا يمسكون عن إغوائهم، وقوله: ﴿يُقْصِرُونَ﴾ مِنْ أَقْصَرَ عَنِ الشَّيْءِ إِذَا كَفَّ عَنْهُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيَاقَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]:

إذا لم تأتهم بآية اقترحوها، قالوا: لولا اختلقتها من عند نفسك، أو اقترحتها على إهلك إن كنت صادقاً في أنه يقبل دعائك، وعندها أمر الله نبيه أن يردَّ عليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]:

رحمة الله حولك في كل مكان، وتُنال بأيسر الطرق، وماذا أيسر من الإنصات؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]:

رحمة الله قريبة من المستمع للقرآن، فكيف بالعامل به؟!

المشتاق لسماع القرآن مرحوم؛ والذي ينفر من القرآن محروم!

كلما زاد حضور قلبك وحسن إنصاتك، زاد نصيبك من رحمة الله.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤]:

قال الحارث المحاسبى: «إذا كان كلام العالم أولى بالاستماع من كلام الجاهل، وكلام الوالدة الرؤوم أحق بالاستماع من كلام غيرها، فالله أعلم العلماء وأرحم الرحماء، فكلامه أولى كلام بالاستماع والتدبر والفهم».

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ

وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]:

أذكار الصباح والمساء كفيلة بأن تُخرج العبد من وصف (الغافلين).

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ

يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]:

من استكبر من الخلق فليُنظر إلى الأعظم منه خَلْقًا وَخُلُقًا، ومع هذا لا يستكبرون، وهؤلاء هم الملائكة المطهَّرون.

من فتر عن ذكره فليستعن بربه.

قال ابن عرفة:

«فإن الذي أقدر الملائكة على المداومة على الذكر من غير فتور قادر على أن يقدرك على المداومة عليه من غير فتور».



سورة الأنفال

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]:

قال أبو أمامة الباهلي: «سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول، فقسمه رسول الله ﷺ عن بواء. يقول: على السواء».

في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: اغتتم أصحاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيف، فأخذته فأتيت به النبي ﷺ فقلت: نفلني هذا السيف، فأنا من قد علمت حاله. قال: «رده من حيث أخذته»، فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض (ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم) لامتنى نفسي فرجعت إليه، فقلت: أعطنيه، فشد لي صوته: «رده من حيث أخذته»، فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتنى نفسي، فرجعت إليه فقلت: أعطنيه، قال: فشد لي صوته: «رده من حيث أخذته»، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]:

خير الأجيال يحتاجون للدعوة إلى التقوى وإصلاح ذات البين، فكيف لا نحتاجها نحن؟!

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]:

علامة الإيثار اقتداء لا ادعاء، وجوهر لا مظهر، ومن نقصت طاعته لله ورسوله، فهو علامة نقص إيمانه.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]:

من أعظم علامات الإيمان: التأثر بكلام الله تعالى.

﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]:

قال هنا: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾،
فكيف الجمع بينهما؟

والجواب:

الاطمئنان يكون انشراح الصدر بذكر الله، والوجل يكون من خوف العقوبة،
والمؤمن -أثناء سيره إلى الله- يتقلب بين الحالتين.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]:

نية جديدة احتسبها كلما قرأت القرآن: أن تكون سبباً في زيادة إيمان غيرك.

﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]:

كلما زاد إيمانك زاد توكلك!

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]:

دائماً يقرنان في القرآن؛ لأن كليهما فيه بذل وتضحية، فالصلاة تقتطع جزءاً
من وقتك للوقوف بين يدي الله، والزكاة تقتطع جزءاً من مالك.

مدحهم أولاً بمكارم الأعمال القلبية من الخشية والإخلاص والتوكل، ثم
مدحهم هنا بمحاسن أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة، وقدم أعمال
القلوب؛ لأنها أصل أعمال الجوارح وأثقل منها في الميزان.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]:

لن تكون مؤمناً حقاً حتى تجمع بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين
أعمال القلوب والجوارح، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق
عباده.

﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوهُمْ﴾ [الأنفال: ٥]:

عندما يقع لك ما لا تحب، فتفءال، فلعله الطريق إلى ما تحب كما حدث يوم بدر.

﴿مُجْتَدِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]:

الجدال في الحق بعد تبينه أقبح من الجدال فيه قبل ظهوره.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦]:

كانوا غير متحمسين للسير، بل مدفوعين إليه دفعًا، كأنهم ينتظرون الموت، لأنهم مواجهة ألف رجل من قريش أمام ثلاثمائة تجعل الموت أقرب؛ لكن غاب عنهم أن الله مع القلة المؤمنة ضد الكثرة الكافرة.

كره فريق منهم القتال وقالوا: ما كان خروجنا إلا للعر، ولو أخبرتنا بالقتال لأعدنا له عدة، وكان خوفهم لثلاثة أمور: أحدها: قلة العدد، وثانيها: أنهم كانوا رجالًا، روي أنه ما كان فيهم إلا فارسان، وثالثها: قلة السلاح معهم.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]:

أحيانًا تحب ما لا يكون فيه تمام مصلحتك، فيختار الله لك الأنفع والأصلح، وإن شق عليك أولًا، فإنه يعلم ما لا تعلم، وهذا من جميل لطف الله بعباده.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]:

إحقاق الحق يكون باستئصال معانديه، فأنتم أردتم نفعًا قليلًا عاجلاً، وأراد الله نفعًا عظيمًا في العاجل والآجل، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨]:

تصريح بأن الله لا يرضى بالباطل، لكن يبقيه إلى أجل، ليختبر به صدق المؤمنين، ويدفعهم إلى العمل، ثم يمحقه.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]:

حاجتك للإجابة هي كحاجة الغريق للغوث والحياة.

لو استغنى أحد عن الدعاء لكان جيش الصحابة الذين كان فيهم خاتم الأنبياء المؤيد بالوحي.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠]:

إياك أن تظن النصر بسبب الملائكة التي تنزلت، فهم مجرد سبب، ولو شاء الله لنصرهم دون ملائكة.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]:

أسهرهم الخوف من كثرة عدوهم، فألقى الله عليهم النوم لطفاً بهم؛ ليأخذوا حظهم من الراحة قبل المواجهة.

وإذا العناية لاحظتك عيونها
نم فالمخاوف كلهن أمان

قال القرطبي: «وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

– أحدهما: أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

– الثاني: أن أَمْنَهُم بزوال الرعب من قلوبهم؛ كما يقال: الأمن منيم، والخوف مُسْهِرٌ».

معجزة ظاهرة! غشيهم النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم، وحصول النعاس للجمع العظيم في الخوف الشديد أمر خارق للعادة. قال علي عليه السلام: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم سوى رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي حتى أصبح».

﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال: ١١]:

قال الرازي:

«رُوي أنهم لما ناموا واحتلم أكثرهم، تمثل لهم إبليس وقال: أنتم ترعمون

أنكم على الحق، وأنتم تصلون على الجنابة! وقد عطشتم ولو كنتم على الحق لما غلبوكم على الماء، فأنزل الله تعالى المطر حتى جرى الوادي، واتخذ المسلمون حياضاً واغتسلوا، وتلبد الرمل حتى ثبتت عليه الأقدام».

﴿وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]:

سبحان من جعل المطر خيراً للمسلمين، وشرّاً على الكافرين! قال عروة بن الزبير: «بعث الله السماء وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبّد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه».

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]:

ومنهم جبريل صاحب الستمائة جناح، كل جناح منها يسد الأفق، يقاتل يوم بدر بشراً مهازيل، ومع ذلك يحتاجون معية الله، وإلا انهزموا!

﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]:

مهما بلغ إيمان العبد، فإنه يحتاج إلى تثبيت الرب، ووسيلة التثبيت هنا الملائكة!

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣]:

صرّح بسبب انتقامه منهم وهو مشاقة الله ورسوله، وفيه تعريض بالمؤمنين؛ ليستزيدوا من طاعة الله ورسوله؛ فإن كانت المشاقة سبب هذا العقاب العظيم، فيوشك أن تكون مخالفة الرسول دون مشاقة سبباً في وقوع عذاب دون ذلك، وأن يكون ضدها -وهو الطاعة- سبباً في نزول الخير. ذكره ابن عاشور

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]:

المؤمنون سيف الله يعاقب الله من عاداه، فمن عقاب الله تسليط أوليائه على أعدائه.

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٤]:

ما أهون عذاب الدنيا مقارنة بعذاب الآخرة! سباه ذوقاً؛ لأن الذوق معرفة طعم اليسير ليُعرف به حال الكثير، فعاجل ما حصل لهم من عذاب الدنيا كالذوق القليل إذا قورن بالعذاب العظيم المُعدّ لهم في الآخرة. للعصاة عقوبتان، معجّل بنقد، ومؤخّر بوعده.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]:

قال القرطبي: «إذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضِعْفُ المؤمنين من المشركين، فالفرض ألا يفروا أمامهم، فمن فر من اثنين فهو فار من الزحف، ومن فر من ثلاثة فليس بفار من الزحف، ولا يتوجه عليه الوعيد».

﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦]:

تولية الأدبار محرمة إلا في حالتين: الأولى: أن يميل المؤمن عن مكانه إلى مكان آخر أصلح للقتال فيه، أو أن يوهم عدوه بأنه منهزم أمامه استدراجاً له. الثانية: أن يكون في توليه منحازاً إلى فرقة أخرى من الجيش للتعاون معها على القتال.

وهذا كله من باب الخدعة في الحرب.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]:

لا تنسب لنفسك أي خير، فلولا الله ما ركع راع ولا سجد ساجد.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]:

ما رميت بنفسك لكن رميت بنا، فكان منك يا محمد قبض التراب وإرساله من يدك، وكان التبليغ والإصابة من الله.

﴿٢٣٤٧﴾ رمى قبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه، وقال له في موضع آخر: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقال في الثالثة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فإذا كان الملك ملكه، والأمر أمره، والحكم حكمه، فكيف يغتر أحد بقوته أو ييأس من ضعفه؟!

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكَ اللَّهُ رَحْمَةً﴾ [الأنفال: ١٧]:

قال صاحب الكشف:

«يعني أن الرمية التي رميتها- يا محمد- لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم.. فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ؛ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه؛ لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر هو فعل الله عز وجل».

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧]:

البلاء الاختبار، فيختبرهم مرة بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم أو جزعهم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]:

قال السعدي: «مُضْعَف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محققاً بهم».

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]:

قال أبو جهل حين التقى القوم في بدر: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه- أي فأهلكه- الغداة، فكان المستفتح.

عن السدي أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أهدي الجندين، وأكرم الفتتين، وخير القبيلتين. فقال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾

٢٣٥٣

[الأنفال: ٢٠]:

هم درجات عند الله! قال القشيري:

«الناس في طاعة الله على أقسام:

فمطيع لخوف عقوبته.

ومطيع طمعاً في مثوبته.

وآخر تحققاً بعبوديته.

وآخر تشرفاً بربوبيته.

وكم بين مطيع ومطيع!».

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]:

٢٣٥٤

من فقد سماع التدبر والاتعاظ كان بمنزلة الأصم الذي لا يسمع أصلاً! وكم

منا اليوم من فتح أذنيه، وقد ضيَّع مفاتيح قلبه!

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]:

٢٣٥٥

صورة من أقبح الصور، لكنها صورة حقيقية للمحرومين من الهداية كما تبدو

في مرآة الوحي الإلهي.

روي أن هذه الآية نزلت في نفر من بني عبد الدار، كانوا يقولون: نحن صُمٌّ

٢٣٥٦

بكم عما جاء به محمد، فقتلوا جميعاً يوم بدر، والآية تشمل كل من أعرض عن

الحق؛ إذ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]:

٢٣٥٧

ما أسوأ حال غير المهتدين! فإن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما فهم بعض

الأمر، أما إذا كان مع صممه وبكمه فاقد العقل، فقد بلغ أسوء حال.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]:

٢٣٥٨

ليس المجنون من فقد عقله، بل من فقد قلبه!

﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]:

٢٣٥٩

أعظم العقوبات فقدان العقل! قال الشيخ رشيد رضا: «فقدوا فضيلة العقل الذي يميز بين الحق والباطل والخير والشر، إذ لو عقلوا لطلبوا، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا، ولو سمعوا لنطقوا وبيّنوا، وتذكّروا وذكّروا، فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق صاروا كالفالاقدين لهذه المشاعر والقوى، بل هم شر من ذلك لأنهم أعطيت لهم المشاعر والقوى، فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها في ما خلقها الله لأجله».

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]:

٢٣٦٠

أعظم العقوبات ألا تتفّع بالعظات.

نصينا من الانتفاع بوحى السماء عظيم بقدر (الخير) الذي في قلوبنا.

﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]:

٢٣٦١

تعريف الميت بموجب هذه الآية هو من لم يستجب لأمر الله ورسوله، وعلى قدر الاستجابة تكون الحياة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]:

٢٣٦٢

أنت لا تملك قلبك، فاستعن بمن يملكه كي يثبته على الحق.

في الحديث: «مثل القلب في سرعة قلبه كريشة ملقاه بأرض فلاة، تقلبها الرياح ظهراً لبطن». صحيح الجامع رقم: ٢٣٦٥.

لا تأمن على قلبك أبداً.

٢٣٦٣

سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه، فحل بيني وبين معاصيك أن أعمل بشيء منها.

٢٣٦٤

﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]:

٢٣٦٥

تمثيل لغاية قرب الله من العبد، وتنبيه على أن الله مطلع على مكنونات القلوب التي يغفل عنها صاحبها، ليبادر إلى إخلاص قلبه وتصفيته قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت.

﴿تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾: تصوير لامتلاك الله قلب عبده، وأنه يحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته، وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته.

﴿تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾: إشارة إلى علم الله بعزم المرء ونيته قبل أن ينتقل هذا العزم إلى جوارحه، فشبّه علم الله بذلك بالحائل بين شيئين في تعبير عن شدة الاتصال بالقلب، والمقصود: تحذير المؤمنين من كل خاطر سيئ يؤدي إلى التراخي في الاستجابة لأمر الله ورسوله.

قال ابن عطية: «المراد الحث على المبادرة بالامتثال وعدم إرجاء ذلك إلى وقت آخر، خشية أن تعترض المرء موانع من تنفيذ عزمه على الطاعة».

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]: من لعنة الظلم أنه وباء، يتعدى ضرره الظالم إلى من حوله.

في سنن ابن ماجة: «ما من قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي، هم أعز منهم وأمنع، لا يُغَيَّرُونَ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ». سنن ابن ماجة رقم: ٤٠٠٩.

قال الإمام القسطلاني: «علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده، فكل من لم يكن بهذه الحالة، فهو راضٍ بالمنكر، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار».

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَفَاوَنَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأنفال: ٢٦]:

دوام الحال من المحال، والصغير لا بد له أن يكبر، والضعيف لا بد أن يقوى، والخائف حتماً إلى أمان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْسَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]:

نزلت في أبي لبابة حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، فقالوا له: يا أبا لبابة

ما ترى؟ أنزل على حكم سعد بن معاذ فينا؟ فأشار أبو لبابة إلى حلّقه، أي أن حكم سعد فيكم سيكون الذبح، فلا تنزلوا.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [الأنفال: ٢٧]:

خيانة شخص مؤمنة! فكيف بمن خان الله ورسوله؟! وخيانة الله بترك فرائضه وانتهاك محارمه، وخيانة الرسول بإهمال سننه وتعاليمه.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]:

المال فتنة إذا كان عن الله يشغلكم، والأولاد فتنة إذا كنتم لأجلهم قصرتم في حق الله وفرطتم.

في الحديث: «الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة ومبخله محزنة». صحيح الجامع رقم: ٧١٦٠. أي أن حب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام، وعلى الجبن والبخل والحزن.

قال موسى بن المهدي لإبراهيم بن سالم، وقد عزّاه في وفاة ابنه: أسرّك وهو بليّة وفتنة، وأحزنك وهو صلوات ورحمة؟! يعني بالأول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وبالثاني قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقُومُوا لِلَّهِ لَجَعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]:

على قدر تقواك يرزقك الله البصيرة التي تفرّق بين الحق والباطل.

﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]:

قال القشيري:

«والمكر من الله الجزاء على المكر، ويكون المكر بهم أن يلقي في قلوبهم أنه محسن إليهم ثم - في الحقيقة - يعذبهم، وإذا شغل قومًا بالدنيا صرف همومهم إليها حتى ينسوا أمر الآخرة، وذلك مكر بهم، إذ يوطّنون نفوسهم عليها، فيتيح لهم من مآمنهم سوءًا، ويأخذهم بغتة».

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]:

ما معنى خير الماكرين؟! معناه: لا قيمة لمكرهم إذا قابله مكر الله، أو خير الماكرين لأن الله لا يُنزل إلا الحق، ولا يصيب من مكر به إلا ما يستوجبه.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]:

القائل هو النضر بن الحارث، فإنه كان قد ذهب إلى بلاد فارس، فأحضر منها قصصاً عن ملوكهم، ولما قدم مكة، ووجد رسول الله ﷺ يتلو القرآن قال للمشركين: لو شئت لقلت مثل هذا، وكان النبي ﷺ إذا قام من مجلس، جاء بعده النضر فجلس فيه وحدث بأخبار ملوك الفرس والروم، ثم قال: أينا أحسن قصصاً؟ أنا أو محمد؟

﴿وَإِذْ قَالُوا االلَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]:

من الطرائف أن معاوية رضي الله عنه قال يوماً لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملّكوا عليهم امرأة!

قال: أجهل من قومي قومك!

قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: إن كان هذا هو الحق من عندك، فامطر علينا حجارة، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له.

قد أجيب دعاؤهم! قال عطاء: «قائل ذلك النضر بن الحارث، ولقد أنزل في النضر بضع عشرة آية، فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر».

﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ مُّعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]:

شعورك بالأمان من العذاب وأنت مع رسول الله ﷺ هو نفس شعورك بالأمان مع الاستغفار.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]:

وجود بدن النبي ﷺ فيهم دفع عنهم العذاب وهم أعداؤه، فكيف بوجود الإيمان به ومحبته في قلب عبد؟ أليس دفعه للعذاب أولى؟!

سئل الحسين بن الفضل عن المثل: (كرامة عين تكرم ألف عين).. هل يوجد في كتاب الله تعالى؟! فقال: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]:

قال الحسن: لا أظن أن الله يعذب رجلاً استغفر، فقل: لماذا؟ قال: كيف يلهمه الاستغفار ويريد به أذى!

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٤]:

ليس عدم نزول العذاب لعدم استحقاقهم للعذاب، بل هم مستحقون له لصدودهم عن الله، وصددهم غيرهم عن سبيل الله، ولا يمنع العذاب عنهم إلا وجود المؤمنين المستغفرين بين أظهرهم.

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]:

ردُّ على من يقولون: نحن ولاية البيت وحماة الحرم، نصدُّ من نشاء، ونُدخل إليه من نشاء، وهم لا يستحقون ولاية الله ولا ولاية المسجد الحرام، إنما يستحقها المتقون الذين يراعون حدود الله ويحفظونها.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]:

قال ابن عاشور: «وإنما نفى العلم عن أكثرهم دون أن يقال: (ولكنهم لا يعلمون)، فافتضى أن منهم من يعلم أنهم ليسوا أولياء المسجد الحرام، وهم من أيقنوا بصدق الرسول ﷺ، واستفاقوا من غفلتهم القديمة، ولكن حملهم على مساندة الصادين عن المسجد الحرام: العناد وطلب الرئاسة، وموافقة الدهماء على ضلالهم، وهؤلاء هم

عقلاء أهل مكة ومن تهيأ للإيمان منهم، مثل: العباس، وعقيل بن أبي طالب، وأبي سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وخالد بن الوليد، ومن استبقاهم الله للإسلام، فكانوا من نصرائه من بعد نزول هذه الآية».

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]:

المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، وهل هذه صلاة؟! هذا أقرب إلى اللعب منه إلى الصلاة، ويخدش قدسية البيت ومكانته.

قال ابن عباس: «كانت قريش تطوف بالبيت عراة، يصفقون ويصفرون، فكان ذلك عبادة في ظنهم».

كانت حجتهم في طوافهم عراة أن قالوا: (لا نظوف بشباب عصينا الله فيها)، فانظر إلى الورع البارد! ثياب خلعوها لأنهم عصوا فيها، وقلوبهم ممتلئة بالشرك، وما خطر لهم أن يخلعوا الشرك من القلب، وهذا شأن كل من أخذ من الدين المظهر دون الجوهر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]:

سبب نزولها: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع جيشهم المهزوم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بغيره، مشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم في بدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش.. إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، ففيهم أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قال ابن كثير: وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وعد من الله بإحباط أعمال الكافرين وسعيهم في الدنيا والآخرة.

﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦]:

حسرة بعد حين! ستقع الحسرة لكن على التراخي وليس على الفور؛ لأن (ثم) تفيد الترتيب مع التراخي، فسيتحسرون بعد حين على ما صنعوا لإطفاء نور الله، وذلك بعد أن تظهر النتائج العكسية لتدبيرهم.

قال القاسمي: قال بعضهم: «ثمرة الآية خطر المعاونة على معصية الله تعالى، وأن الإنفاق في ذلك معصية، فيدخل في هذا معاونة الظلمة على حركاتهم في البغي والظلم، وكذلك بيع السلاح والكرع، ممن يستعين بذلك على حرب المسلمين».

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]:

غرض الشدائد التنقية، كالحديد يوضع في النار لتستخرج منه الخبث، فيخرج نقيًا صافيًا، وإن الأحداث العادية لا تكشف معادن النفوس، فإذا نزلت الشدة أزال القشرة الخارجية، فظهرت كل نفس على حقيقتها.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]:

هذا لطفه بالكافرين، فما لطفه بالمؤمنين؟! آية من أعظم آيات الرجاء.

قال عبد القاهر بن طاهر التميمي:

يا من عدا ثم اعتدى ثم اقترف
ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته
إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

﴿وَقَبِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [الأنفال: ٣٩]:

أي قتال المسلم هدفه ألا يقع شرك أو إضلال يفتن المؤمنين عن دينهم، وقد أثبت التاريخ أن الجهاد شرعه الله لرفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون دينه وشريعته.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الأنفال: ٤٠]:

إن سألت: من للمسلمين يتولى أمرهم؟ وقد تحلى عنهم القريب والبعيد، وتكالب عليهم من كل حذب وصوب كل عدو شديد؟! جاءك الجواب الرباني: الله مولى المؤمنين ﴿نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾.

الجزء العاشر

سورة الأنفال من الآية ٤١
إلى سورة التوبة الآية ٩٢
عدد الفوائد: ٢٨١

قال الحافظ العابد زبيد بن الحارث

اليامي الكوفي:

«سمعتُ كلمة،

فنفعني الله بها ثلاثين سنة».

سير أعلام النبلاء ٥-٢٩٧

اللهم اجعل كلمات هذا الكتاب من هذه الكلمات.

الجزء العاشر

سورة الأنفال من الآية ٤١ إلى سورة التوبة الآية ٩٢

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١]:

﴿مِّن شَيْءٍ﴾: قُصِدَ به الاعتناء بشأن تقسيم الغنيمة، واستشعار مراقبة الله كي لا يشذ عنها شيء، أي كل ما غنمتموه -كائنًا ما كان- يقع عليه اسم الغنيمة، حتى الخيط والمخيطة.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ

السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]:

ما أكرم الله! قَسَمَ الله الغنائم خمسة أقسام، فعَيَّن أربعة أخماس الغنيمة للجيش المقاتل، وجعل خُمُسَهَا لهؤلاء الخمسة.

روى البيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال: «أتيت النبي ﷺ، وهو بوادي القرى، وهو معترضُ فرسًا، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة، فقال: لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش، قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: لا، ولا السهم تستخرجه من جيبيك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

من لطائف الحسن أنه أوصى بالخمسة من ماله قائلًا: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه؟!

﴿إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤١]:

تحتاج لأن تراجع إيمانك إذا اعترضت على حكم ثابت من أحكام الله، فإن الاعتراض على أمر الله يقدر في إيمانك.

٢٤١

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: ٤٢]:

قال الزمخشري:

«فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت، وذكر مراكز الفريقين، وأن العير كانت أسفل منهم؟

قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة الشأن للعدو، وتكامل عدته، وتمهد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين، والنتائج أمرهم، وأن غلبتهم في هذه الحال ليس إلا صنعا من الله سبحانه، ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته.

وذلك أن العدو القصوى التي أناخ بها المشركون، كان فيها الماء، وكانت أرضا لا بأس بها، ولا ماء بالعدو الدنيا، وهي خبار - أي أرض لينة رخوة - تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة.

وكانت العير وراء ظهور العدو، مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم، وتشجذ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم، ليعتصموا بالذبح عن الحريم على بذل جهودهم في القتال.

وفيه تصوير ما دبّر - سبحانه - من أمر غزوة بدر، ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين بمهمة غير مبينة حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وأقلق قريشا ما بلغهم من تعرض المسلمين لأموالهم، فنفروا ليمنعوا عيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدو الدنيا وهؤلاء بالعدو القصوى، ووراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب في ساق، وكان ما كان».

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: ٤٢]:

لو اتفق المؤمنون مع الكافرين على موعد ومكان، لجاء بعضهم متأخراً عن الموعد أو منحرفاً عن المكان، لكن الله هو الذي حدد موعد المعركة ومكانها بدقة تامة، فتم اللقاء في الموعد والمكان المحددين ليجري قدر الله. لم يتواعدوا فغنموا، وهكذا فضل الله دوماً.. يأتي من غير ميعاد.

﴿وَلَكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]:

عبر عن إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله بلفظ (كان)؛ لتحقيقه حتى كأنه مضى، والدرس: أمر الله نافذ، لكن كل شيء بقدر! ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]:

إذا أراد أمراً هياً أسبابه! قلل الكفار في أعين المسلمين ليزدادوا جسارة، وقلل المسلمين في أعين الكفار ليزدادوا إقبالا على مصرعهم والخسارة.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]:

قال القشيري: «إذا أراد الله نصره عبد فلو كاد له جميع البشر، وأراده الكافة بكل ضرر، لا ينفع من شاء مضرته كد، ويحصل بينه وبين متاح لطفه به سد. وإذا أراد بعد سوءاً فليس له رد، ولا ينفعه كد، ولا ينعشه بعد ما سقط في حكمه جهد».

من بديع صنع الله تعالى إذ جعل للشيء الواحد أثرين مختلفين، فكان تخيل المسلمين قلة المشركين مقويًا لعزمهم، ومزيلاً للخوف من قلوبهم. وكان تخيل المشركين قلة المسلمين، موهناً لعزمهم، وأغراهم أنهم سيتغلبون على المسلمين بأدنى قتال، فصرفهم ذلك عن التأهب للقتال.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]:

ما الغرض من تقليل المؤمنين في أعين الكافرين؟ قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثّرهم فيما بعده، ليجترؤا عليهم، ثم تفجؤهم الكثرة، فيبهتوا وتنكسر شوكتهم، حين يرون ما لم يكن في حسابهم.

﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤]:

قاعدة! كل أمور الدنيا غير مقصودة لذاتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زادًا في الآخرة.

﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]:

من أعظم أسباب الثبات في الأزمات كثرة ذكر الله.

إذا كنت مأمورًا بالذكر الكثير في أشد الأحوال، فكيف ترى تفريطك في الذكر عند أيسر الأحوال!

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]:

ما أجمل قول الإمام ابن عجيبة: «ذكر اللسان نتائجه: الأجور، وذكر القلوب نتائجه: الحضور».

﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ ما تنازع قوم إلا وحلّ بهم الفشل واستخف بهم الجميع ﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ فتفشلوا وتذهب ربحكم [الأنفال: ٤٦].

﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]:

وأي بيان لفائدة الصبر أبلغ وأعظم من إثبات معية الله للصابرين؟!

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]:

في الآية تكريه شديد للمسلمين في البطر والرياء؛ لأن الأحوال المذمومة تزداد قبحًا، ويزداد الناس منها نفورًا إذا كانت من أحوال قوم مذمومين، وهم هنا الكافرون الذين خرجوا لبدر بطرًا ورئاء الناس.

ما البطر؟!

٢٤٢٥

إذا كثرت نعم الله على العبد فصرفها إلى مرضاته، فهذا هو الشكر، وإن استعملها في المفاخرة على الأقران، والمكاثرة على أهل الزمان، فهذا هو البطر.

٢٤٢٦

لا تشبهوا بأبي جهل! خرج أبو جهل بجيشه من مكة لحماية القافلة، فلما بلغوا الجحفة جاءهم رسول أبي سفيان يخبرهم أن العير قد سلمت، فقال أبو جهل: «لا نرجع حتى نقدم بدرًا نشرب بها الخمر، وتعزف علينا القيان، ونطعم من حضرنا من العرب، حتى يتسامع العرب بأننا غلبنا محمدًا وأصحابه».

٢٤٢٧

عاقبة الكبر مهلكة!

وردوا بدرًا كما أرادوا، لكن شربوا بها كؤوس المنايا مكان شرب الخمر، وناحت عليهم النوائح بدل عزف القيان، وهذه عاقبة كل جبار.

٢٤٢٨

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]:

رُوي أن الشيطان تمثل لهم يومئذ في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، وهو من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ لأنهم قتلوا رجلا منهم، فلما تمثل لهم قال ما أخبر الله به عنه: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾.

٢٤٢٩

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]:

دائمًا يتعجب المنافقون من ثقة المؤمنين بالله وحسن ظنهم بربهم، وتفاؤلهم مع قلة عددهم وعتادهم.

٢٤٣٠

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرُبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]:

قال ابن عباس: «كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا

وجوههم بالسيف، وإذا ولوا ضربوا أدبارهم، فلا جرم أن قابلهم الله بمثله في وقت نزع الروح».

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١]:

نفي الظلم كناية عن عدل الله المطلق، وأن العذاب الأليم مكافئ للذنب المجازي عنه بلا إفراط ولا تفريط، فلا يظلم الله مقدار ذرة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١]:

إشارة بالمعنى إلى اسم الله المؤمن. قال ابن عباس: «المؤمن أي آمن خلقه من أن يظلمهم».

﴿كَذَابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنَ^١ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ^٢ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٥٢]:

طريق الضلال له قادة سابقون، والضالون يقتفون أثرهم وهم لا يشعرون، ومن لم يعتبر بما شاهد من مصارع السابقين، اعتبر بما سيقع فيه بعد حين.

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٢]:

الذنب قد يكون سبب تعجيل العقوبة بالإهلاك، وقد تتأخر عقوبته إلى الآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا

بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]:

كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

قال ابن القيم: «فما حُفِظَت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها

الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه».

﴿كَذَابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنَ^١ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ^٢﴾ [الأنفال: ٥٤]:

كرّر التذكير بقوم فرعون مرتين تأكيداً وتهديداً: كم من فرعون علا في الآخرين، فأخذه الله كما أخذ فرعون في الأولين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]:

عدم الإيمان يهوي بصاحبه إلى مرتبة شر من الدواب!

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا

يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦]:

جمعوا ثلاث خصال: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، فلا يثبتون على عهد عاهدوه، وهؤلاء عند الله شر من الحمير والكلاب؛ لأن الخير فيهم معدوم، والشر منهم متوقع.

﴿فَإِذَا تَفَقَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧]:

حق هؤلاء واجب، لئلا يسري داؤهم إلى غيرهم.

﴿وَأِمَّا مَخَافٌ مِّنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْخَائِبِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]:

مجرد الخوف من الخيانة مبرر كافٍ لنبد عهودهم والتحلل منها.

المؤمن كيس فطن! قال الطاهر بن عاشور:

«شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ومخائيل الأحوال، ولا يُنتظر تحقق وقوع الأمر المظنون؛ لأنه إذا تريت ولاة الأمور في ذلك يكونون قد عرّضوا الأمة للخطر، أو للتورط في غفلة وضياح مصلحة، ولا تُدار سياسة الأمة بما يُدار به القضاء في الحقوق؛ لأن الحقوق إذا فاتت كانت بليتها على واحد، وأمكن تدارك فائتها، ومصالح الأمة إذا فاتت تمكّن منها عدوّها؛ فلذلك علّق نبذ العهد بتوقع خيانة المعاهدين من الأعداء».

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩]:

لا يحسب الذين كفروا أنهم أفلتوا من عقاب الله، فإنهم لا يُعْجِزونه، والله لهم بالمرصاد، لكن الله حكمة بالغة في عدم معاجلتهم بالعقوبة، ومن جملتها: ابتلاء المؤمنين وامتحانهم، وتزود المؤمنين من طاعة يبلغون به المنازل العالية.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]:

سيجبر الله كسرهم أيها المؤمنون مهما تكن قوتكم، ما دمتم قد بذلتهم (ما استطعتم).

تتناول الآية كل قوة علمية، وبدنية، ومهنية، وسياسية، وإدارية، وتشمل كل مسلم مهما يكن تخصصه.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]:

الإسلام دين سلام، لكن عن قدرة وعِزَّة، لا عن ضَعْفٍ وذِلَّة، وفيها إشارة إلى أن الحرب لا تُقصد لذاتها، بل هي ضرورة.

﴿هُوَ الَّذِي أَبْدَلَ بِنَصْرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]:

أول شروط النصر الألفة بين المؤمنين، لا التنازع بينهم وتراشق الاتهامات.

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]:

محبة القلوب لا تشتريها كل كنوز الأرض.

﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤]:

كل هذا العالم لن يكفيننا ما أهمنا وأغمنا، كفاية الله وحدها تشعرنا بالاكتماء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]:

تحريض نبوي! أطاع النبي ﷺ أمر ربه، فحرَّض أصحابه يوم بدر على قتال المشركين، ومن ذلك أنه قال: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، فقال عمير بن الحمام: بخ بخ، فقال ﷺ: «ما يملكك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها.

قال ﷺ: «فإنك من أهلها»، فتقدم عمير فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات كان يأكلهن، فألقى بقيتتهن من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن، إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قُتل.

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥]:

الصبر يصنع المعجزات! عشرون مع صبر يغلبون مائتين بلا صبر.

﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ^٤ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا

أَلْفًا﴾ [الأنفال: ٦٥]:

ألم يكن ذكر كفاية العشرين لمائتين مغنياً عن ذكر كفاية المائة للألف؟
الجواب: التكرار هنا للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحد لا يتغير،
وقيل في سر ذلك: إنه بشارة للمسلمين بأن جند الإسلام سيجاوز عددهم
العشرات، والمئات إلى الألوف.

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦]:

المشقة تجلب التيسير، وبقدر ما فيك من الضعف، يرسل الله إليك التخفيف.

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُدَ أُسْرَى حَتَّى يُنْخَبِرَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]:

جعل الإسلام للحاكم الخيار في التعامل مع الأسير، بالفداء أو المن وإطلاق
السراح، أو القتل بحسب المصلحة، وتشير الآية إلى أن الأولى عند ضعف
المؤمنين وعلو الكافرين قتل الأسرى، كسر الشوكة أهل العناد.

كان رأي عمر رضي الله عنه قتل الأسرى، بخلاف رأي النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، وقد

دخل عمر على رسول الله ﷺ وأبي بكر يبيكان، فقال: من أي شيء تبكى أنت
وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال
النبي ﷺ: «لقد عُرِضَ عَلَيَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة
منه»، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُدَ أُسْرَى حَتَّى

يُنْخَبِرَ فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]:

الذين أرادوا عَرَضَ الدنيا هم من أشاروا بالفداء، وليس رسول الله ﷺ، وقد
جاءه جبريل يبلغه أن يخير أصحابه.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧]:

حقيقة الدنيا! سمى الله نعيم الدنيا ومتاعها عَرَضًا؛ لأنَّه لا ثبات له ولا دوام، فكأنَّه يَعْرِضُ لصاحبه ثمَّ يزول عنه.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨]:

الكتاب هو ما سبق من حكم الله بإحلال الغنائم، وهذا مما ميَّزت به هذه الأمة على غيرها من الأمم: «وَأُحِلَّت لِي الْغَنَائِمُ، ولم تحل لأحد قبلي».

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]:

فيه دليل على أن الله لا يعذب قومًا حتى يبين لهم ما يتقون، أي ما تقوم به عليهم الحجة.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩]:

قال الآلوسي: روي أنه لما نزلت الآية الأولى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾، كفَّ الصحابة أيديهم عما أخذوا من الفداء، فنزلت هذه الآية.

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠]:

الخير مغناطيس في القلب يجذب إليه كل ألوان الخير!

تأكد أن ما فاتك أو أصابك سيعوّضك الله عنه وزيادة، ما دام الخير يملأ قلبك.

رزق العبد على قدر نيته.

إن فاتك شيء وحزنت عليه، فتدبّر هذه الآية، وتفاعل بها.

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠]:

تفقد قلبك لتعلم من أين جاء الحرمان؟!

مصدر الخير القلب، فلو استطعنا أن نغرس فيه الخير لانهمرت علينا الخيرات من رب الأرض والسموات.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنفال: ٧١]:

من ضَيَّعَ حقَّ الله، فهو لغيره أَضَيَّعَ!

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]:

مَنْ خان ربه ودينه وأُمَّته سَيُمْكِنُ الله من رقبته ولو بعد حين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]:

﴿ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: المهاجرون.

﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾: الأنصار.

والآية تشير إلى التآخي بين المهاجرين والأنصار.

﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]:

المراد بالولاية على قولين:

الأول: الميراث، فقد كان المهاجر يرثه أخوه الأنصاري، إذا لم يكن له بالمدينة

ولي مهاجري وبالعكس، واستمر الأمر على ذلك حتى نزل قول الله تعالى:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

الثاني: المراد بالولاية هنا النصرة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ

يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]:

التأخر عن الهجرة والتضحية يهوي بمنزلة العبد درجة، ويسلبه حق النصرة

المطلقة، فلا تجب نصرة المتأخر عن الهجرة إلا على قوم ليس بينهم وبين

المسلمين ميثاق.

قال الجمل:

«أثبت الله تعالى للقسمين الأولين النصرة والإرث، ونفى عن هذا القسم

الإرث وأثبت له النصرة».

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]:

من أسباب الفتن عدم نصره المظلوم؛ ولذا أمر الله بنصره وموالاته.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]:

في الآية نهي شديد عن موالاته الكافرين، فلا يتولاهم إلا من كان منهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ

وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]:

اصطفاف الكافرين ينبغي أن يقابله اصطفاف المؤمنين، ووحدة أعداء الدين تفرض اليوم وحدة المسلمين.

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]:

ضعف شأنكم، وذهاب ريحكم، وسفك دمائكم، وتطاول أعدائكم، وهو الثمرة المرة لتفرق إخوان العقيدة اليوم، واتحاد أعدائهم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤]:

المؤمن الحق أفعاله تتحدث عنه قبل أقواله.

المؤمن الحق مختبر دوماً، ولو لم يكن مؤمناً حق الإيمان لما تحمل فراق الأهل والأوطان، ولا بذل النفس والأموال.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]:

قال الفخر الرازي:

«والحاصل أنه - سبحانه - شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد وصفهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، وأما في الآخرة فالمقصود

إما دفع العقاب، وإما جلب الثواب؛ أما دفع العقاب فهو المراد بقوله: ﴿هُمْ

مَغْفِرَةٌ﴾، وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾».

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾

٢٤٨٠

[الأنفال: ٧٥]

المراد بهم من هاجروا بعد الهجرة الأولى، فأولئك منكم أيها المهاجرون والأنصار، وتأخر ذكرهم لتأخر قدرهم، إشارة لفضل السابقين إلى الهجرة على اللاحقين.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]:

٢٤٨١

قال الآلوسي: «عن ابن عباس قال: أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية، فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب».

استدل بهذه الآية من قال: إنَّ القريب أَوْلَىٰ بالصَّلاة على الميِّت من غيره.

٢٤٨٢



سورة التوبة

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١]:

براءة سورة بلا بسملة: عبّر بقوة عن براءتك من الكفر وأهله دون مجاملات على حساب العقيدة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: ٢]:

أعلم الله الكافر أنه لا يُعجزه، فكيف غاب هذا عن مؤمن يؤمن بالله؟!

﴿فَإِنْ تُبْتِغُوا فَهَوْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٣]:

كل بوابات الخير تنفتح مع التوبة.

﴿وَدَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣]:

أصل البشارة في الخير، ولكن ذُكرت هنا من باب التهكم، أي أبشروا بما ينتظركم من العذاب الأليم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا

عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]:

حرّم الإسلام الخيانة، وأمر بالوفاء ولو مع الأعداء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]:

ليست التقوى بأداء حق الله فحسب، بل وبأداء حقوق العباد.

قال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، ثم قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا... فَخَلُّوا

سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]: باب عظيم مهجور من أبواب الإيمان. في الحديث: «أوثق

عري الإيمان: الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله عز

وجل». صحيح الجامع رقم: ٢٥٣٩.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥]:

ترصد أعداء الدين من أهم سمات المؤمنين.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٧]:

كيف يكون للناقضين للعهود مراراً، عهدٌ يُحترم؟ أي لا تعاملوا إلا من عاهدتم عند المسجد الحرام (مثل بني كنانة وبني ضمرة)؛ لأنهم لم ينقضوا ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ يوم الحديبية.

مع أن هؤلاء الكفار لا عهد لهم، لكن الله لم يطالب المؤمنين أن يعاملوا المشركين بالمثل ما داموا يحافظون على عهودهم، وجعل ذلك من لوزام التقوى.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨]:

تعلموا من دروس الماضي، لتأمنوا من غدر الأعداء بالحاضر.

﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨]:

الكريم إذا ظفر غفر، واللئيم إذا قدر غدر.

﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨]:

قال ابن جرير: «والإل: اسم يشتمل على معانٍ ثلاثة: وهي العهد والعقد، والحلف، والقراة».

﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨]:

وفي الحديث: «وتجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه». صحيح الجامع رقم: ٢٩١٦.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨]:

آمن بها الصحابة غيباً، وعرفناها اليوم في مذابح المسلمين شهادة.. صدق الله.. صدق الله.. صدق الله.

وصدق القائل:

ملكنّا فكان العفو منا سجيّة فلما ملكتم سال بالدم أبطح

﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٨]:

بعض الكلمات تنزع فتيل القنبلة وتعني انتهاء المعركة.

﴿أَشْتَرُوا بِغَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِمْ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩]:

ليس أسوأ من أن يؤثر أحد العاجل الخسيس في الدنيا على الباقي النفيس في الآخرة.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ

الْأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١]:

كلمة واحدة تقلب أشد العداوات إلى محبات، وتحول ضراوة القتال إلى مودات: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢]:

الطعن في الدين يوصل صاحبه إلى إمامة الكفر، فليحذر الطاعنون في الدين اليوم!

إعلان حرب!

قال ابن تيمية: «دلّ على أَنَّ عَهْدَ الْمُشْرِكِ يَنْتَقِضُ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ حَتَّى لَوْ كَانَ مُسْتَقِيمًا فِيهِ بَدُونِ نَكْثٍ؛ فَإِنَّ مُجَاهَرَّتَنَا بِالشَّتِيمَةِ، وَالْوَقِيعَةَ فِي رَبَّنَا وَنَبِيِّنَا وَكِتَابِنَا وَدِينِنَا، يَقْدَحُ فِي الْإِسْتِقَامَةِ».

﴿أَتَخَشَّوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَهَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة: ١٣]:

تتصارع في كل قلب قوتان، كلما عظمت خشية الخالق قلّت خشية المخلوق، والعكس صحيح.

قال سفيان الثوري لأصحابه يوماً: «لو كان معكم من يرفع الحديث إلى

السلطان، أكنتم تتكلمون بشيء؟ قالوا: لا، قال: فإن معكم من يرفع الحديث

إلى الله! ﴿أَتَخَشَّوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَهَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة: ١٣].

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]:

خشيتك لله على قدر إيمانك.

﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]:

ما أنتم إلا سبب من الأسباب، والله رب الأسباب، وقد بين في الآية أنه هو المعذب؛ وأن أيدينا مجرد سبب لتوصيل عذابه إلى هؤلاء، ولو شاء لعذبهم بغيرنا.

﴿وَنَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]:

وشفاء صدور قوم مؤمنين يستلزم شفاء صدور كل المؤمنين؛ لأن المؤمنين جسد واحد، ويستلزم كذلك غيظ صدور أعداء الدين.

المراد بالقوم المؤمنين هنا خزاعة؛ حيث تمالأ عليهم الكفار وقتلوه في الحرم، فاستنجدوا بالنبي ﷺ، فكان ذلك سبب فتح مكة.

غيظ القلوب مرض دفين يفتك بالقلب والجسد، وسبب غيظ المؤمنين هو بغي الكفار وقتلهم المسلمين، وشفاء هذا الغيظ لا يكون إلا بالتمكن من الأعداء، فيشرح الصدر، ويزول ما فيه من غضب.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٥]:

املاً قلبك اليوم غيظاً على الطغاة والمجرمين، فيوماً ما سيتحقق وعد الله لعباده: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٥].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]:

الجنة أغلى مما تظن!

تريدون إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ

بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]:

قال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والوليجة هي

بطانة من المشركين يتخذها المسلمون ويفشون إليهم أسرارهم، وانظروا حولكم.. مَنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَرْكَبُ الْيَوْمَ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ؟!

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾ [التوبة: ١٦]:

تحكيم غير الشريعة جريمة! قال ابن القيم: «ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام الله وكلام رسوله وكلام سائر الأمة، يُقدِّمُه على ذلك كله، ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله، فما وافقه منها قبله؛ لموافقته لقوله، وما خالفه منها تلطّف في رده، وتطلّب له وجوه الحيل، فإن لم تكن هذه وليجة، فلا ندري ما الوليجة؟!».

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧]:

ليس بعد الكفر ذنب، وليس مع الكفر حسنة!

سبب نزول الآية: أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر، ومنهم العباس ابن عبد المطلب، فجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة - أي نخدمها -، ونسقي الحجيج، ونفك العاني (الأسير)، فنزلت هذه الآية.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]:

ضعف البعض إسناد حديث: «إذا رأيت الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»، لكن معناه صحيح، وتشهد له هذه الآية.

﴿وَلَمْ تَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]:

ليس المراد بقصر الخشية هنا على الله أنهم لا يخافون شيئاً غير الله، فإنهم قد يخافون الأسد ويخافون العدو، ولكن المعنى: إذا تردد الحال بين خشية الله وخشية غيره قدّموا خشية الله، فالقصر هنا عند تعارض خشيتين.

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَنَّهُدْ﴾ [التوبة: ١٩]:

مهما بلغ عملك الخيري والتطوعي، فلن يجاري أبداً الإيمان بالله والجهاد في سبيله.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ
دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]:

من كان موصوفاً بهذه الصفات الأربعة، كان أعظم درجة عند الله ممن اتصف بخدمة الكعبة والبيت الحرام، وهي: الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله بالمال، والجهاد بالنفس.

قال الرازي:

«الموصوفون بهذه الصفات الأربع في غاية الجلالة والرفعة؛ لأن الإنسان ليس له إلا مجموع أمور ثلاثة: الروح، والبدن، والمال. أما الروح، فلما زال عنه الكفر وحصل فيه الإيمان، فقد وصلت إلى مراتب السعادات الثلاثة بها.

وأما البدن والمال، فبسبب الهجرة وقعا في النقصان، وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا معرضين للهلاك والبطلان، والإنسان لا يعرض عن محبوه إلا للفوز بمحبوب أكمل من الأول، فلولا أن طلب الرضوان أتم عندهم من النفس والمال، وإلا لما رجحوا جانب الآخرة على جانب النفس والمال. ولما رضوا بإهدار النفس والمال لطلب مرضاة الله تعالى، فثبت أن عند حصول الصفات الأربع صار الإنسان واصلاً إلى آخر درجات البشرية، وأول مراتب درجات الملائكة».

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ هُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]:

ثلاثة في مقابل ثلاثة!

قال الألوسي: «ذكر أبو حيان أنه - تعالى - لما وصف المؤمنين بثلاث صفات:

الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث: الرحمة، والرضوان، والجنة».

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٢]:

قال ﷺ: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا». صحيح الجامع رقم: ٨١٦٤.

﴿لَا تَتَّخِذُواْ ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾

[التوبة: ٢٣]:

قال القرطبي: «وخص - سبحانه - الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها، فنفى الموالاة بينهم، ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان».

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]:

قال ابن عباس: «يريد: مشركًا مثلهم لأنه رضي بشركهم، والرضا بالكفر كفر، كما أن الرضا بالفسق فسق».

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ آلَهِ وَرُسُلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْتَضُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ؕ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]:

أفاد التعبير بكلمة ﴿أَحَبَّ﴾ التنافس بين المحبتين مما يقتضي إرضاء أعظم المحبوبين، وفيه تحذير من التهاون في واجبات الدين، وتنبية على ما يؤول إليه في النهاية، وهو الفسق، وفيه تهديد مباشر.

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ [التوبة: ٢٤]:

خصّ الأموال المكتسبة بالذكر؛ لأنها أحب إلى أهلها، وصاحبها أشد حِرصًا عليها ممّن تأتيه الأموال بغير تعبٍ ولا كدٍّ من ميراث وغيره.

﴿فَتَرْتَضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]:

تهديد نبوي! في الحديث: «مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا، أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بَخِيرٍ؛ أَصَابَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». صحيح أبي داود رقم: ٢٥٠٣.

﴿فَتَرْتَضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]:

ما حكم محبة الله؟ والجواب: واجبة. قال ابن رجب: «دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مُحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فَرَضٌ عَلَى الْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ تَوَعَّدَ مَنْ قَدَّمَ مُحَبَّةَ غَيْرِهِ عَلَى مُحَبَّتِهِ وَمُحَبَّةَ رَسُولِهِ، وَالْوَعِيدُ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى فَرَضٍ لَازِمٍ، وَحَتْمٍ وَاجِبٍ».

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]:

تهديد بأن كل من أثر غير الله على الله قد تحقق فسقه.

قال النسفي:

«وَالْآيَةُ تَنْعِي عَلَى النَّاسِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَخَاوَةِ عَقْدِ الدِّينِ وَاضْطِرَابِ حَبْلِ الْيَقِينِ؛ إِذْ لَا تَجِدُ عِنْدَ أَوْرَعَ النَّاسِ مَا يَسْتَحِبُّ لَهُ دِينُهُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُظُوظِ».

قال الإمام البيضاوي منبهاً على خطورة هذه الآية: «وَفِي الْآيَةِ تَشْدِيدٌ عَظِيمٌ، وَقَلٌّ مِنْ يَتَخَلَّصُ مِنْهُ».

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۖ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۖ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]:

هذا نصُّ قانون التولي والتخلي! إذا قلت يا رب تولاك، وإذا قلت: أنا أنا.. تخلى عنك!

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۖ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]:

أغلق شبابيك قلبك كي لا يتسلل إليه العُجب بهال أو علم أو سلطان، فكل ذلك لن يغني عنك بين يدي الله شيئاً!

نصرة الله للعبد موقوفة على عدم رؤية العبد لنفسه، فالمنصور من عصمه الله

عن توهم قدرته، ولم يكله إلى تدبيره وسطوته، وأقامه مقام الافتقار إليه متبرئاً من حوله وقوته، فيأخذ الله بيده، ويخرجه عن تدبيره، ويوقفه على حسن تدبيره.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]:

عون الله للمؤمنين يكفي مع القلة، والعجب يلغي أثر الكثرة.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]:

شيئاً!! إن أصغر شيء في هذا الكون لا ينجح في إنجاز شيء دون إرادة الحق سبحانه.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]:

قال الحسن البصري:

«هكذا يقع ذنب المؤمن من قلبه»، فقيّم إيمانك بحسب نظرتك لذنبك!

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]:

السكينة من أعظم القوات الذي يُنعم به (المقيت) على قلوب المؤمنين، وهو كفيل بترجيح كفتك في كل معارك الحياة.

من علامات المؤمن: السكينة عند البلاء.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]:

هناك رحمت خفية ومعونات غير مرئية تتدفق عليك من الله دون أن تشعر، فقط إن تخلّيت عن حولك وقوتك إلى حوله وقوته.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧]:

التوبة محض توفيق إلهي، ولولا أن الله أذن بها ما وقعت.

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]:

النهي وإن كان موجهاً للمشركين، إلا أن المقصود منه نهي المؤمنين عن تمكينهم من ذلك.

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]:

ارتبط وصفهم بالنجاسة بصفة الإشراك، فعلمنا أنها نجاسة معنوية نفسانية، وليست نجاسة ذاتية مادية.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]:

العام الذي حصل فيه النداء بالبراءة من المشركين وعدم طوافهم بالمسجد الحرام، وهو العام التاسع من الهجرة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨]:

كيف نخاف فقرا، وقد وعدنا أكرم الأكرمين بالغنى!

غناك وفقرك بيد الله وحده، فكيف تُذل نفسك لغير الله؟!

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾

[التوبة: ٢٩]:

قال الجمل: «فإن قلت: اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، فكيف نفى الله عنهم ذلك؟

والجواب: قلت:

إن إيمانهم بهما باطل لا يفيد، بدليل أنهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ، فلما لم يؤمنوا به كان إيمانهم بالله واليوم الآخر كالعدم، فصح نفيه في الآية.

ولأن إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين، وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون الحلول، ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك».

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]:

قال أهل المعاني:

«إن الله سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً».

﴿يُضْهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠]:

تشابه القلوب يؤدي إلى تشابه الأقوال، فاليهود والنصارى بادعائهم لله الولد يشابهون قول المشركين حين قالوا: الملائكة بنات الله.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]:

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «أليسوا يجرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرّمه فتحلّونه»؟ قلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم إياهم.

العبادة هي اتباع الشرائع بنص القرآن وتفسير النبي ﷺ، ومثل ذلك تسمية أتباع الشيطان الذين يطيعونه: عباده: ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]:

تصور سخيف أن يظنوا أن أفواههم التي تنفخ كافية لإطفاء أعظم نور، ذهبت أنفاسهم، وما زاد النور إلا توهجاً.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]:

قال الخطيب الإدريسي: «إن الإسلام إذا حاربوه اشتدّ، وإذا تركوه امتدّ، والله بالمرصاد لمن يصدّ، وهو غني عما ارتدّ، وبأسه عن المجرمين لا يردّ، وإن كان العدو قد أعدّ، فإن الله لا يعجزه أحد، فجدد الإيمان جدّد، ووحد الله وحد، وسدّد الصفوف سدّد».

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]:

ليس معنى الآية أن يصير الناس جميعاً مسلمين، لكن يظل كلُّ على دينه أو كفره، ولا يجدون حلاً لمشاكلهم إلا في الإسلام.

﴿إِنْ كَثِيرًا مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤]:

قال الله (كثيراً)، فالتعميم خطأ، والدقة مطلوبة، فكن دقيقاً في اختيار كلماتك وعباراتك.

﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ آلَ الْهَبِ وَالْفِصَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤]:

قال العلماء: كل مال -مهما كثر- تؤدى زكاته ليس بكنز، وأي مال -مهما صغر- لا تؤدى زكاته فهو كنز.

﴿يَوْمَ تَحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]:

اشتركت الجوارح الثلاث في منع حق الله عن الفقير، فكان لا بد لها من عقاب. قال الزركشي: «قَدَّمَ الْجِبَاهَ ثُمَّ الْجَنُوبَ؛ لِأَنَّ مَانِعَ الصَّدَقَةِ فِي الدُّنْيَا كَانَ يَصْرِفُ وَجْهَهُ أَوَّلًا عَنِ السَّائِلِ، ثُمَّ يَنْوِي بِجَانِبِهِ، ثُمَّ يَتَوَلَّى بِظَهْرِهِ».

قال الآلوسي: «خُصَّتْ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ غَرَضَ الْكَانِزِينَ مِنَ الْكَنْزِ وَالْجَمْعِ أَنْ يَكُونُوا عِنْدَ النَّاسِ ذَوِي وَجَاهَةٍ وَرِيَاسَةٍ بِسَبَبِ الْغِنَى، وَأَنْ يَتَنَعَّمُوا بِالْمَطَاعِمِ الشَّهِيَةِ وَالْمَلَابِسِ الْبِهِيَةِ، فَلَوْ جَاهَتَهُمْ كَانَ الْكِي بِجِبَاهِهِمْ، وَلَا مَتَلَاءَ جَنُوبِهِمْ بِالطَّعَامِ كَوُوا عَلَيْهَا، وَلَمَا لَبَسُوهُ عَلَى ظُهُورِهِمْ كُوِيَ».

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [التوبة: ٣٥]:

ما كنزتموه ليكون سبب لذاتكم، كان سبب تعذيبكم.

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]:

ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، وقد سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِعَظَمِ حَرَمَتِهَا وَحَرَمَةِ الذَّنْبِ فِيهَا.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]:

أعظم الظلم ظلم النفس، ويقع بمعصية الله وترك طاعته.

قال قتادة: «إِنَّ الظَّلْمَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ أَعْظَمُ خَطِيئَةٍ وَوَزْرًا مِنَ الظَّلْمِ فِيهَا سِوَاهُ، وَإِنْ كَانَ الظَّلْمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَظِيمًا، وَكَأَنَّ اللَّهَ يُعْظِمُ مِنْ أَمْرِهِ مَا شَاءَ».

ظلمكم لأنفسكم هو إضرار منكم بأنفسكم، ولن تضروا الله شيئاً، فكل ما أمر الله به تحريماً وتحليلاً هو لصالحكم، وكل عصيان له يضركم.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]

قال القشيري: «ولا سلاح أمضى على العدو من تبرّيك (تبرئك) عن حولك وقوّتك».

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٧]

استعمال الحيلة لفعل شيء محرم أو الفرار من واجب هو تلاعب بالدين، مثل تلاعب المشركين بتأخير الأشهر الحرم ليقترفوا الحرام.

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]

لا يُضعِف القلب ويكبّله عن بلوغ معالي الأمور إلا الانجذاب لسفولة الأرض.

النفير في القرآن نوعان: للجهاد ﴿أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٨]:

وللعلم: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا﴾، فلا عزة بغير جهاد، ولا جهاد إلا بعلم.

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩]:

توعّد من تخلف عن الجهاد بقوله: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾، مع المبالغة في ألم العذاب: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وهذّد معه بالاستبدال: ﴿وَيَسْتَبْدِلُ﴾، مع الإعلان عن علو القدرة الإلهية، فلا يعجزها شيء: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩]:

تهديد بكل أقسام العذاب، وهي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقطع منافع الدنيا ومنافع الآخرة.

وأوضح عذاب هو ما أخبر عنه النبي ﷺ: «إذا تبايعتُم بالعينة، وأخذتُم

أذناب البقر، ورَضِيتُم بالزَّرع، وتركُتُم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه، حتى ترجعوا إلى دينكم». صحيح الجامع رقم: ٤٢٣.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]:

أتظنون أن جهادكم هو الذي ينصر محمداً ودينه؟ كلا؛ فالله ناصره بأيسر وسيلة وأهون سبب، كما نصره يوم الهجرة برجل واحد! هو أبو بكر على قریش كلها.

الصاحب بحق هو الذي يخفف عنك الأحزان، ويشعرك عند خوفك بالأمان: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]:
لم يقل: لا تحزن، فأنا رسول الله وإني معك، بل تبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ [التوبة: ٤٠]:
بعض الرحمات الإلهية مرهونة بكلمة واحدة ترددها بيقين، لتنهزم بعدها السكينة بغزارة!

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]:
ولو فقدت كل شي، يكفيك أن الله معك، وسيعوّضك.

ليست المعية العامة بالعلم والإحاطة، فهذه تشمل كل الخلق، بل معية التأييد والنصرة، وهذه لا تشمل إلا المؤمنين الذين استجلبوها بطاعة الله وموافقة أمره.

منهج رباني في التخفيف عن المكروبين، لا يتضمن الاستغراق في تفاصيل المشكلات، بل يقوّي النفس على المشكلات بالاستعانة برب الأرض والسموات.

هل الحزن شعار الإيمان؟! كلا.. قال ابن القيم: «اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، وليس من مقامات الإيمان ولا من منازل السائرين، ولهذا لم يأمر الله به في موضع قط، ولا أثني عليه، ولا رتب عليه جزاء ولا ثواباً، بل نهى عنه في غير موضع».

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]:

أعظم صحبة هي التي تخفف عنك أعباء الحياة بتذكيرك دومًا بالله.

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]:

قال القرطبي: «وفيه عشرة أقوال:

الأول: سرايا متفرقين. الثاني: نشاطا وغير نشاط.

الثالث: الخفيف: الغني، والثقيل: الفقير.

الرابع: الخفيف: الشاب، والثقيل: الشيخ.

الخامس: مشاغيل وغير مشاغيل.

السادس: الثقيل: الذي له عيال، والخفيف: الذي لا عيال له.

السابع: الثقيل: الذي له ضيعة يكره أن يدعها، والخفيف: الذي لا ضيعة له.

الثامن: الخفاف: الرجال، والثقال: الفرسان.

التاسع: الخفاف: الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهو مقدم الجيش، والثقال: الجيش بأسره.

العاشر: الخفيف: الشجاع، والثقيل: الجبان.

والصحيح في معنى الآية أن الناس أمروا جملة أي انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت».

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]:

لما كانت البعوث إلى الشام، قرأ أبو طلحة رضي الله عنه سورة براءة حتى أتى على هذه الآية، فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبابًا، جهزوني يا بني! فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فقال: ما سمع الله عذر أحد، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل.

كان أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يقرأ هذه الآية، ويقول: فلا أجديني إلا خفيفًا أو ثقیلاً، ولم يتخلف عن غزاة المسلمين إلا عامًا واحدًا.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]:

أكمل الجهاد ما بذل صاحبه ماله ونفسه في سبيل الله، وبدأ بالمال لأن كلمة الجهاد تنصرف عند أكثر الناس إلى الجهاد بالنفس، فيغفل كثير من الناس عن جهاد المال.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكُ﴾ [التوبة: ٤٢]:

المنافق قصير النفس، والصدق لا يُختبر إلا في الأعمال طويلة المدى. هذا الدين متين، لا يحمّله إلا عالي الهمة، وصادق العزم، ولا مكان فيه لأصحاب العجز والكسل، وعُشاق النوم وسافلي الهمم.

حديث يشبه هذه الآية! قال رسول الله ﷺ في المتخلفين عن صلاة الجماعة: «لو يعلم أحدهم أنه يجد عظمًا سمينًا، أو ممراتين حستين لشهد العشاء».

وهذا توبيخ لمن زهد في صلاة الجماعة، ولو وجد في صلاة الجماعة شيئًا من الدنيا -ولو كان حقيرًا- لحضرها.

﴿وَسَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢]:

معجزة! أخبر الله أنهم سيخلفون، وهو إخبارٌ عن غيب يقع مستقبلًا، وقد وقع كما أخبر الله، فكان هذا مُعْجِزة، ودليلاً على نبوة النبي ﷺ، فقد جاؤوا وحلفوا له كما أخبر الله أنه سيكون.

﴿وَسَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٢]:

في هذه الآية دلالة مهمة على أن تعمّد اليمين الكاذبة يُفضي بصاحبها إلى الهلاك.

﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٢]:

هلاكنّا ليس بالجهاد، بل في ترك الجهاد، وليس بأن نموت في سبيل الله، بل بأن نحيا في خدمة الدنيا.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣]:

٢٥٩١

المراد بالعفو ليس عن الذنب، فهو المعصوم، ولكن عدم مؤاخذته ﷺ في تركه الأولى والأفضل، والأفضل كان ألا يأذن للمنافقين بالتخلف عن الجهاد.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]:

٢٥٩٢

ما أجمل أن تستفتح العتاب بأجل الكلمات! لتستميل قلب من تُعاتب!

﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٤٤]:

٢٥٩٣

كثرة الاعتذارات عن أعمال الخير مؤثّر على ضعف الإيمان بالله واليوم الآخر.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤]:

٢٥٩٤

لا تظن أنك بقبول اعتذارك قد أخذت صكًا بالبراءة! فإن الله مطلع على أسرار المعتذرين، ويعلم الصادق من الكاذب.

﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٤٥]:

٢٥٩٥

المنافقون دائماً يعتذرون عن مواطن الخير ويستأذنون، فلا تشبهه بالمنافقين فتهون.

﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَازْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]:

٢٥٩٦

الاستئذان علامة ضعف يقين، وقلة الثقة في ثواب رب العالمين.

قال الألوسي:

٢٥٩٧

«وتخصيص الإيمان بهما - أي بالله واليوم الآخر - في الموضعين؛ للإيذان بأن الباعث على الجهاد الإيمان بهما، والمانع عنه عدم الإيمان بهما، فمن آمن بهما قاتل في سبيل دينه، وهان عليه القتل فيه لما يرجوه في اليوم الآخر من النعيم المقيم، ومن لم يؤمن كان بمعزل عن ذلك».

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُمْ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]:

من علامات التوفيق وأمارات السابقين: الاستعداد للطاعة قبل دخول وقتها.

تشكو عدم القيام لصلاة الفجر، وأنت كل يوم تنام متأخراً، ولا تضبط منبهك ليوقظك!

ويحك! من عزم على شيء من الخير، فعلامة صدقه أن يبذل له أسبابه.

﴿لَأَعَدُّوا لَهُمْ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]:

عُدَّة هنا نكرة، لتفيد الإطلاق، أي أي عُدَّة، فالذي لا يبذل أي نوع من الاستعداد دنيء المهمة، وليس في قلبه خير.

﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]:

إذا أعاقتك الصوارف عن زيارة بيت الله، فخف أن يكون الله قد كره لقاءك فثبَّطك!

كثرة التكاثر عن الطاعات علامة مخيفة، توحى بأن العبد مطرود من رحاب الله، وعليه أن يعود فوراً.

﴿كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]:

أسقط هذه الآية على صلاة الفجر، وعالج بها كسلك وتسويفك!

﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]:

هم مؤمنون يصغون لأقوال المنافقين، أو مجموعة من المنافقين بين المؤمنين يسمعون لأصحابهم المنافقين ويؤيدون أقوالهم، إن مجرد سماعك للإشاعة هو جزء من خطة المنافق.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨]:

قلب الحقائق عن طريق بلاغة اللسان من أبرز صفات النفاق.

﴿لَقَدْ أَتَغَوْا آلَ فِتْنَةٍ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٤٨]:

لا تنس الماضي الأسود لأعداء دينك، ولا تحرق سجلاتهم المملوطة بالخيانة، ستفيدك يوم القصاص.

﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا﴾ [التوبة: ٤٨]:

ظهر أمر الله رغم خفاء مكرهم وشدة كيدهم، وسيظهر اليوم وغداً رغم كيد الكائدين وتآمر أعداء الدين، سيرد الله كيدهم في نحورهم، كان هذا في الماضي، وهكذا سيكون في المستقبل.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]:

المنافق صاحب أعذار واهية! قال الجذ بن قيس: قد علمت الأنصار أنني مشتهر بالنساء، فلا تفتني ببنات الأصفر يعنى نساء الروم، ولكن أعينك بمالي فاتركني.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]:

لا فرار مهما حاولوا، وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها.

من علامات المنافق أن يفرح بسلامة دنياه ولو خسر دينه: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ

حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ

وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠].

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]:

كلما نقص يقينك بهذه الآية، زاد منسوب الخوف في قلبك.

﴿لَنَا﴾ لنا لا علينا، فالمصيبة فيها خير لك!

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]:

قل لي بربك: كيف تنكسر أمة يرى أبناؤها أنهم رابحون في كل الأحوال؟!

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِن كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا

فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣]:

هل الفسق يجبط الطاعات ويمنع قبول الحسنات؟

والجواب: لا، لأن الآية التي تليها أشارت إلى أن سبب عدم قبول الأعمال الكفر لا الفسق، وهذا من أوضح الأدلة على أن الفسق لا يحبط الطاعات.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]:

قال القرطبي: «أفعال الكافر إذا كانت برًّا كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة الملهوف لا يثاب عليها، ولا ينتفع بها في الآخرة، بيد أنه يُطعم بها في الدنيا».

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]:

المنافقون يتصدقون.. المنافقون يصلون.. فليست العبادة بظاهرها فحسب، لكن الباطن ومحتوى القلب أساس.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥]:

الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمتة: هذه أموال وأولاد جعلها الله استدراجاً لهؤلاء ليدوقوا العذاب، فكيف تُعجبون بها وتغترون؟!

إذا زاغ بصرك لما رأى نعيم أصحاب الثروات والمليارات؛ فخاطب نفسك: هذا ما أعد البشر للبشر؛ فكيف بما أعد رب البشر للبشر!

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥]:

قال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع نعمته عليك، وأنت مقيم على معاصيه، فاحذره؛ فإنها هو استدراج!

﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦]:

ليس معنى يفرقون من الفرقة؛ بل من الفرق وهو الخوف.

﴿لَوْ يَخْذُلُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦]:

الآية تصوير نفسي لما عليه المنافقون من خوف شديد وبغض دفين للمؤمنين، بحيث لا يطيقون التواجد معهم في مكان واحد، ولو وجدوا أماكن أخرى - ينفر منها الناس - لأسرعوا نحوها إسراعاً شديداً طلباً لعدم لقاء المؤمنين.

المنافقون لا يطيقون رؤية عزة الإسلام، ولا يصبرون على الإقامة في بلاد يُعزُّ فيها الدين، ولو استطاعوا أن يركضوا فرارًا من مشاهد عزة الدين لما تأخروا، كالفرس الجموح الذي لا يقف في وجهه شيء.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]:

ما اللمز؟! اللمز: العيب والوقوع في الناس، وقيل: اللمز هو العيب في الوجه، والهمز: العيب بالغيب.

المنافقون أعداء النجاح، ورواد السخرية من المؤمنين، ولن يجدوا أنسب من غزوة تبوك لإطلاق حملتهم هذه، فكيف سيواجه هؤلاء الفقراء الضعفاء جحافل أقوى دولة في الدنيا، ويقابلونها بجيش قائم في تجهيزه على التبرعات، ويحتاج لنصف صاع وحنة تمر!

لن يسلم من ذم المنافقين أحدٌ، فلا المتصدِّقون سلِمُوا، ولا الممسكون، لا المكثرون ولا المقلِّون.

منظار الشك واتهام النوايا فضلًا عن أنه غير موضوعي، فهو ضد ما أمر الله به من الحكم على الظاهر، والله يتولى السرائر.

اللمز داء يعبر عن نفوس المنافقين المريضة، فالمرء يطلب عيب غيره بمقدار تشرب قلبه بهذا العيب. قال عون بن عبد الله: «ما أحسب أحدًا تفرَّغ لعب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه».

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]:

جعل الإيتاء لله ولرسوله، لكنه جعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾، ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إلى الله وحده، فالتوكل والحسب والرغبة لا تنبغي إلا لله.

قال الإمام الرازي: «والآية تدل على أن من طلب الدنيا - بطمع وشراسة - آل أمره في الدين إلى النفاق، وأما من طلب الدنيا بتوسط وبغرض التوسل إلى مصالح الدين، فهذا هو الطريق الحق، والأصل في هذا الباب أن يكون راضياً بقضاء الله».

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ.. فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠]:

هاتوا لي نظاماً بشرياً بلغ من رحمته وحرصه على مصالح الناس أن يحاسب من لم يدفع من ماله للمحتاج.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنُ﴾ [التوبة: ٦١]:

أي يقبل كل ما يقال له، ولا يميز بين صادق وكاذب، ويقصدون بذلك النبي ﷺ، وذبح الله عن نبيه: ﴿قُلْ أَدْنُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]، فإعراضه وعدم تعنيفه لأصحاب الأعذار الكاذبة، بسبب حسن خلقه.

﴿تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]:

سبب نزولها:

رُوي أن قوماً من المنافقين اجتمعوا، فيهم الجلاس بن سويد ووديعه بن ثابت، وفيهم غلام من الأنصار اسمه عامر بن قيس، فَحَقَّرُوهُ فَتَكَلَّمُوا وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمير، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول حق، وأنتم شر من الحمير، فأخبر النبي ﷺ بقولهم، فحلفوا أن عامراً كاذب، فقال عامر: هم الكذبة، وحلف على ذلك وقال: اللهم لا تفرِّق بيننا حتى يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب. فأنزل الله هذه الآية.

﴿مَنْ تَزَيَّنَ لِلْخَلْقِ طَلَبًا لِرِضَاهُمْ وَاتَّبَاعًا لِهَوَاهُمْ، أَسْقَطَ اللَّهُ جَاهَهُ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَشَأْنَهُ فِي مَا تَوَهَّم أَنَّهُ قَدْ زَانَهُ﴾.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]:

قال بعض أهل التفسير: كان الظاهر أن يقال: «يرضوهما»، وسبب العدول عنه إلى «يرضوه»: الإعلام بأن إرضاء رسوله هو عين إرضاء الله، وهذا من بلاغة القرآن وقمة الإيجاز.

ولو قال «يرضوهما» لما أفاد هذا المعنى، إذ يجوز أن يكون إرضاء كل منهما في غير ما يكون به إرضاء الآخر، وهو خلاف المراد هنا. وكذلك لو قال: «والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه» لا يفيد هذا المعنى أيضاً، وفيه ما فيه من الركاكة والتطويل.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ تُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣]: من خالف أمر الله ورسوله توعده الله بعذابين: جسدي بالنيران + نفسي بالخزي والهوان.

﴿تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]: من أسرار عظمة القرآن، إخباره عما يدور في القلوب!

﴿وَلِينَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]:

سبب النزول: عن زيد بن أسلم أن رجلاً من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما لقرائنا هؤلاء، أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة، وأجبنا عند اللقاء؟ فقال له عوف: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، قال زيد: قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له النبي ﷺ: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون؟!

السخرية بالآيات واستعمالها في المزاح دائرة محظورة، وقد تزل بصاحبها -دون أن يشعر- نحو النفاق.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]:

قال ألكيا: «فيه دلالة على أن اللاعب والجادّ في إظهار كلمة الكفر سواء، وأن الاستهزاء بآيات الله كفر».

قال الرازي: «لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف، والعمدة الكبرى في الإيمان تعظيم الله تعالى بأقصى الإمكان، والجمع بينهما محال».

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]:

من أمر بالمنكر ونهى عن المعروف بقلمه أو لسانه فقد التحق بزمرة المنافقين.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ النَّارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨]:

قال السعدي: «جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك، لا اجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة لله ورسوله، والكفر بآياته».

﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]:

لا جديد في الظلم ومعاداة الدين، لكن الجديد هو الزمان والمكان والأشخاص.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِم نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]:

بلى قد أتاهم هذا النبأ، فلم يعتبر المنافقون والكافرون بحال من سبقهم في نفس الطريق، عصوا رسل ربهم وعاندوه، فأخذهم العذاب!!

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]:

كلما زاد زاد إيمانك، زادت موالاتك وعونك لإخوانك.

قال ابن تيمية: «مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا وَجَبَتْ مَوَالَاتُهُ مِنْ أَيِّ صَنْفٍ كَانَ، وَمَنْ كَانَ كَافِرًا وَجَبَتْ مَعَادَاتُهُ مِنْ أَيِّ صَنْفٍ كَانَ، وَمَنْ كَانَ فِيهِ إِيمَانٌ وَفِيهِ فَجُورٌ، أُعْطِيَ مِنَ الْمَوَالَاةِ بِحَسَبِ إِيمَانِهِ، وَمِنْ الْبُعْضِ بِحَسَبِ فَجُورِهِ».

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]:

قال ابن تيمية:

«هؤلاء الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر أطباء الأديان، الذين تُشْفَى بهم القلوب المريضة، وتهتدي بهم القلوب الضالّة، وترشّد بهم القلوب الغاوية، وتستقيم بهم القلوب الزائغة، وهم أعلام الهدى ومصابيح الدُّجى».

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]:

نعيم فوق كل نعيم، يناله أهل الجنة، فإن أعظم نعيمهم ليس النعيم الحسي بالخور والقصور والأنهار والخمور، لكنه النعيم القلبي الذي ينبع من رضوان الله عن عباده المؤمنين.

أمر الله نبيه باللين عند الدعوة فقال: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فلما أصرّوا - بعد بيان الحجّة - قال: ﴿وَأَعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]؛ لأن هذا في حال إصرارهم وزوال أعذارهم.

﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ جَهْدًا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]:

فائدة الجمع بين الكفار والمنافقين في الجهاد:

إلقاء الرعب في قلوب المنافقين، فإنهم يخشون افتضاح أمرهم فيعاملون معاملة الكفار المحاربين، وجهاد المنافقين بالفعل متعذر؛ لأنهم لا يُظهرون كفرهم؛ ولذلك تأول أكثر المفسرين جهاد المنافقين بالمقارعة بالحجة، وإقامة الحدود عليهم إذا ظهر منهم ما يستوجب الحد.

﴿تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [التوبة ٧٤]:

لما نزل القرآن وفيه ذكر المنافقين قال الجلاس بن سويد: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير، فسمعه عمير بن سعد فذكر ذلك للنبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ الجلاس عما قاله عمير، فحلف بالله ما قال ذلك، وزعم أن عميراً كذب عليه، فنزلت الآية.

﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة ٧٤]:

قيل لأبي علي البجلي: أتجد في كتاب الله تعالى: «اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ»؟ قال: نعم.. ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَبِئْسَ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ نَحَلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [التوبة ٧٥-٧٦]:

قال الرازي: «ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد، وخلف الوعد، يورث النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه، فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به».

ليحذر المؤمن من أن يعاهد ربه: إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن وليفعلن، ثم لا يفي بذلك، فربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء بالنفاق.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧]:

لا تحتقر ذنباً، فبعض الذنوب تنسف الدين، وتبقى إلى يوم الدين.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]:

كيف تخادع من لا تخفى عليه خافية، والسر عنده علانية؟

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]:

﴿يَلْمِزُونَ﴾ بصيغة المضارع، يدل على الاستمرارية والاعتیاد من هؤلاء المنافقين، وأن اللمز أصبح ديدناً وسلوكاً معتاداً عند هؤلاء، وليس فعل مرة أو مرتين، فكأنهم يتلذذون به ويفرحون.

﴿٢٦٥﴾ أتفهم أن يعيب الرجل من يرى فيه عيباً واضحاً أو تقصيراً ظاهراً، وأما أن يعيب المرء لأنه قدّم طاعة وصنع معروفًا، فهذا هو العجب العجيب!

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٧٩]:

للمنافقين قدرة عجيبة على تحويل أعظم إنجازات المؤمنين إلى مادة للتندير والسخرية!

﴿٢٦٦﴾ قال مجاهد في سبب نزولها:

«كان لعبد الرحمن بن عوف، ثمانية آلاف دينار، فجاء بأربعة آلاف دينار صدقة.

وجاء رجل من الأنصار بصاع تمر نزع عليه ليله كله، فلما أصبح جاء به إلى النبي ﷺ، فقال رجل من المنافقين: إن عبد الرحمن بن عوف لعظيم الرياء، وقال الآخر: إن الله لغني عن صاع هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ

يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٧٩] عبد الرحمن بن عوف، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] صاحب الصاع».

﴿٢٦٧﴾ من صفات المنافقين ألا يسلم من ذمهم ولمزهم أحدًا، فلا المتصدقون سلّموا، ولا الممسكون، لا المكثرون ولا المقلّون، يهتمون المؤمنين في نياتهم، فكل مؤمن عندهم مرء، ولا يفعل ما يفعل من الخير ابتغاء وجه الله، بل هدفه الشهرة والسمعة.

﴿٢٦٨﴾ ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]:

انظر شدة شفقتك ﷺ بآمته، وكثرة دعائه لها بالرحمة والمغفرة، وأنه مع إيذاء المنافقين له كان يستغفر لهم - أملا في توبتهم - إلى أن نهاه الله عن ذلك.

﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٠]:

بشارة عظيمة! استغفارك لأخيك نافع نافع؛ لأن الذي حال بين أهل هذه الآية وبين استغفار النبي ﷺ لهم هو كفرهم لا غير.. جهّز من الآن قائمة الأسماء لمن ستستغفر لها.

الفرح بفوات الطاعة وكراهية فعلها مرحلة متقدمة من مراحل النفاق: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ [التوبة: ٨١].

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ [التوبة: ٨١]: من اللطائف: اختيار لفظ ﴿خِلَافَ﴾ بدلاً من لفظ (خَلْفَ)، ليفيد معنى إضافياً: أن قعودهم كان مخالفة لأمر رسول الله ﷺ حين استنفر الناس للغزو. كل مشقة تترك الطاعة من أجلها في الدنيا، تُعاقب بأضعاف أضعافها يوم القيامة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١].

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]: في الحديث: «والذي نفسي بيده! لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»، ثم انصرف ﷺ؛ وأبكى القوم، وأوحى الله عز وجل إليه: يا محمد! لم تُقنط عبادي؟!

فرجع النبي ﷺ، فقال: أبشروا، وسددوا، وقاربوا». السلسلة الصحيحة رقم: ٣١٩٤

﴿إِنْكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا﴾ [التوبة: ٨٣]:

استحضار التاريخ وسوابق المراء ضرورة للتقديم والتأخير، وخاصة عند الترشح لعظام الأمور والمهام.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]:

صلاتك عليهم ووقوفك على قبورهم نوع من الشفاعة فيهم، والكافر لا

تنفعه شفاعته، وفيه دليل على تحريم الصلاة على الكافر، والوقوف على قبره، والدعاء له، والاستغفار.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]:

دليل على انتفاع عموم الأموات بوقوف من يقف عندهم من الداعين؛ إلا أن يكون منافقًا عرّف به رسول الله ﷺ.

سبب النزول:

روى البخاري عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي (رأس النفاق) جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه، فأعطاه إياه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال الرسول ﷺ: «وإنما خيرني الله»، فقال: ﴿أَسْتَغْفِرُ هُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ هُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ هُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ هُمْ﴾، وسأزيده على السبعين. قال عمر: إنه منافق، فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾..

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]:

أعيد قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾، لتأكيد ما قرره الله من عدم الإعجاب والاغترار بأموال الفجار والكفار في الدنيا، فيظل المعنى على بال المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، ولا يفتن إن رأى الدنيا تفتح أبوابها للفاجر.

﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦]:

أولو الطول هم الأغنياء، فكثيرًا ما يصد المال صاحبه عن التضحية في سبيل الله، وكما قيل: رأس المال جبان.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]:

قد تتخلف عن الخير يوماً ما رغماً عنك، فتجد نفسك بين غير المؤمنين، فاكـره هذه الحال بقلبك وإياك أن ترضاها.. خطر!!

يبدأ الشيطان خطة التدرج من كراهية الذنب، ثم اعتياده، ثم الرضا به.. كيد أبالسة!

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٨]:

رسول الله ﷺ يتقدم موكب التضحية، ومن ورائه كل داعية صادق، عليه أن يدعو الناس بحاله قبل مقاله، وعمله قبل لسانه.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٩]:

من الذي أعد؟! لو أن ملكاً من ملوك الأرض دعاك إلى ضيافته، لو أن أغنى أغنياء العالم استضافك في قصر من قصوره، فكيف تكون لذتك؟! فكيف والله جل جلاله هو الذي أعد وهياً؟! وفيه إشعارٌ بغاية العناية الإلهية.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ﴾ [التوبة: ٩٠]:

أصحاب الأعذار قسماً: قسم صاحب عذر حقيقي وهم المعذرون، وقسم كاذب في أعذاره، وهم المنافقون.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٠]:

ما معنى النصح هنا؟! الجواب: بيان ما يجب على القاعدين عن الجهاد بعذر. قال الجمل: «ومعنى النصح - هنا - أن يقيموا في البلد، ويحترزوا عن إنشاء الأراجيف، وإثارة الفتن، ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو، ويقوموا بمصالح بيوتهم، ويخلصوا الإيمان والعمل لله ويتابعوا الرسول ﷺ، فجملة هذه الأمور تجري مجرى النصح لله ورسوله».

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩٠]:

لا سبيل لعتاب عليهم، أي: لا يمرُّ بهم العتاب، ولا يجتاز أرضهم، فما أبعد العتاب عنهم، ولا مؤاخذه لهؤلاء المحسنين، بسبب تخلفهم عن الجهاد، بعد أن نصحوا لله ولرسوله، وبعد أن حالت الموانع الحقيقية بينهم وبين للجهاد.

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]:

ليس لأحد أن يسلك أي سبيل أو طريق لمؤاخذه أو عتاب هؤلاء المحسنين، بعد أن أقعدتهم الموانع الحقيقية عن الجهاد، والمعنى: لا سبيل يستطيع أي معاتب أن يمر به إليهم، ولا حتى أن يقترب منهم، فما أبعد العتاب عنهم! وهذا من أفصح البيان.

﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]:

ضأقت أيديهم عن بذل الأموال والنفقات، فتطوعت العيون بدلاً منها ببذل الدموع والحسرات.

مما غاب من العبادات: الحزن على عدم القدرة على القيام بالطاعات.

بكى قومٌ على فوات الطاعات، وبكى غيرهم على ارتكاب السيئات.. هم درجات عند الله.

